

كتاب أنشور

فلاح في بلاط صاحبة الجلالة



أبراهيم الورولاني

كتاب أكتوبر

فلاح في بلاط طائفة البحارة

لـ إبراهيم الورولاني



دار المعارف

ملحوظة لقارئ هذه الصفحات :
لن تقرأ رواية تقليدية بل
سيرة من سنوات حياة مصرية
المؤلف

الغلاف بريشة الفنان : محمود مصطفى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سطور قبل الكتاب

بسبب هذه السطور التي طلب مني الأستاذ ابراهيم الورداني أن أكتبها في مقدمة كتابه ، تعطل صدور « فلاح في بلاط صاحبة الجلالة » ، وبقي منتظرا عدة أسابيع في ماكينات وآلات الطباعة .

ذلك أن ابراهيم الورداني بالنسبة لجيلي بصورة عامة ، وبالنسبة لي بصورة خاصة ليس مجرد كاتب عادي حتى يمكن أن أكون أنا الذي أكتب مقدمة كتاب له .. فإبراهيم الورداني هو أول مدرسة تعلمت فيها معنى الكتابة وسحر الألفاظ وعطر الكلمات وجمال الحروف والتعبيرات .. وبسبب ابراهيم الورداني تغير بالتأكيد تاريخ حياتي وعرفت عشق الكلمة وغرام القلم وعذاب المهنة التي لم أعرف غيرها منذ كنت في الثالثة عشرة ..

في هذه السن الصغيرة كانت قراءاتي مجرد قشور لا تتجاوز حدود جريدة اسمها البعكوكة - أشهر المجلات الكوميديّة في سنوات الأربعينات - وبعض روايات الجيب ، ومغامرات السندبادين الشهيرين البحري والبري .. قراءات كلها من نوع قزقة اللب لمجرد التسلية وشغل أى وقت فراغ وليس لي عليها طول بال ، فأى دعوة من أحد أصدقاء شلة المجموعة في شارع الأمير بشبرا حيث كان سكني في ذلك الوقت كان يجعلني ألقى بأي كتاب أو صحيفة وأجرى جريا إلى الشارع .

إلى أن حدث والتقيت به .. بإبراهيم الورداني .
ورغم بعاد السنين وتتابع الأحداث وزحف الشعر الأبيض على
الرأس التي كان يلمع لونها بالسواد ، فلازلت أذكر جيدا كل تفاصيل
هذا اللقاء ..

أذكر جيدا أن اليوم كان الأربعاء أول أكتوبر ١٩٤٧ وأن الساعة
كانت تقترب من الحادية عشرة صباحا وهو موعد اجتماع ولقاء شلة
واصدقاء الشارع .. أهم موعد كنا نحرص عليه جميعا رغم تفاهة
أو هيافة ما كنا نمارسه معا من ألعاب مشتركة ولكنها بالنسبة لنا
ولتفكيرنا كانت أهم من اجتماعات مجلس الأمن والذي كنا في عرفنا
عنه لأول مرة في ذلك الوقت عندما خرجنا نشترك في مظاهرات
الاستقبال التي ملأت كل القاهرة احتفالا بعودة محمود فهمي
النقراشي ورئيس الوزراء قادما من الخارج حيث وقف في مجلس الأمن
وقال للانجليز وبأعلى صوت : اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة .. !

يوم الأربعاء أول أكتوبر ٤٧ أعيد إليه ، فما أكثر التواريخ والأيام
والسنوات التي نسيتهما ، ولكن هذا اليوم ، وهذه السنة .. وهذه
الساعة أبدا أبدا لا يمكن أن تنوّه في زحام الأحداث ..

كان أمامي على كل حال خمس دقائق باقية على اجتماع « الشلة »
في الشارع ، وكنت تقريبا في طريقي إلى باب الخروج عندما اصطدمت
قدمي بورقة صحيفة كان واضحا أنها بقية باقية من جرنال اسمه
« النداء » فرشناه على مائدة الفطور وألقى به أخى قبل أن يغادر
الشقة ويتركني وحيدا ..

انحنيت ألنقط الصفحة عندما لفت نظري عنوان لازالت حروفه
تطل أمامي حتى اليوم :
ليالى القاهرة ..

بيد اللامبالاة فردت الصفحة وأوشكت أن أمر عليها مرورا سريعا

ولكن شيئاً غريباً جذبني إليها .. منذ أول فقرة قرأتها بدأت أحس أنني
أنفصل تماماً عن كل هذا العالم الذى حولى .. لم أشعر بنفسى وأنا
أجلس القرفصاء فوق الأرض وعيناي جاحظتان معلقتان على سطور
الصفحة الكبيرة وكل مداركى بعيدا بعيدا مع هذا العالم الغريب الذى
أخذنى إليه كاتب القصة ..

هل مضى وقت طويل علىّ قبل أن أنتهى من قراءة القصة ؟
لا أذكر ..

كل الذى أذكره أننى نسيت تماماً موعد الشلة وجلست مبهورا أعيد
قراءة القصة الطويلة مرتين أو ثلاث مرات ثم أنظر إلى اسم كاتبها
مرة واثنين وثلاثا .. ثم بعد تهيدة عميقة وجدت نفسى أقول بصوت
عال .. صوت لازلت أسمعه حتى اليوم : يا سلام .. الكتابة دى جميلة
قوى ..

لأول مرة عرفت فى هذه اللحظة معنى الكتابة وقيمة القلم وعظمة
كاتب له قلم يستطيع أن يكتب به ما يجذب اهتمام واحد مثلى وينسيه
مواعيده وألعابه وكل مشغوليّاته ويبقيه مسمرا مجمدا أمام كلمات هذا
الكتاب .

استولى علىّ شعور عظيم بأن هذه هى أعظم مهنة فى الوجود يمكن
أن يقوم بها انسان .. مهنة أن يتمكن كاتب من سحب قارئه بعيدا عن
كل مشاغله وأفكاره وناسه ويجلسه أمامه ويملى عليه بمختلف المشاعر من
آلام وآمال وأحزان وأفراح كل ما يريد أن يقول دون أن يترك لهذا
الجالس أمامه فرصة حتى أن يتلفت يمينا أو يسارا ..
ما أجل الكتابة .. بل ما أجل أن أكون كاتبا ..

وفى هذه اللحظة .. فى هذه الساعة .. فى هذا اليوم .. قررت أن
أكون كاتبا ..

وبعد أسبوع تقريبا .. فى يوم الجمعة ١٠ أكتوبر كنت رئيس تحرير

أول مجلة أصدرتها واسمها « الحقائق » .. مجلة منزلية من صفحات وأوراق الكرايس أقوم أنا بكتابتها وقرأتها ..

ومن هذه المجلة الخاصة جدا جدا عرفت شيئا بالغ الأهمية .. عرفت أنني لكى أكتب يجب أولا أن أقرأ .. وبدأت أطوف سور الأزبكية وباعة الصحف وأشهرها بائع عجوز فى العتبة بحثا عن كل قصص كاتب « ليالى القاهرة » ابراهيم الوردانى . كنت قد عرفت أنه كان يكتب فى مسامرات الجيب فاخذت ابحث عن كل الاعداد القديمة التى كان يكتب فيها .. وتتبعته فى مجلة الاثنين والمصور وبعض الأعداد الخاصة من مجلة الهلال التى كان يكتب فيها ..

كل قصصه قرأتها .. إلى أن صدر له كتاب اسمه « نحن بشر » كانت فرحتى به بالغة .. ولم انتظر حتى أعود إلى البيت لأقرأه بل اختفيت وحدى فى حوش مدرسة التوفيقية تحت ظلال شجرة لا أريد الدخول إلى الفصل قبل أن أنتهى من قراءة الكتاب .. كانت دنيا جديدة فتحتها لى ابراهيم الوردانى بأسلوبه الفريد الذى راح يغزو به صفحات ومجلات الأربعينات وهو خلاها فارس القمة فى كتابة القصة ..

اسلوب تحس بأن لكلماته نوعية خاصة فى التحول إلى عطر يتسلل إلى داخلك وينعشها اثارة واهتماما واعجابا .. وكان قد بدأ فى هذا الوقت يجمع بين قوة الأسلوب ورشاقة التعبيرات ودقة وصف الشخصيات وحبكة النهاية حتى تكون المفاجأة التى تجعل القارئ يقفز من كرسيه اعجابا وانتعاشا .

ومنذ قرأت لابراهيم الوردانى عرفت معنى القراءة والكتابة معا .. ومن مدرسة الوردانى دخلت مدارس أخرى لعدد آخر من أصحاب الأقلام ، لكن ابراهيم الوردانى ظل فى داخلى له مكانته الخاصة التى

لا يمكننى أن أنساها بل لعلى بعد كل هذه السنوات أسأل نفسى : هل كان يمكن لو لم أقرأ للوردانى فى بداية حياتى أن أعشق القراءة والكتابة هذا العشق الذى كان كل حياتى ؟ ..

أغرب ما فى الاجابة عن هذا السؤال أن ابراهيم الوردانى الذى كان أول كاتب قرأت له ، كان آخر كاتب عرفته كشخص عندما انتميت إلى هذه المهنة العظيمة وبدأت اعايش عن قرب كل الأسماء اللامعة والنجوم الساطعة فى سماءها ..

فلاح ..
فلاح بكل طيبة قلب الفلاح وقناعته وفرحته بحصاد الموسم يكفيه إirاده لكل العام ..

فلاح له جذور عديدة تمتد إلى أعماق القرية وأعماق تاريخ مينا وخوفو ورمسيس وكل الفراعنة الذين كانوا يسىرون شامخى الرأس تحف بهم وتحيطهم الرعية ..
فلاح له كل مواصفات الفلاح المصرى من طيبة وعناد وبساطة وقوة ، وقناعة بالقليل ، وتمسك بكل ما يؤمن به لايمكن أن يتنازل أو يتخلى عنه مهما كانت المتاعب أو الأهوال .
ولهذا ليس غريبا أن يكون عنوانه لهذا الكتاب هو « فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة » .

إنه ليس كتابا فى التاريخ ، ولكنه حافل بصفحات وأسرار التاريخ .

ليس كتابا فى السياسة ، ولكنك تعيش فيه السياسة .
ليس كتابا فى الوطنية ولكنك تتعلم منه الوطنية .
إنه مجموعة صور من سنوات الأربعينات .
هذه السنوات التى فى رحم أحداثها نمت بذور الثورة التى غيرت

وجه مصر ..

وفى كتابات إبراهيم الوردانى خلال هذه السنين تعلم كثيرون جمال
وحلاوة الكتابة ..

ولكن هاهى الأيام تجرى والتلميذ يقدم كتاب الأستاذ ..

تفضل يا أستاذ ..

يا ناظر أول مدرسة تعلمت فيها كيف أمسك القلم ..

صلاح مفتاح

« البنيون »

القاهرة - ١٩٤١

انتقلت من « حارة خليل على بشبرا » إلى « بنسيون فيوليت
بشارع الفجالة » .. غرفة فسيحة ، ذات ستائر ، وسرير نحاسي
لامع ، ودولاب كبير شامخ ، ونجفة في السقف ، وسجادة على
الأرض ، ومقاعد كثيرة وثيرة ، ومائدة رخامية براقية - أفرغت عليها
كتبى وأوراقى وأقلامى فورا - فهنا حقا تحلو الكتابة !
حوائجى كلها حقيبة من الكرتون الغليظ البالى ، بها ثياب محدودة
جدا . شيشب وفرشة ومشط ، وبدلة واحدة مكحوتة هى التى ألبسها ،
وقفص كبير من الجريد مشحون بالكتب والمجلات وكتل الأوراق
المكتوبة - ما أشد خجلى من شكله الريفى ولكنه أهم ما عندى !
صاحبة البنسيون شامية طيبة فى الخمسين تقريبا ، اسمها « مدام
آدمة » . ولأن هناك توصية فقد خفضت إيجار الحجرة الشهرى من
١٥٠ قرشا إلى ١٢٠ قرشا ! دفعت إيجار أول شهر فورا - وقبل أن
أفكر فى أى شيء أو أرتب أى شيء تحركت خارجا فأمامى مهمة
عاجلة لابد أن أتمها قبل أن استريح وأستقر فى مأوى الجديد الرائع
هذا ! .. أحصيت النقود الباقية فى جيبى وهى ثلاثة جنيهات وخمسة
عشر قرشا .. نعم ويوسى أن أؤدى المهمة كاملة حتى لو صرفتها

كلها .. خرجت .. أغلقت الباب بهدوء .. أحاذر أن يرانى أحد ببدلتى
الزرية وحذائى الهالك !

.....

اليوم أول الشهر ، وقد قبضت أول مرتب كامل لى من عملى
الجديد .. تسعة جنيهات وربيع جنيه . وأول شيء فعلته أن سددت
ديونى ، وهاهو ايجار البنسيون مدفوع ، وأمامى الآن أن أدفع جنيها -
آخر قسط من الثلاثة جنيهات - لأستلم بدلتى الجديدة « قماش
وتفصيل » من عند « الحاج جلال الترزى » فى آخر شارع الفجالة ..
ولابد من حذاء جديد طبعا ، وثمانه لا يقل عن أربعين قرشا . ثم
القميص ، بل لابد من قميصين وربما الواحد بـ ٢٥ أو ٣٠ قرشا . ثم
الكرافته ، وقد رأيتها فى الفترينة بثلاثة قروش . ومناديل جيب بقرش
صاغ الواحد ، ثم ماكينة حلاقة وفرشة وأمواس بخمسة تعريفة ،
وفوطة طبعا ولابد !

تحركت فى شارع الفجالة نحو « عم جلال » . الشارع كله
بارات ، وخمارات ، ودكاكين مكدسة ، وله لمعة شارع قاهرى هام ! ..
مسكن الفجالة ترقية طبقية لى ، فأنا لم أقترب من قلب البلد أبدا .. لم
أسكن فى غير أطراف وأحراش « شبرا » و « جزيرة بدران » .. منذ
جئت من القرية ، ابتدأت فى شبرا ، وثانوى فى شبرا ، وشيكولانى ،
وشارع مسرة ، والترعة البولاقية ، وكنيسة الراهبات .. القاهرة مخيفة
ومزيجرة فهمى فى حالة حرب « حرب هتلر وموسوليني » .. مخيفة
وصاخبة تتلاطم مع مليون عسكري مسعور ومخمور يأخذون أيام
الاجازات قبل الموت .. انجليز ، وأمريكان ، وأتراك ، وسنغال ..
فوانيس زرقاء ، وطرايش حمراء ، ونساء ليل نشيطات ، وموسيقى
وحشية . ففى كل ركن كباره .. سكارى يتطوحوون ويتعاركون ..
مصفحات ودبابات وصفارات انذار .. البنات المجندات ووقدة

خدودهن .. ثكنات قصر النيل والوجوه والأبدان الحمراء العارية تملأ
النوافذ .. العمارات كلها مشحونة بسكان من لندن وباريس وقبرص
وماطة وأستراليا وجنوب افريقيا !

القاهرة ومن ورائها الريف اليتيم ، منكشة على نفسها تتفاعل مع
التغير في صمت وبلا إرادة .. مجرد حلقة مندهشة وراء الحرب وجنود
الحرب وأسرى الحرب ومخازن الحرب .. ليست هناك من أحداث هامة
إلا « مجموعة الملك » وقد بدأت تظهر مغامراته .. وبمجموعة الأمراء
والبشوات والبكوات . والآلهة عبود وب دراوى وسلطان والملوم والباسل
واندراوس .. لكل واحد قصر وضعة وعبيد .. الفقر والحرمان
والضياع - ورغم فلوس الحرب - ينحر مصر ويفتك بكرامتها ..
المدارس ضئيلة ، والمستشفيات نادرة ، وزجاجة اللبنة لاحتجدها ، وإبرة
وايور الجاز واختفاؤها يحدث أزمة .. الناس مشغولون وراء هتلر
وتشرشل وروزفلت .. « سينما ديانا » والسلام الانجليزى يقف له
الجميع ، والافلام كلها عن الحرب .. وزجاجات البيرة ، والكونياك ،
والويسكى ، ولفافات الحشيش .. « الصحافة » فى كل دار رقيب
عسكرى انجليزى يشطب الخارجيات ورقيب مصرى يشطب
الداخليات . « الأهرام » كالعادة فى القمة .. « المصرى » من ورائه
ينمو .. و « المقطم » بعد الظهر ، و « البلاغ » و « الجهاد »
و « صوت الأمة » و « كوكب الشرق » .. حافظ عوض ، وتوفيق
دياب ، ومكرم عبيد ، وكريم ثابت ، وأبو الفتح ، والهلالي ، مجلات
اسبوعية بالعشرات ومعظمها يعيش على المصاريف السرية من وزارة
الداخلية .. « رخا » يرسم عشر مجلات كل اسبوع .. « التابعى »
وهج هائل ، و « الصاوى » نجم الاحلام ، و « توفيق الحكيم »
يكتب حواراته مع الحمير .. « العقاد » متفرغ لشتيمة هتلر وتحليل
تشرشل .. « طه حسين » يترجم اليونانيات والباريسيها ..

و« المازنى » يتلطم بين المجلات .. « ناجى » و« زكى مبارك » يسكران على نواصى الحانات ! .. « أفلام الحرب » بشارة واكيم ومزراحى ، والمعلم بحبح ، وأم أحمد ، والكسار ، والريحانى ، ويوسف وهبى !.. كباره وكوبرى « بديعة » ! .. « بيا » فى الكيتكات .. موجة أحلام مع أفلام عبد الوهاب ومحمد كريم ! .. المجلات وأهم أبوابها « الهايلاف » و« الطبقة الراقية » و« أولاد وبنات الذوات » و« الناس مقامات » ! .. و« اسمهان » باعت قبلة بمائة جنيه فى حفلة خيرية ، و« شعراوى » خسر أمس خمسة آلاف جنيه فى البوكر ، و« عبود » اشترى يختا بمليون جنيه ، و« الملكة نازلى » « تصطاد الفحول فى الليل بجوار عوامة الجزيرة » ! المقاهى ، المقاهى ، فى القاهرة كثيرة كثيرة ، فالعاطلون والمتسكعون هم معظم المواطنين .. المدارس بمصاريف فمن يريد أن يتعلم .. الجامعة ورغم ندرة خريجها إلا أن تسعة أعشارهم لا يجدون وظائف .. بعضهم يحمل صندوق مسح الأحذية وشهادة الليسانس أو البكالوريوس معلقة فوق ظهره ! .. الفهولة ولعبة الثلاث ورقات وخطف الرزق هى هواية « ابن البلد » وعلى طول الليل والنهار .. الفلاحون فى الوحل والنشع والتراب .. ركود واستسلام ماذا يفعلون .. لا توجد نقود أو أجور أو ركوبة .. الجزمة أو البلغة شىء نادر .. زبدة الريف كلها تسافر إلى حفنة الأمراء والباشاوات والخواجات والملايين تسف التراب ! .. النقود فى الارياض غير موجودة بل غير معروفة .. السفر بالقطار محنة لأنه غال .. لا يوجد اتوبيس ، بل لا توجد طرق .. الحمار المسكين هو رائد عملية النقل على طول بلاد النيل لاسواه .. جهاد بعض الفلاحين يبدو أنه مظاهرة . كأنه اتفاق تمرد قبلى وبحرى على أن أولادهم يجب أن يدخلوا المدارس . يجب أن يواجهوا هذا الظلم . إنهم فى عناء الاستشهاد الحقيقى يهربون أولادهم خلسة إلى تحتة التعليم .. يبيعون

الحصيرة والملاية والحلة بل ولحم الكتف لمن يشتري ليجدوا لهم
المصاريف وتكاليف الإقامة .

.....

اشترت ولم أفاصل .. وعدت أحمل لفائف الأشياء كلها لأتسلل
متواريا كي لا يلحظني أحد . وأدير أكرة باب حجرتي وأدخل بطرف
حذائي .. أغلق الباب وأخذ أنفاسي أخيرا فما أشد حاجتي للراحة ..
وضعت اللفائف على الكتبة ، ثم خلعت الجاكته ، وقذفتها بعيدا .. ثم
استندرت أخلع بقية ثيابي . لأتلجم على منظر غريب ومفاجئ ! ..
يافزعي ما هذا ؟

(فتاة) نائمة على سريري وفي أعماق حالات النوم ! .. فتاة
بيضاء ملفوفة حمراء شقراء ناصعة الظهر لامعة بطن الساق ! .. حملقت
فيها برهة بلا إرادة ، ثم استندرت برأسي عنها في حياء مذعور ..
خجلت من وقفتي التي تجمدت عليها برهة بل لعنت نظراتي الوقحة .
وباللعار أن أطيل النظر في امرأة نائمة . اندفعت خارجا من الباب ..
أغلقت من خلفي في هدوء ، ووقفت بجواره حائرا مضطربا لا أدرى
ما هذا وماذا أفعل .

.....

لمحتني مدام آدمة في وقفتي فاستغربت واقتربت مني تسألني
ما الخبر ؟ .. وفي ارتباك شديد أشرت نحو الحجرة فإن فيها أناسا
نائمين ! .. اندفعت تفتح الباب ودخلت .. بقيت في وقفتي حائرا .. ثم
بعد لحظات سمعت ضجة معركة .. أصوات صفعات وركلات ولعنات
واستغاثات .. ثم فتاة السرير تهول صائحة باكية ومن خلفها مدام
آدمة مندلعة الغضب ، وفي يدها - ياللهول - شبشبى القديم الغليظ
تنهال به على ماتطوله من لحم الفتاة الرقيق ! .. تواريت ، تواريت ..
فقد تجمع نزلاء البنسيون على الضجة والصياح .. والظاهر أنهم اعتادوا

على مثل هذا . فبعضهم ضحك وبعضهم سكت . وبعضهم تقدم ليخلص .. وباللهشة ما أقسى النساء على النساء ! .. لأول مرة أرى جيرانى فى غرفات البنسيون .. عواجيز شوام ، وكهول أرمن ، وجريك ، ومصريين ، ونساء وبنات من مختلف الاعمار . دخلت وأغلقت الباب بالمفتاح .. استندت لاهنا بطريقة من مرق من لحظات تكهرب فيها الهواء .. أشحت بنظراتى عن منظر السرير .. بقايا نومة الفتاة مازالت ظاهرة على طباط المرتبة والمخدة . بل أنفاسها فائحة فى الحجره وأحسن أن أفتح الشباك للهواء النقى .. تقدمت فتمتعت فى فردة شيشب « منتوفلى » مبطن بالقטיפه الخضراء وعليه نقشه ورود حمراء .. صغيرة وكأنه لأقدام الاطفال . لا بد أنه للفتاة ، فقد لاحظتها تجرى حافية .. تخرجت أن أمسكه أو أحركه ، ولا بد أن هناك فردة أخرى فأين ؟ .. بحثت حتى وجدتھا مقذوفة تحت آخر السرير بلصق الحائط .. تركتها فى مكانها فماذا بوسعى أن أفعل !؟ .. أسمع خطوات ، وصوت مدام آدمة تكلم أحد الناس وطرقات على بابى .. أتقدم لأفتح وأنا أضم الجاكنه على صدرى .. يا إلهى فالهواء الكهربائى يعود .. مدام آدمة تدفع الفتاة فى غلظة وقسوة كى تلتقط شيشبھا ، والفتاة من عنف الدفعة تنطرح أرضا وتنظر فيما حولھا مذعورة ومحتجة .. أشير لھا نحو تحت السرير .. مدام آدمة مازالت تصخب وتشتم وتتوعد بينا ألوى رأسى بعيدا كى لاتقع عينائى على المنظر الزاحف التعيس للفتاة تحت السرير .. اتحاشى عورات العيب وقلة الرجولة .. ثم عندما جمعت الفردتين ولبستھا نفضت شعرھا المبعثر وقفزت نحو الباب ، ولكنها توقفت لحظة لترمينى بنظرة نارية - سرت بالقشعريرة فى كل كيانى !

.....

خرجت الفتاة ، وبقيت مدام آدمة ، بل جلست تحاول أن تقدم اعتذارا أو تفسيرا عما حدث من فعلة بنت أختھا .. أن أمھا وأخوتھا

المهاجرات من مدينتهن الاسكندرية خرجوا وأغلقوا باب حجرتهم بالمفتاح والبنيت كانت متعبة وتريد أن تنام فهي تسهر كل الليل ! .. مدام آدمة تتأوه وهي تلعن مصائب غارات هتذر على الاسكندرية تلك التي نزلت كلها على دماغها .. ثم رفعت وجهها نحوى - وكانت قد هدأت - فراعها ارتباكى وشكل وجهى الذى غطس تماما فى حمرة الحياء .. توقفت عن الكلام وسألتنى هل أنا مريض ؟ .. لا لا أبدا فقط أنا متعب ! .. وتلعثمت أمامها بما أريد أن أوضحه أو أقوله حتى تمكنت . ففهمت أخيرا أننى أنا الذى يريد أن يعتذر عن هذا الدخول المقتحم على آنسة نائمة فقد كان يجب أن أطرق الباب ! .. ظلت تحملق ذاهلة فى منظرى ، ثم تهدلت ملاحظها فجأة الى مس من تأثر وعطف وأمومة ! .. المرأة متدينة ومتحسسة وتفهم أنواع الناس ، وقد اكتشفت نوعى فورا .. تلك الأغلفة الريفية ومهما تدارت .. الاخلاقية والمتعففة شديدة الرهاقة والبراءة . بل لعلها بأوثقها الثاقبة قد أدركت أننى - رغم طولى المفرط ورغم الواحد والعشرين عاما التى قيدتها عن عمرى فى دفتر البنسيون ، فلست أعرف عن جنس المرأة إلا مايبين اضطرارا من وجهها أو ذراعها أو ساقها .. أعطتني نظرة أمومة محرومة شاردة .. إنها .. بلا أولاد .. ثم وقفت ووضعت ذراعها على كتفى فى رقة وحنو . وابتسمت وفركت شعري المشعث بيدها فكم تحب الناعم المجدد .. ثم استنكرت أن أعتذر . تعتذر لمن ؟ .. وعن ماذا ؟ فإنها هي هذه الحمقاء اللعينة التي يجب ان تكفر عن فعلتها وتبوس القدم !

شجعتني المرأة الطيبة ان أخرج من حيائى وأتبسط معها . ثم هللت فى مَرَح وابتهاج عندما رأت لفائف المشتريات الجديدة ، وراحت تفك أربطتها استعدادا لترتيبها وتعليقها .. ثم تحمست تمتدحها وتطرى ذوقى فى ألوان الكرافة . وأيضا البدلة الكحلية فكأنها لأمير .. ثم

اتجهت تفتح الدولاب وتحرك الشماعات ، وعندما اقتربت من قفص الجريد لترتبه أيضا . قفزت أقف أمامها شاكرا ومستعظفا أن تتركني أرتب بقية الحوائج بنفسى .. ضحكت فى طيبة . وعندما همت بالخروج وجدت نفسى أستوقفها ، وقد روعنى فجأة ماخطر على بالى من أنها قد تحضر الفتاة لتبوس القدم كما قالت .. كدت أتوسل إليها ألا تفعل ذلك ولكننى تراجعـت - وتمتعت بأى كلام - ثم ودعتها وأغلقت الباب .

.....

أغلقت الباب من خلفها .. نعم تراجعـت فجأة ، فما هذا التخاذل الذى أنا فيه ؟ .. حتى متى هذا الحياء من جنس النساء ؟ ، بل ما هذا الحياء من كل أهل تلك المدينة الصاخبة بينما طموحى الرائد فى أوراق هذا القفص يقول أو يدعى بأنه مجهز نفسه لوثة اقتحام الأسوار الغليظة لتلك المدينة وأناس تلك المدينة .

استرددت نفسى ، وبدأت أنزع هذا القديم عن بدنى . وفجأة - وقد خلعت فردة البنطلون - دق الباب .. يا إلهى .. ربما هى الفتاة جاءوا بها لتعتذر .. متى تنتهى تلك الكهربائية ؟ .. لا لن افتح .. ومع تصميم الطرق ارتفع صوت مدام آدمة ينادينى باسمى . استعدت فردة البنطلون سريعا ، وضمت الجاكـتة بعصبية مزقتها من عند الكوع . وفتحت الباب مواربا فلاداعى لعب الدخول .. مدام آدمة تحمل كوبا من الليمون وفيه ثلج وتقدمه لى فهو على حسابها . ثم تستحنى أن أسرع جريا الى الحمام - قبل أن يلحقه سوى - فقد أعدت لى الماء الساخن والليفة والصابونة والقوطة .. حمام ساخن ؟! .. لقد تصورتنى عندما استوقفتها اننى خجلت أن أطلب منها أن استحم ، فلا بد من ذلك قبل استعمال الجديد طبعاً ! .. ثم همست - كمن أصبحت حظوة بنوية خاصة عندها - بأننى سوف أجد زجاجة الكولونيا على طرف

البانيو .. كولونيا ؟ .. حمام ؟ .. ماء ساخن ؟ .. كم سوف ترهقنى
مدام أادمة هذه .. آه يا قاهرة بنسيون فيوليت كيف أجارى طباعك
وتقاليدك ؟ .

.....

أخذت حماما رائعا وجريئا .. وفى صراع شديد مع النفس اقنعت
نفسى ألا مانع من قطرات خفيفة من تلك الكولونيا - التى هى من
هوية النساء فقط .. عدت إلى غرفتى فى قفزات واسعة والقوطة تغطى
رأسى ووجهى .

أنعشنى الحمام وأبهجتنى الكولونيا وأحسست أننى بت قاهريا
مرفها .. وبوسعى الآن أن أجرب هذا الجديد .. ارتديت القميص
اللينو ، وربطت الكرافطة البراقة ، ثم دخلت فى البدلة الكحلى
الزاهية - صوف انجليزى - والحذاء اللميع .. وأمام مرآة الدولاب
الطويلة العريضة ، وقفت أتأمل ابن الفلاحين هاهو . وشكرا يا أبى
المرحوم على ما قدرت .. ابن الفلاح الجلف ها هو يتحدى فى الفرق
با أولاد الباشوات والبيكوات والبرنسات ؟ .. تمشيت أمام المرأة ..
استدردت وتباهيت - يا ولد ماهذا .. فهل أنت من حاضرة الريفيرا
أم من أرياف الجزيرة ؟ .. تبخترت بأناقى بعض الوقت أمام المرأة ..
ثم أخذت جلستى المرفهة على المقعد العريض المريح أفكر فيها سوف
أقرر وأدير .

النزول الآن إلى قلب البلد واللياقة هاهى موجودة بل مغرية ،
ولكن كيف ، ولماذا العجلة الآن وأنا متعب . كما أنه لم يعد فى جيبي ولا
ورقة من ذات العشرة قروش ؟ . التهمتنى الأنافة وقوضت جيبي لبقية
الشهر .. ليست مأساة فلا تهمنى الفلوس ، وأبدا لم تذلى الفلوس ..
تتأخر أو تتلكأ ولكنها عندى دائما وفى آخر لحظة تأتى وتطرق الباب .
نعم ورغم مشوار الفقر الماحق الرهيب لم تتلطم كرامتى أو تهان بسبب

قلة المال أو الفلوس .. ورقة العشرة قروش الكريمة تلك سوف تكفيني للعشاء سحبق بالفينو ، والافطار فول مدمس بالبيض . وركوب الترام الأبيض للعباسية ذهابا وإيابا . وغدا له الله .. وثوقى دائها ومهما جنحت عنه خالق الكون فهو معى دائها فلماذا أرهق نفسى الآن فى أمور ليست من مهتى ؟

.....

المهم الآن وبعد أن جريت واطمأنتت على هيتنى الجديدة . ان أجرب وأطمئن أيضا على حبيبتي مائدة الكتابة - الرخامية الشهية ناعمة الملمس - وشهوئى لها منذ رأيتها ولمستها - تتحرك وتتحرق وتنفور .. بسطت الورق والقلم على سطحها البراق المريح . وبأ إلهى كم أنا سعيد وممتن جدا لأنك اخترتنى كاتباً . ولكن كيف الطريق ؟ .. منذ الطفولة الذابلة والصبا القاحل فى حقول الغلاية والفلاحين والإشارة من ورائى أننى برعم نئى . سوف يتفتح ويعبق ، فماذا غير التأمل والكتابة .. لا أعرف أى شىء الا التأمل والكتابة .. ومنذ سنوات انفردت بنفسى وفى خفية أتعلم وأتدرب على غوص النفس فى أعماق المعرفة .. بل تطاول النفس إلى مجهول المعرفة .. نحن بشر . ورحلة مثيرة مثابرة . وتوقع دائها شيئا جديدا تكتشفه .. قرأت وقرأت وقرأت حتى تشبعت وأتخمت وأرهقت . وتعال أيها الفلاح العبيط وارفع عنك هذا الغبيط وكفاية شحن .. وخذ هذا هو حقك المباح وجرب أن تلقى بذورك .. جرب أن تكتب بمثل ماقرأت .. ودخلت معبد الكتابة .. تفرغت للتوسل لأى جديد فى الفكر والكتابة .. تجارب تقية نقية منهكة مخلص طويلة تأخذ الجلسة فى شرفة عصرها .. أكتب وأقارن بين مايقرا أو ينشر .. بل تماديت فى مثابرة التجارب إلى درجة تقمص توقيعات العمالقة فى خدعات بيضاء . فعندى مثلا فى قاع هذا القفص الدميم . مسرحية من ثلاثة فصول ينقصها الرابع ، قلدت فيها « العظيم المبهر وليم شكسبير » بأرضياته وشخصه .. وجلست فقرأتها

على عتاة من أصدقائي القارئين ، فصدقوا حقاً إنها من تأليف شكسبير .. وهكذا تمكنت أخيراً فملكتم شهادة الثقة بالنفس !
وظهر « عرفان » فراش البنسيون ليقول إن التليفون يطلبني ..
قمت مسرعاً فلا بد أنه صديقي الحميم « نجيب حلمي » فمن يعرف أنني في البنسيون إلا هو الذي اختاره لي .. أشار عرفان نحو آخر الردهة الطويلة وفي منطقة يغمرها الظلام . وزارار النور على يمينك والتليفون مفتوح على الكومودينو .. لم أجد زرار النور - وهذا أحسن - ولكنني وجدت التليفون بسهولة - ولم يكن هناك أحد - فجلست مسترخياً على مقعد وتناولت السماعة .. إنه كما توقعت صديقي نجيب يريد أن يطمئن على أحوالي .

صديقي نجيب يستدرجني فما رأيك في مدام آدمة وبنسيون مدام آدمة ؟ .. مكان نظيف ومريح ولا تقي وكما كنت ترغب أليس كذلك ؟
حكيت له عن طيبة المرأة الودود وحزمها البالغ .. ثم في همس يغمره التردد والحياء .

حكيت له عن واقعة البنت البضة الناصعة الشقراء التي فوجئت بها نائمة على سريري تصور !!

وضجت الضحكات من نجيب فقد استحلى الحكاية وصمم أن يعرفها من أولها إلى آخرها .. وتخرجت أن أحكي ، كيف أقدر أن أحكي مثل تلك الأشياء ؟ .. ولكنه ألح واستحث حتى حكيت له كل شيء .. حتى عن الشبشب القديم اللعين وكيف هوى غليظاً قاسياً على لحم الفتاة الغض .. حكيت وانطلقت وتهورت وضحكات نجيب الصاخبة تستدرجني بالاستزادة .. وفجأة ظهر « عرفان » وأدهشه أن أجلس في الظلام ، فأشعل الضوء .. ويا لها من مفاجأة أخرى صاعقة وضعت بعدها السماعة فوراً وبلا كلام - وأنا أحملي في المنظر الذي أمامي .. الفتاة ، فتاة الشبشب والسرير - كانت جالسة على مقعد

تتابع مكالمتى التليفونية ساخرة ومبتسمة .. ضبظت اغتباطها . تستمع
ساخرة ومبتسمة وهى مرتدية ثيابها ، وحقيبتها بجوارها ، وعطرها
فائح . ونظراتها مثبتة على منظرى المضطرب . يالللخجل ..
يا للللخجل .. لم أتمالك نفسى بصوت يسلمخ نفسه من الخلق .

قلت - أنت سمعت ؟

قالت - أنت حكيت .

وازدادات حالتى تدهورا عندما ظهرت مدام آدمة فجأة ورأتنا نكلم
بعضنا .. يا للهول فهل تقول لها ؟ .. وماذا بوسعها أن تقول لها ؟ ..
الفتاة جريئة ولعوب . ويمثل مارأيتها سليطة البكاء والصياح فها هى
أيضا أمامى الآن سليطة الابتسامة والسخرية والهزء .. ولكنها بمجرد أن
رأت مدام آدمة ألفت نحوى نظرة غامزة مستخفة ، ثم التفتت نحو
مدام آدمة تلوح لها وهى تفلت مسرعة نحو باب الخروج .

مدام آدمة ترانى لأول مرة فى هيئتى الجديدة .. هتفت تبدى
إعجابها ، ثم أخذت وردة حمراء من « الفازة » وصممت أن ترشقها لى
فى عروة الجلاكتة .. لا لا يامدام آدمة فأنا لا أستعمل هذه الأشياء ..
ولكنها صممت فأنا شاب ويجب أن أسعد الناس بمنظرى المزدان ..
تخرجت أن أكشفها فاستسلمت لها وأنا أتساءل ، أليس شيئا غنيفا أن
أجارى طباع هؤلاء الناس ؟ .

.....

مدام آدمة صممت مرة أخرى أن أتناول فنجان قهوة معها ..
وبدأت تسألنى عن عملى ووظيفتى ؟ .. ارتبكت ، فأنا لا أتصور ردا
على هذا السؤال إلا أننى مؤلف وكاتب .. أخجل منذ زمان أن أجيب
على أى سائل بغير أننى مؤلف وكاتب .. قلت لها بعد جهد أننى
« كاتب » - والحقيقة فانا صادق إن وظيفتى الجديدة هى كاتب حقا ،
ولكن فى قيودات المخازن !

تجبرأت وأنا أتناول أول رشفة من فنجان القهوة .. أجرب شجاعتى

فأسأله عن عمل ابنة اختها هذه ؟ .. قالت إن « مسيو مترى » صاحب المطبعة العصرية وجارنا في العمارة المقابلة توسط لها فاشتغلت « كاسيرة » في « سينما فيمينيا بشارع عماد الدين » بائعة تذاكر في الشباك . وبوسعها أن تدخلك مجاناً في أية مرة .

قالت هذا ثم أخذت تحكى وتتأوه عن مصائب حرب هتلر ونكبات حرب هتلر .. أختها وبناتها المهاجرات من الاسكندرية .. كل بنسيونات الفجالة والسكاكينى وغمرة مكدسة بالمهاجرين المساكين من الاسكندرية فرارا من غارات القنابل التى لاتنتقطع .. أرامل وأطفال ويتامى ياعينى فماذا يفعلون ؟ .. اخى المسكينة وقد صرعت القنابل ابنها الاكبر الذى كان يعول البنات وهدمت بيتهن ودمرت عفشهن . فأين الملجأ لهم غير بنسيون المنكوبة آدمة .

قلت : - ما اسمها ؟

قالت - من ؟ .. اخى

قلت - لا . اقصد .. اقصد ..

قالت - تقصد « مارى » ؟ . الشعنونة « مى » .. نحن نناديا

باسم الدلع « مى » .. فإن « مى زيادة » من عائلتنا ومن نسبنا .. المشهورة مى زيادة التى تكتب هل تعرفها ؟؟

« النحلة والرحيق » _____

القاهرة ٤١ و ٤٢ :

وتمضى الأيام فى بنسيون فيوليت .بالفجالة ..
صديقى « نجيب - ما أشد امتنانى له - أنقذ ضائقتى المالية ،
بصفقة كتاب مخطوط قديم وهام ، مطلوب نقله لحساب « قسيس
قبطى » يريد أن يقتنى نسخة منه قبل أن يعيده إلى مكتبة الدير . وضعه
أمامى ، ومعه رزمة من الورق الابيض المتين ، ثم ورقة جديدة لامعة
من ذات الخمسة جنيهات .. تلك الخمسة مقدما ، والخمسة الأخرى
تنتظرنى بعد أن انتهى منه - والشرط أن أنتهى منه خلال أسبوع فما
رأيك ؟

شكرته طبعاً ، فالخمسة جنيهات تلك إنقاذ وهدية .. لقد أديت له
مثل تلك المهمات السهلة من قبل - مهمات نقل الكتب القديمة -
وهو يعرف أنها تبهج نفسى بقدر ماتبهج جيبى .. أى شىء فيه ورق
وقلم وكتابة يضعنى فوراً على مقعد من الزهو والانتعاش .. الكتاب عن
« الأديرة القديمة » وخط كاتبه القديم نبش مداد غليظ كمن كتبه بظفر
الاصبع .. لا بأس .. يستهوينى التأمل والحملقة فى أى قديم من تراث
أو آثار حتى ولو كان بسيطاً أو ساذجاً .. هؤلاء المثابرون القدماء من
مختلف العصور وأيضاً هؤلاء المفكرون العظماء من مؤلفى الكتب ، أشعر

أن بيني وبينهم صلة رحم .. وأحس دائما أن يوسعى أن أستحضرهم في أى وقت لأصنع وإياهم احتفالا عائليا خاصا .. ومهما افتتنت بهم وشهقت مشاعري من وراء عصورهم فأنا لا أجرى بهرولا متحسرا من خلفهم بل أودعهم في تأثر وإشفاق بعد أن حم قضاء الله وانقطع خيط الحياة من بين أيديهم .. إنهم ساعة يريد يوصلون الرسائل من عصر إلى عصر .. انصرفت عصورهم وانصرفوا معها فتوقفت رسائلهم .. أما أنا فأعيش عمرى الذى لم يروه ولم يجربوه ، ولى رسائلى التى لم تتوقف بعد . وبإغرابة ما يحكى هذه الايام عن « مخازن هتلر السرية » ، وكيف يوشك أن يولد فيها فى أى لحظة « صاروخ » يمكن أن ينطلق مزجرا فيدمر قارة ، كما يمكن أيضا أن يرح أيضا منتزها فيطبع قبلة على أرض القمر ويعود .

حياتى فى بنسيون الفجالة مازالت منكشمة وواجفة .. ادخل وأخرج كالمستسل لا أختلط بأحد ولا أكلم أحدا .. ودخول « الحمام » محنة ، فدائما ترتطم عيناى بالنساء والبنات خارجات أو داخلات بقمصان النوم أو بأخف الرداء . فأرتد عائدا إلى حجرى فى قهر وحيرة .. و« مى » هذه أو « مارى » كما عرفت اسمها .. بت أنحاشاها بل أخافها بل أوشك ان أقول أكرها .. فقد وضع لى أنها عابثة ولعوب . لاتبالى حتى بخالتها أو أمها .. ولقد رأيتها عدة مرات من خلف شيش النافذة يوصلها عساكر انجليز وضباط انجليز .. وأحيانا أراها دون أن ترائى داخلة محملة بزجاجات بيرة وويسكى وعيش فينو وعلب شيكولاته ولفافات كثيرة وكله من « النافى » ١ علاقتى بها تبادل استخفاف أو عدم استلطاف .. لا أكلمها ولا تكلمنى .. فذات مرة وكنت واقفا عند ركن التليفون وهى خارجة متعجلة ، وعندما رأتنى توقفت فى جرأة سهلة واستدارت تعطينى ظهرها المكشوف - تطلب منى كمن تأمر أو تمنح أن أساعدها فى غلق

« سوستة البلوزة » ! غضبت .. استنكرت .. أحسست إنها لا تحترم رجولتى .. فأشحت عنها ولويت ظهرى مبتعدا بعد أن رشقتها بنظرة ضيق واحتقار ، ولم آبه بطنين من تمتتها المندهشة يصل إلى أذنى تسخر أو تحتج وتردد فيه كلمة فلاح وفلاحين ! . منذ ذاك الوقت أعطيتها منظر رجل لا يراها .. لا أكلها أو تكلمنى بل إنها باتت - عندما يتصادف وتراى - تقطع أى منظر للمرح أو الكلام كانت فيه ، وترمى بنظرات غريبة حادة حارقة فيها ما يشبه رغبة الصباح والبياء .

« مدام آدمة » صاحبة البنسيون سافرت إلى بقايا أهلها في - بر الشام - زيارة شهر أو شهرين !
أسلمت أمور ومسئولية البنسيون إلى أختها - مدام وديدة - التى هى أم « مارى » واسم الدلع « مى » وأخذت عليها العهود والمواثيق وأعطتها التوصيات والترتيبات وشددت على سمعة البنسيون ومختلف الشئون .

وعندما جاءت تودعنى ، ضمتنى إلى صدرها وقبلت كفتى ، وداعبتنى بعبارة غريبة - دوختنى كثيرا فيما بعد ! .. مالت على أذنى تجذبا وتقرصها تقول . معنى ماتقول .. خذ الحرص من الشعنونة المبهولة مارى وحاذر أن تقع فى حبها بمثل ما وقعت هى فى حبك .. إنها حفارة رجال - مثل جدتها الله يرحمها - وهى الآن فى لطشة التصميم على اكتشافك أيها المنجم الخبيء .

الحب ؟ .. الحب ؟

خفق قلبى بشدة .. بل أحسست أنه يعوى من شدة الحرمان .. لهفتى وتحرقى نعم نعم ؟ . ولكن مع مارى هذه لا ؟ .. لا .. لا وقت عندى لنوعها حتى ولو عشت ألف عام .. مستحيل طبعا ! .. هزار طبعا ! . فهل هذا معقول ؟ ولكن . ولكن .. ياعنف الأرق والقلق

الذى استلمنى منذ قولة تلك العبارة ، والعينان السليطتان الباكيتان
أحاول أن أطفئ لهيبها لأنام فأفشل !

.....

انطلقت الحريات فى أرجاء البنسيون بعد سفر مدام آدمة .. تحول
الهدوء الرصين إلى لعلعة ضحكات ، وضجة سهرات ، ووجوه جديدة
ذهابا وإيابا ، وتفايح وكونياك وصوائى كباب وموائد قمار . غضبت
واستنكرت هذا الانقلاب طبعاً . ولكن أنا لاشأن لى . وماذا يوسعى
أن أفعل ، فهل أغادر هذا البنسيون مثلاً ؟ .. كيف أترك الطيبة مدام
آدمة ؟ .. ثم إلى أين ؟!

وذات يوم قبل أن أخرج فى الصباح أبلغنى « عرفان » الفراش -
وهو يلوى وجهه عنى كى لا أرى ملاحه المنهزمة ، أن عيد ميلاد
الدموازيل « مى » له حفلة الليلة فى البنسيون .. رقص ومغنى وديوك
رومى .. وأثنى مدعو مثل كل النزلاء .

عيد ميلاد الدموازيل « مى » ؟! لا .. لا .. أنا . أنا لا أحضر
هذه الأشياء لا أعرف مثل تلك الاعياد .. ثم إن عندى عملاً سوف
أسهر عليه !

.....

عندى عمل سوف أسهر عليه .. « قصة » أكتبها الآن وتلاً
حواسى .. جديدة ولاتقة للنشر فى صحف هذه الأيام ، ياليت .
أنا أقرأ كل الصحف والمجلات - وهى كم هائل - من عند
« المعلم فضل الله » ومائدته الشهية مفروشة بجوار « كازينو
اليسفور » بالقرب من البنسيون .. أعطيه قرشاً كل يوم فيتركنى أقرأ
وأتصفح ماأريد . بل بعضها يبيت معى ثم أعيده فى اليوم التالى .

« الصحافة » .. صاحبة الجلالة الصحافة المصرية .. « عربى
وأفرنجى » وأصحابها كلهم إما « شوام » أو « يهود » .. « الاهرام »

أولاد تولا « .. الهلال « أولاد زيدان » . المقطم والمقتطف واللطائف
« أولاد غر وصروف واسكاروس » « روزا اليوسف » « جلال » ،
و « كريم » وثابت ، وانكونا ، وخورى ، وشميل وشقير ، وبركات ،
ونحمين ، وسركيس ، مطران ، وميخائيل . الخ الخ .

أما البقايا من ورق خفيف وحجم هين فهو مسحوب بحبل
الأحزاب .. يظهر ويختفى وراء ظهور واختفاء حكومات الأحزاب ..
ولكن « التابعى » بآخر ساعة مقتحم وموجود وتبزغ له مدرسة جديدة
تلهب الخيال .. و « أبو الفتح » الوحيد ، ودهشة أن ينجح هذا
« المصرى » بين العتاة .. ثم تبدأ وتلمع من ثنايا السور الشامى
اليهودى الجاثم ، ثقب أخرى ترسل الضوء أو البصيص من وجوه
مصرية صميمة تبدو تفرك يدها ١ .

« مصطفى أمين وعلى أمين » - أو « مقالات مصمص والسندباد »
وبدء العذوبة والانعاش الصحفى .. بدء تحرر الفكر والهدف والأسلوب
من غلظة قلب ودم وضمير صحافة الشوام واليهود .. « فكرى
أباظة » - ورغم أنه بالايجار لحساب أولاد زيدان - فباسمه ينادى
على المبيعات فقد بات معبود الجماهير .. « جلال الحمامصى » وتحفز
الانافة الصحفية .. « كامل الشناوى » والريق المصرى يجرى
ويحلو .. وشقيقة « مأمون » و « سعيد عبده » و « رخا » و « بيرم »
و « محمد غريب » و « حافظ محمود » و « قاسم جودة » و « أحمد
حسين » و « محمد صبيح » و « فتحى رضوان » وراية « ومصر
الفتاة » .. وما أشد اغراء الوطنيات .. « سلامة موسى » والفانوس
السحرى مع « المجلة الجديدة » .. « زكى عبدالقادر » و « الفصول »
واستضافة المواهب .. « أحمد أمين » و « الزيات » و « أمين الحولى »
و « بنت الشاطى » يحركون الشهية للقراءة الأدبية .. « محمود
كامل » وموكبه العصرى فى قصص وروايات يوزع عطريات مثيرة فى

القصة والرواية .. « توفيق الحكيم » طبعاً « وأحمد الصاوى » طبعاً طبعاً ! .. تقوب جديدة تطل بأضواء المدينة وتلهب مشاعرى .. تخلب لى .. تؤجج طموحى العارم والمحروم - وبإلهى كيف النفاذ من هذا السور الغليظ الصارم . والصحافة مازالت طبقية ومحسوبة .. مازالت فخارة وأرستقراطية .. مازالت أبهاء بلاطها تسد أنفها عن رائحة أولاد الفلاحين !

.....

أمس وبواسطة أحد المعارف الهامين لصديقى « نجيب » .. ذهبت إلى مبنى جريدة « المقطم بباب اللوق » ، وكان الميعاد قد تحدد لى أن أقابل العظيم الصحفى المتبحر المهول « كريم ثابت » - لعل كتابتى تعجبه فيلحقنى ولو فى سلامك القصر من بلاط تلك المشتهاة صاحبة الجلالة الصحافة .. لآمانع من حتى هذا « المقطم » رغم أنه كاسد وكريه .. وكنت قد أخذت له نماذج من جميع أنواع الكتابات .. قصص قصيرة ، وفصول نقد لكتب قديمة وجديدة ، وأفكار عن باب صحفى جديد يرصد الأخطاء والغفوات « عنوانه » ، « لو » ..

قابلنى كريم ثابت وهو منتفش ويبرق ، فى مقعد مطهم مستدير وطويل المسند يلف به فى خيلاء الديك ، ومن حوله تليفونات وأزرار ، وأوراق ، وكتب ، وصور ، وأقلام ذهب ، والكرافنة حمراء فاقعة وعليها ماسة ، وأنفه المعقوف كأنه صقر يطل على ضفدع .. شكلى الريفى ومهما رتبت فيه هو تربة سمراء واضحة وصريحة .. لم يطلب منى الجلوس .. مضفت كبرياتى .. تحملت .. مددت له يدى بأجزاء الأوراق وقد رتبها بإغراء العناوين وأوائل السطور بحيث إذا راقى تكون جاهزة لتأشيرة النشر فوراً !

تناولها منى ، ثم قلبها بأصابعه المصقولة فى سأم متعجل .. لم يستوقفه شيء .. لم يتأن ليستوقفه شيء .. وعلى ملاحظه بدأت تسرى

ابتسامه ساخرة لاثحاول أن تخفى امتعاضها .. ثم أعاد لى الأوراق وقام واقفا وأخرج مندبله الحربرى من جيبه يفرك به أصابعه كمن يسح عنها التلوث .. تحرك فى تودد متغطرس وهو يأخذلى نحو الباب .. وقف برهة يكلمنى ويعطينى نتيجة المقابلة .. أعطانى الزجر أو النصيحة بأن كلمة « بقلم فلان - الذى هو أنا - والذى كتبها تحت العنوان يا شاطر - تحتاج لعشرين سنة حمل أحجار وحفر صخور حتى تنالها - هذا إذا كنت المازنى الصغير أو « سلامة موسى الصغير »! المازنى وسلامة موسى يا شاطر يا من تريد أن تكتب اسمك فى الصدر مثلهم ، حفروا بأقلامهم عشرين سنة حتى أفسح لهم النشر وباتت أسماؤهم تتصدر العناوين .

ارتبكت .. خجلت أن أقول له سيدى لم تقرأ ما بعد العنوان والاسم ! .. وربما رأى عنف الصدمة على وجهى ، أو ربما أراد أن يراضى من توسط لى ، فقال : قد تنفع « مصححا » فهل تجيد النحو ؟ فقلت بسرعة وبصوت عال - وكان الدم قد تأجج فى رأسى - لا لست أجيده أو أريده ! .. دهش من علو صوتى ولكنه تجاهل وهو يفتح الباب لأنصرف ثم عاد يعطى آخر فرصة .. تشتغل فى الاعلانات ؟ اعلانات ؟! .. لم أرد .. لم أبادله حتى النظر أو التحية .. اندفعت خارجا يرهقنى الذل والندم .

بعد هذا المنظر .. بعد هذا الذى حدث ، قررت وأقسمت ألا أدخل الكتابة والصحافة من باب الوساطة أو المحسوية أبدا .. أبدا أبدا .. نقاء تلك المهنة ألا يكون فيها وساطة أو محسوية . نجاح تلك المهنة ألا يكون فيها وساطة أو محسوية .. كيف يكون فيها وساطة أو محسوية ؟ .. وحكاية عشرين سنة حتى يتيسر أن يعترف بك كلام فارغ فهل هى مسيرة ليما ن ؟ .. من وضع ومن شرع وبأى حق ومن هو يكون هذا الذى أعطى هذا القرار الصارم بأن على المواهب الغضة

أن تحبس حتى تذبل أو تموت في زنازين تلك السنين الطويلة .. ثم
عشرون سنة كيف تبدأ مثلا .. لا أبدا لم أقع في ذلة هذا الاستسلام ..
السور غليظ نعم ولكن يجب أن أجد الطريقة لاقتحامه .. حتى لو
خدعت حراسه .

.....

عندما عدت من عملي في وقت الظهر - فوجئت بشكل البنسيون
وقد تغير .. مقاعد كثيرة ، وديكورات غريبة . وكرانش حمراء
وخضراء وصفراء في السقف والحيطان ، وموائد كثيرة لامعة ومظلمة
وعليها أطباق وأكواب وزجاجات وفازات ورد .. آلات موسيقية كبيرة
وصغيرة .. ميكروفونات يجربونها على « الدسك » الذي أحضره
« السيرجنت برجر » .. لفائف هدايا .. وباقات ورد وبوكيات
زهور ، ملفوفة بأشرطة حمراء وزرقاء وعليها كروت .. سهرة عيد
ميلاد المدموازيل « مي » ، ويا إلهي من يصرف على كل هذا ؟
هل هو فقط ديك الدجاج العجوز الغلبان ملتوى اللسان « الخواجة
متري » ؟ دخلت حجرتي ونيتي أن أغلق بابها على نفسي .. اكتشفت
أنهم أخذوا كل المقاعد وحتى الكنبه والسجادة .
فكرت أن أغضب أو أحتج ولكني هدأت وتراجعت .. ماذا يهم ..
ليلة تمر ..

.....

استلقيت على السرير بعد أن قربت حبيبي المائدة الرخامية ،
فبوسعي الاستغناء عن المقعد .. شردت واستملمت أن أشاغب سحيق
أفكارى .. عيد ميلاد المدموازيل مي هذه ؟
فإذا فكرت أن أحضره مثلا مثلا ، فيجب طبعاً أن يكون في يدي
هدية لها .. هدية .. ها .. ليس في جيبى إلا نصف جنيه باهت وبضعة
قروش كالمجة فهل أشتري لها مصاصة مثلا ؟ ضحكت لجرأة الخيال

دخلو الببال وأتقى واقه لو أتمكن فأصلها يوما مع هذه الطفلة الوحشية .
لى أيام وأنا منهمك فى كتابة تلك القصة التى عنوانها الهامشى
« يوميات مهاجرة » وعنوانها الرئيسى « قلبى فى يدى » .. تلك
القصة والبطلة فيها ومها أشحت هى هذه المدموازيل مى . الذئبة
الفضة الملونة الغريبة فى غابة الرجال .. حفارة الرجال بأظافرها
المانيكير وأصابعها البسكويت .. الوليمة الطازجة الحريفة فى سوق
اللاعقن وأكلة اللحوم .. المهاجرة الحائرة بأنوثتها المتفجرة الصريحة
وحريتها الفاحشة الصريحة أيضا .. قصة تختلس نفسها: من تقاليد
كتابات هذه الأيام .. أبدا لا أحلم أن تشر بسهولة . فمن يتجرأ أن
ينشرها ؟ إنها عارية الصراحة أيضا بمثل صراحة العرى . من عصر
صاحبتها .

سهرة عيد ميلاد المدموازيل مى بدأت منذ أول الليل ومستحيل
الكتابة أو القراءة فالحجرة تهتز من عنف الطبل وزججرة موسيقى
الجاز .. زمامير ، صفاقير ، ورقص الكاريوكا وكارمن ميراندا ، وأوه
جونى أوه .. ضجيج الساهرين وضحكات ، ولعلمات ، وزعقات ،
وشهقات ، وأغنيات الميكرفون بالفرنسى والانجليزى فقط .. عدة
مرات أحاول أكتب أو أقرأ فأفشل . أطفأت النور .. أبعدت
الأفكار .. استرخيت أحمق فى الظلام طويلا طويلا . حتى رويدا
رويدا ، غفوت وغصت فى النوم !

.....

استيقظت فجأة على مايشبه طرق الباب .. أشعلت النور ونظرت
« إلى ساعة المنبه » وكانت الثالثة صباحا .. فركت عيني ، فمن هذا
الذى يطرق فى تلك الساعة ؟ .. ربما توهمت فإن الطرق قد سكت ..
عدت أتصنت فالبنسيون هاجع تماما فلا بد أن الساهرين قد انصرفوا .
وقبل أن أعود وأطفىء النور عاد الطرق واضحا هذه المرة .. قفزت

من السرير . وكنت من شدة الحر بلباسي الداخلية جدا .. فتحت الباب .. ويا هول ما رأيت فقد عدت وبسرعة . أغلقه .. ولكن قدم الطارق كانت محشورة وتحدى الفلق .

.. إنها المموازيل « مى » واقفة مترنحة تتساند على ضلفة الباب .. متطوحة وواضح أنها سكرانة .. فى يدها اليمنى طبق كبير . يهتز وفيه لحم ديك رومى ومحشى وبوفتيك . ويدها اليسرى ترفع زجاجة خمر نصفها ممتلئ ! .. ماهذا ؟ .. ماهذا ؟ .. نصيبى من سهرة عيد الميلاد الذى لم أحضره ؟ .. نظرت إليها جاحظ العينين وقد شلت أطرافى .. أحاول أن أتوارى بمنظرى الردىء المخجل .. عينها تتوسلان أن تدخل .. تدخل ؟ كيف تدخل ولماذا تدخل ؟ مستحيل أن تدخل ! ولكنها بدت مصرة مصمة ، وقد روعنى أن تحدث أى فضيحة توقظ أهل البنسيون .. واشتد ذعري عندما رأيت الزجاجة التى تتطوح فى يدها توشك إن تقع . والطبق أيضا . وسوف يكون لتهشيمهما على البلاط صوت المدافع وصفارات الانذار .. اضطرت وبعد صعوبة أن أتناول منها الطبق والزجاجة وأضعهما على الأرض داخل الغرفة . ثم استدرت نحوها غاضبا ومستشيطا فماذا تريد الآن بعد كل هذا ؟ .. وقبل أن أقول أى شيء ، أو تقول هى أى شيء ، تطوحت تدور حول نفسها عدة مرات قبل أن تتداعى مكومة على بلاط الأرض داخل حجرتى مغميا عليها !

يا إلهى تلك الكارثة .. فماذا أفعل ؟ .. طرحت نفسى بجوارها أفحصها مرتاعا فهل أصابتها نوبة دوار أو تكون يافزعى قد مات ؟ .. فوجدتها مفتوحة العينين تضحك وتتولى وتطوح بذراعيها وتتمتم فى همس خافت ومتقطع ومطوط . بأنها مجرد دائخة .. كثرة الشراب أثقلت دماغها ولسوف تنهض فورا .

حاولت أن تنهض ولكنها لم تتمكن ، فعاتت تستسلم لانطراحة الأرض وعيناها ترفرفان ضاحكتين مناديتين على منظرى المرتبك

المدعور .. وعندما لاحظت أننى همت بالخروج لمناداة « عرفان » أو
أى عون للاسعاف ، أشارت لى فى توسل واستعطاف ، بل همت بتبوس
القدم - يامغيث - ترجونى ألا أفعل .. سوف تتمكن فتفتيق سريعا
إذا ما استراحت هنا . بعض الوقت .. تستريح ؟ .. هنا على
البلاط ؟ .. أخذنى الاضطراب فيما يمكن أن أفعل فيجب أن تقوم من
نومتها تلك أولا .. مددت ذراعى أساعدها ، ثم ذراعى الأخرى بعد
أن استمصى عليها النهوض بنفسها . حتى تمكنت أخيرا فعدلتها
واقفة .. ولكنها تهدلت وتهاوت وانطرحت على صدرى بل أوشكت أن
تنزلق واقعة مرة أخرى .. وهكذا بعد أن أرهقت جدا حسمت الموقف
بأن رفعتها وحملتها بكلتا ذراعى .. وقفت حائرا بها فأين أضعها ؟ ..
ذراعاها مضمومتان حول عنق كإنها كلابتان .. صدرها منفرس فى
ضلوعى ، وأنفاسها تلهب وجهى ، وتلويها وتثنيها بيد بأقدامى ..
تحركت بها وطرحتها على السرير .. لامفر فلا يوجد إلا السرير ..
أسرعت أغطيها بالملاءة وأنا ألوى وجهى .. ثم أطفأت النور
وتراجعت وأنا مكهرب تماما لألتصق بالباب ! . أخور لاهتا بجوار
الباب ! .. أخلق ساكنا فى الظلام ، طويلا .. طويلا .. ولست
أدرى - وبعد أن فكرت برهة ما - كيف قمت وأغلقت الباب ..
أغلقتة بالمفتاح !

« الخطيئة »

القاهرة - ١٩٤٢ :

عادت « مدام آدمة » صاحبة البنسيون - وبعد أن غابت في
بر الشام سبعة أشهر كاملة - لتجد أمورا كثيرة قد تغيرت وتبدلت في
شئون « بنسيون فيوليت » !

« عرفان » السفرجى المخلص الأمين - وكانت « الست ودبعة »
شقيقة مدام آدمة قد طردته من خدمة البنسيون - عرف ميعاد عودتها
بالسفينة فذهب ليكون أول من يستقبلها على رصيف ميناء السويس ..
رافقها في المشوار الطويل ، من رصيف الميناء إلى رصيف المحطة . وفي
القطار من محطة السويس إلى محطة باب الحديد ، ومن محطة باب
الحديد إلى باب البنسيون - وطنينه في أذنها عن هول ماجرى في
غيبتها ! .. يعطيها التقرير الشامل والكامل والمسهب والصريح -
فماذا عاد يخاف أن يخفى وقد انقطع أكل عيشه بعد شهرين فقط من
سفرها .. روى لها المباديل ، والمهازل والمخازي ، وست ودبعة ، وست
بدبعة ، والمدموازيلات ماري ، ومرجريت ، وروز .. البنسيون النظيف
الغفيف الشريف وكيف فاجت سريعا رائحة سمعته الجديدة .. الزهائن
الذين هاجروا والذين استجدوا .. وكل ليلة ، قمار ، وسهر ، وسكر ،
وفجر ، ومنكر ، ياسيدتي الطيبة مدام آدمة .. قال لها كل شيء ..

أفرغ كل ماعنده .. وعند باب البنسيون وضع الحقائق واستأذن أن
ينصرف بعض الوقت - لتدخل مدام آدمة وكلها رعشة وجنون !

.....

لم أكن موجودا لأشاهد ماحدث .. فوجئت بالأنباء الخطيرة
وباغتني الخبر - الذى همسوا به فى أذنى أول مادخلت - وهو أن مدام
آدمة طردت أختها وبنات أختها بعد ضجة وفضيحة وخناقة ضارية
طويلة - حضر من أجلها العسكرى - بعد أن رمت عفش وديعة
وبناتها فى الشارع وتناثر وتهشم وضاع بعضه .. باغتني النبأ وانكمش لى
دمى .. طردن فإلى أين ؟!

وعندما ذهبت أحبى مدام آدمة واستفهم .. صدمتني باستقبالها ..
قابلتني بنظرات تفرس الابر فى وجهى .. ارتبكت وملت يدى أحبيها
فى تساؤل ودهشة ، فمدت يدها فى لمسة خاطفة ثم أشاحت تجز على
أسنانها وتتمتم فى صوت يخنقه الارهاق والبكاء !! بأن كل الناس
أصبحوا أبا ليس فلم تعد هناك ثقة أو أمانة فى قريب أو غريب ! .
ترددت فيها أرد به فماذا تقصد ، ثم جلست بجوارها فى بلاهة حائرة -
فواضح أن عرفان قال لها عنى أيضا أشياء وأشياء .. مرت فترة صمت
متوتر ، ثم استدارت تخلق فى وجهى كمن لاتصدق ، وقالت .. حق
أنت وكنت أظنك ابنا أو ملاكا ؟

لكت ريقى الناشف فى حلقي وأنا أزدرد كلماتها .. حاولت اظهار
الاحتجاج فما ذنبى .. أختها وبنات أختها فما شأنى ؟ .. ولكنى سريعا
ماتراجعت منكشا فى ذلة وهبوط - فما جدوى أن أكذب والاعتراف
فى منظرى واضح وصريح .

مؤكد عفران حكى لها الكثير والكثير عن كل شيء .. فهل لحق
فحكى لها كل شيء عنى ؟ .. عن المدموازيل مارى فى غرفى كل
الوقت ؟ .. زجاجات البيرة والسهر حتى الفجر ؟ .. دروس الرقص

والكونكان واليوكر ؟ .. خناقة « الخواجة مترى » وتقطيع الفانلة
والقميص ؟ .. يا إلهي فهل حكى لها حقا كل شيء ؟ .. كنت متعبا
وخائرا وذهنى شارد وبعيد إلى أشياء أخرى فلم أجد كلاما أقوله ..
و .. تهقرت متسللا إلى حجرى !

ألوذ بحجرى وأغلق الباب .. ألتصق بالحائط وقبضة يدي ترتعد
وتضرب الجدار .. نظرات مدام آدمة - تلك الكارهة والمفجوعة -
فماذا تدل إلا أننى قد سقطت من عينها .. حنقت على عرفان فلا بد
وأنة قد بالغ فى بعض الذى حكاه .. ولكن يابؤس نفسى ففيمما يكون
قد بالغ . وتلك هى الحقيقة تطل من منظرى التمس الهلوع المبعثر وأنا
واقف أنظر إلى نفسى فى المرأة .. منظرى البائر الكاسد المهزوم .. هذا
السقوط الجارف والمباغت فى برائن أول خطيئة .. أول مذاق وأول
رشقة من أنوثة المرأة .. أول ثقب فى معبد الحرمان الذى عشت أتحصن
وأتهجد فيه .. اتسع الثقب سريعا يادهشنى ويأويله - فمارى هذه
أصبحت لى ادمانا رهيبا .. نعم هذا هو الوصف الحقيقى . ادمانا
رهيبا !

لا . لست أعاتب نفسى الآن .. لست أحاكم نفسى الآن .. أنا
غريق لم يطلب النجدة بعد .. أنا مشنوق لم يطلب الرأفة بعد .. نشوقى
ومتعق سارية وغارمة فى عذب هذا السم وأبدا لا أطلب النجاة .. حتى
لو كانت الأمور انتحارا وتلاشيا .. فما ذنبى فهل خلقت نفسى ؟ .. ثم
أنا الموجود لست أنا الحقيقى ؟ .. لست صبى القرية النقى الطاهر .
ولا غلام المدرسة الواجب الحجول . ولا حامل تعويذة الحجاب
الريفى تحت الابط وقد جئت لأعلقه حنانا على صدور أهل هذه
المدينة .. لا .. أنا لست أنا فمن أنا ؟ ..

أنا حرمان العصر كله .. الحرمان بكل ضراوة الانواع ومكس
الرواسب .. « حرمان الفقر » وهذا أنا أحاول أن أفضه . حرمان

القهر . وهذا أنا أحاول أن أقنم الساحة بقلبي لاجابه .. وبقي
« حرمان الجنس » - هذا العاقب - وقد تفتحت مصاريحه عندي
فجأة .. ولا مراجع عندي له فهو في قريتي وغريزتي دواليب ضاعت
مفاتيحها منذ الأزل !

أتحرك حائرا عصيبا في غرفتي . فماذا يهمني الآن من راكد
المخلوقات إذ أسقط في عين مدام أدمه هذه أو سواها ؟ .. أزمى الهامة
الآن بل كل ما يهمني الآن أن أعرف أين ماري ؟ .. إلى أين انتقلت
هي وأمي وأخوتها ؟ .. لابد أن أعرف أين هي الآن ، ولأهم أن أراهن
نورا .. فقط كي أستقر وأستريح وتهدأ مني الأعصاب !

.....

خرجت أبحث فأين أبحث ؟ سألت البواب . وسألت البقال ،
وحمت حول مطبعة الخواجة متری ، بل فكرت في قسم الاربكية
القريب فلا بد أن هناك محضرا وعنوانا قد كتب .. تعبت تنقيا في
شوارع الفجالة والظاهر والسكاكيني .. اطل على يفت البنسونات .
واتقصى عن الذين يؤجرون الغرفات المفروشة في البيوت ، وأحملت في
النوافذ فلعلني أرى الشعر الاشقر والوجه الابيض يطل من أى
شباك .. وحتى سينا فيميننا . حيث تبدأ وردية الليل في شباك بيع
التذاكر ، وقفت أنتظرها خافق الفؤاد ولكنها لم تظهر ولم تحضر .
عدت فاشلا أحقق مع البواب وصبيان البواب ، فكيف لم ترك أى
رسالة أو أى كلام ؟ .. كيف وفي الأشهر الأخيرة أصبحت محمولة في .
محبولة ، بل ملتانة وضد الجميع من اندفاعه تعلقها بي ؟ .. ولقد كان
يدوخني ويميد بي حتى قبل تلك الأسابيع عنف استقبلها وتقطع أنفاسها
إذا تأخرت عن أى وقت أو ميعاد .. وغيرتها المرعبة إذا رأنتي أسلم أو
أحدث مع أى فتاة أو امرأة سواها .. ويادهشتي عندما أوشكت ذات
مرة أن تفترس « مسيو متری » وكيف مزقت فائلته وقميصه وعضت

ذراعه ويصقت على وجهه ، فقد حاول أن يسخر من تعلقها الحائث
الاهل بهذا الفلاح الجلف. المفلس .. شهقاتها وفزعاتها إذا ما رأتني
أتمرد أو أجاقي ! ... ليونتها المستسلمة أحيانا وعصبيتها المندلعة
أحيانا ! .. دموعها المتوسلة البراقة وضحكاتها الرنانة كأجراس في
الجنة .. يحرها العرمم الفياض المادر والغامض. وبإلهي فقد انزلت
تماما فيه .. انزلت سهلا وسريعا وبفتة وأنا لا أعرف العوم فيه ..
أصارع الانزلاق بمزيد من الانزلاق في لهفة أن اكتشف .. في فضول أن
اكتشف ، كيف يمكن لفناة باهرة بارعة العوم في بحر تلك المدينة . أن
تحب خائبا كاسدا مثل لم يمارس العوم إلا في توعة الفلاحين !؟

.....

عدت بعد أن هدنى التعب إلى حجرى في البنسيون وكان الوقت
بعد منتصف الليل .. لمحت على المائدة الرخامية لفافة ملونة .. علبة
بقلاوة شامية ، وكيس من الفستق الحلبي . هدايا سفر ير الشام من
مدام أدمة .. المرأة الطيبة الودود .. خجلت . تأثرت . نكست رأسى
في شرود معذب طويل .. أطفئ النور .. أطرح جسدى الحائر المكدود

على السرير ولتبدأ معى مخاطب الأرق في الظلام !
عدة أيام وأنا أبحث عن « مارى » في لهفة حارقة تتصاعد لحظة بعد
لحظة .. رعبى وفزعى أن تكون قد هاجرت وتركت القاهرة نهائيا ..
عذابى وتمزقى كيف لم تهتم أن اتصل بى ، أو تترك أى رسالة أو معلومة ،
فهل كانت عواطفها الجارفة - تلك التى حطمت أسوارى وقلاعى
بمجرد عبث وهو وخداع ؟ .. مجرد تنوع التدنق لطبق المش الريفى
وطعمه الملهب الحريف !؟

لم أعد أهتم أن أكتب أو أشتغل أو أبحث عن أى مستقبل وأى
طموح .. لا طاقة لى لفعل أى شىء حتى تظهر مارى ، وبعدها يمكن
أن أستريح ! .. وذات يوم لمحت الحواجة مترى يمشى في شارع

القيامة في اتجاه المطبعة التي يملكها .. ولست ادري كيف أحسست من
ظهور قدميه أن خطواته إلى مارى وأختها .. إنه مدمن لهذه الفتاة أيضاً ،
ولكنه ايمان البائس القنوع ... يلحق الأوهام ومهما يهبط الثمن ..
مشيت من ورائه دون أن يراى .. تلصصت خطواتى من خلفه ..
يضمرنى الحجل من منظرى المتجسس فماذا أفعل ؟ .. وفى آخر الشارع
توقف عند « محل جزار » ، وخرج بعد وقت طويل ومن ورائه صبي
يحمل لفائف كثيرة من ورق اللحم .. ثم استدار معه فى شارع « حبيب
شلبى » .. وتوقف مرة أخرى أمام « دكان فكهاني » .. واختار
واختار ، واشترى واشترى ، وأخرج من جيبه جنيهات كثيرة ، وعاد
يمشى والصبي يحمل من ورائه .. ثم عبر الشارع واستدار نحو حارة
صغيرة مغلقة .. وعند ثاى منزل رأيت يرق من الباب .. ورفعت رأسى
نحو الطوابق ، ثم تداريت سريعاً وفى قلبى غبطة هائلة ، فقد رأيت
وجه « الست وديعة » يطل من نافذة الدور الثانى !

أغمضت عيني وأخذت أنفاسى فى شهيق طويل .. أخيراً وجدت
مارى ويوسى الآن أن أسند ظهري وأستريح !

بقيت واقفا وعيني على نافذة الشقة والباب .. لن يقضى كل النهار
طبعاً فمنده عمل المطبعة .. ومضت ساعة وأكثر حتى لمحتة أخيراً
يخرج .. تابعته بنظراتى حتى ابتعد واختفى .. أخذت أنفاسى ورحت
أصعد السلم قفزاً ، ثم توقفت لاهثاً أمام باب الشقة ، أحاول أن
أرتب من شكلى وأفكارى ، ومن خلف الباب أسمع صوت الأغاني فى
الراديو .. نداءات ، وزعقات ، وضحكات .. فهل هى مارى التى
تضحك ؟ .. كيف تقدر أن تضحك وأنا عنها بعيد ؟ .. خفق قلبى ،
وتشجعت وضغطت على الجرس .. خطوات تنهذى .. فرقة شيشب
الست وديعة .. ويجرد أن فتحت الباب ورأتى اكتهر وجهها وهمت أن
تغلقه .. بدا لى واضحاً أن ظهورى مفاجأة غير سارة .. ولكنها

تراجعت وفتحته لا لأدخل بل لتخرج هي لي وتلويح الباب من خلفها .. وفي صوت خافت كاره طلرد - تحاول ألا يسمح أحد - سألتني ماذا أريد منهن الآن ؟ - غصت في الحجل والارتباك ، ولكن بقيت واقفا وأنا أنهت بما يعني أنني جئت لأقابل اللسموازيل « ماري » ؟ - - حققت نظراتها وشفتي من ذراعي تدفني نحو السلام ، فماري ليست موجودة الآن . ولن تكون موجودة في أي وقت . استفزني كلامها وحركتها فزجرت ملاحي في غضبة أخافتها . - فقد خيل لها أنني سوف أزجها وأقتحم الباب .. وتبدلت سريعاً ورسمت على وجهها ملامح أم حائرة ومرفقة تتوسل لشهامة رجل أن يترك بنات الناس في حالها .. ترجوني وتستعطفني أن أنصرف فملذا أريد من ابنتها الآن .. ماري لا بد لها أن تتزوج ، فهي أكبر منك بستين وأنت لاتقدر ولا تريد أن تتزوجها ، فماذا تريد منها الآن ؟ .. واعلم أن هذه الشقة قد استأجرها « سبيو متری » فهو عائلتنا الوحيد وساترنا الوحيد الآن ، وشرطه الأول ألا يرى وجهك مع ماري في أي وقت وإلا أنصرف عنا بلا عودة !

اسمع كلامها المفترس المروع بلا تأثير ، بلا أدنى تأثير .. مشاعري لاتأبه فهي مشدودة إلى الموجودة خلف الباب .. وفجأة فتح الباب ، وأطل وجه الصغيرة « روز » وبجرد أن رأته واقفاً أمام أمها شهقت وأوشكت أن يعلو صوتها يعلن حضوري .. ولكن أمها قفزت سريعاً لتلحق وتضع يدها على فمها قبل أن تنطق ، ودفعتها إلى الداخل وأغلقت الباب ، وسمعت صوت غلق الترياس أيضاً .. تلجمت برهة .. تصنت برهة .. اسمع ضجة ومناقشة وزعيقاً .. خجلت من وقفتي المتصنعة المعيبة .. نكست رأسي أتراجع ذليلاً - أنزل السلام .. ومع كل سلم أنزله أشعر بأن صفحة ملوثة تنزل على وجهي ! نزلت ، تركت الحارة .. مشيت .. النهار اصفر وشاحب .. كل

شيء من حولي أصفر وشاحب .. أترنح بخطواتي ثم أتوقف .. أتقدم بخطواتي ثم أراجع .. هل حقاً يجب أن أنصرف ؟ .. وإلى أين أقدر أن أنصرف وهذا هو واقعي البشع السخيف - ما أشد قسوتي في وصف نفسي - يمثل الجرو المربوط بالحبل إلى نافذة حارة « حبيب شلبي » فهل كنت يوماً أتصور أن أقع في هذا الهوان .. يا إلهي .. كيف أسترد حريقي من تلك الذلة وهذا الهوان ؟

وفجأة وأنا ماشى أتخبط - أحسست من خلف ظهري بيد تلمسني .. إنها « روز » لاهثة الأنفاس ، فقد تمكنت ولحقتني .. همس وهي تتوارى بي خلف أحد الأركان ، فلدنيا رسالة من ماري .. إنها ترجوك وتستحلفك ألا تحضر إلى هذه الشقة مرة أخرى .. وقبل أن تأخذني الصدمة فاجأتني بأن الرسالة لها بقية .. عليك أن تقطع تذكرتين في « سينما متروبول » لحفلة الساعة الثالثة ، ظهراً وترك واحدة باسمها في الشباك ، وانتظرها فسوف تحضر !

الرائعة روز تهول مبتعدة .. انتشيت ، استرحت .. استرخت عروقي المشدودة أخذت أنفاسي بكل راحة .. ماري اذن تحبني ؟ .. مازالت تحبني ؟ .. وفي حماس الراحة والنشوة قرصني الرعب فتذكرت شيئاً سرت من بعده البرودة في كل بدني .. ليس في جيبى إلا القروش المحدودة التي لا تكفى ثمن اللقاء ؟ وثنم التذاكر هذا فمن أين ؟ .. لا يوجد من أقدر أن أستلف منه الآن ؟ .. يجب أن أجد فوراً ولو نصف جنيه ، فمن أين ؟ .. استغرقت في محنتي تلك حتى برق الحائط فجأة في ذهني حينما لمحت عيني « مكتبة معلوف » لبيع وشراء الكتب والروايات القديمة .. حسناً فهذا هو الحل الآن لاسواه ..

هرولت لأقف مرتعشا أمام ركن غرفتي المكس بالكتب .. أنا أفعلها لأول مرة .. كل كتاب أقتنيه أصبح صديقي ورفيقي ويصعب التفريط فيه .. اقتشعرت مشاعري وبدي تنسلل لتختار الذي سوف

أبيعه .. أحسست وأنا أتلمس وأختلس أتقى لص خسيس ! ولكن ..
أشحت ضجراً عن بقايا مثالياتي الواهية ، فهل عادت تذكرني بنفسها
في مثل تلك التوافه ؟.. اخترت جزأين من « دائرة معارف العالم
الفيلسوف محمد فريد وجدى » .. أحضنتها وقلبي يلتوى فها أعزها
عندى ، ولكنني شربتها ونهلت منها حتى ارتويت فكفى جشعاً ..
خرجت بها بائساً منهار الكبرياء لأقف أمام الحاجة معلوف ليسلمني
بعد فصال عسير « ثلاثون قرشاً » لاتزيد ملياً ! لا بأس ، فهذا
انقاذ .. التذكرة بأربعة قروش ونصرف الباقي !

وفي ظلام السينما جلست انتظر .. المقعد مازال خالياً بجوارى ..
انتهت مقدمة الاعلانات ، ثم مرت استراحة ماقبل الفيلم ، ثم بدأت
تيرات الفيلم ، بل بدأ الفيلم نفسه والمقعد مازال خالياً بجوارى ..
بدأت أنفاسي تلفظ زفير النار .. استلمتني لحظات الاحتراق ..
ياغربة هذا الذى يحدث لى ؟.. هذا السعير غدا وبعد غد فماذا
بعد ؟.. لم أعد أقدر أن أظل منتظراً فالمقعد بات لى من القلق
كالجمر .. وفجأة لاحت مارى .. هذه هى مارى .. شكراً يامارى ..
تبرق عيناها ملتاعتان وهى تلتصق بى لاهته الأنفاس ويدها تشد كف
يدى إلى حجرها فى وجد ولهفة !

اكتشفت أن لقاءاتى بمارى يجب أن تتم دائماً خلسة وفى الظلام ،
فالحاجة مترى يرسل من ورائها الجواسيس . وليس هناك خلسة
سهلة ورخيصة وتشفى بعض الغليل إلا قاعات السينما المنتشرة فى كل
مكان وكل يوم يجب أن أواجه محنة ثمن التذاكر ، فقد كان مرتبى
الضعيف يذوب بعد أول وثانى يوم - مع مارى طبعاً - ومن بعدها
ألثت فى عذاب أن أستدين أو أبيع .. وذابت مرة ونحن منصرفان من
دار السينما اضطرب وجهها وبدا عليها الذعر ، عندما رأت رجلاً
يتابعنا بنظراته ، وقالت أنه أحد جواسيس الحاجة مترى !
فوجدت بعد هذا بانقطاعها عن مواعيدنا المرتبة .. عادت لى

اندلاعات النار .. وقد تحملت أول يوم وثاني يوم وثالث يوم .. أما في اليوم الرابع وقد أوشكت أن أتهوّر بمخاطرة الطرق على بابها ، فوجئت برمول الراحة والهناء - الصغيرة روز - تنتظرني عند ناصية بنسيون فيوليت . وتحمل لى نبأ بأن أنتظر مارى أمام دكان السرجة فى أول السوق من « شرم الفجالة » ومهما تأخرت أنتظرها فسوف تحضر !

كان الوقت قد اقترب من الظهيرة ، وأنا واقف منذ أول الضحى فى انتظار مارى ، حينما ظهرت أخيرا لتشير برأسها أن أتبع خطواتها .. دخلت فى اتجاه السوق .. ثم فى أول حارة ، استدارت إلى زقاق ضيق ، وأمام بيت قديم متهدم من دورين مرقت من الباب !.. وكنت من خلفها .. راحت تصعد السلالم المهشمة البالية وتقفز من فوق أكوام القمامة المبعثرة أمام كل شقة .. ثم وقفت أمام باب دور الثانى وطرقت عليه فى ثبات واستعجال .. ويجرد أن فتح الباب أشارت لى أن أدخل .. دخلت .. شقة فقيرة جدا ورائحتها عفونة وبائسة المحتويات .. كلها خرق ، ومزق ، وهلاهيل ومقاعد بلا أرجل ، وكنبة غائرة متهدلة ، ومرتبة مفروشة على الأرض !.. قدمت لى « العمة » زاهية .. وهى عجوز فى الخمسين تقريبا .. نحيلة ومقددة وعيناها صينيتان وشعرها كوم من قش منفر .. إنها قمامة أخرى .. قدمتها لى فهى قريبتها .. شامية طبعاً ، ولا بد أنها من حضيض الشوام .. تحررت مارى فى جلستها كمن اعتادت على المكان ، وطرحت نفسها على الكنية بعد أن قذفت بحذائنها من قدميها ، وفكت أزرار البلوزة بل خلعتها .. والجونلة أيضا .. ثم سألتنى بفتة فهل معى فلوس .. ماذا معى من فلوس ؟! ارتبكت واضطربت .. فلوس ..؟ ومعى بقية مرتبى الذى استلمته فقط أول أمس .. وتبقى منه جنيه ونصف جنيه وبضعة قروش !.. نعم .. نعم . وأخرجت كل ما فى جيبى .. تناولت الورقتين فقط ، الجنيه ثم النصف جنيه ، ثم علا صوتها ينادى العمة زاهية ..

وختلى وتصرفى فى شئوتنا ياعمق العزيزة !

وقد تصرفت العمة العزيزة فى سرعة عجيبة .. عادت بأكوام
ولفائف هائلة .. ثلاثة أرتال كباب مشوى تفوح رائحته الشهية ،
«عدة أرغفة من الخبز الساخن الطازج الخارج فوراً من الفرن ..
وزجاجة « فياسكا » رهيبة من النبيذ اليونانى .. ولفائف جبن وزيتون
ومرتديلا وحوادق ، وقراطيس عنب وتين برشومى .. والباقي ربع
جنيه .. فهو إذن للعممة زاهية كى تذهب به إلى « سينما فلوريدا
بالسكاكيني » ، ففيها يعرض فيلم حبيبها الرائع العجوز « والاس
بيري » !

« زاهية » تنصرف .. اللفائف والقراطيس تنفرط .. الأكواب
يرقص فيها النبيذ . عطر مارى يبدد أية رائحة .. هاهى مارى - وهنا
ومنذ اليوم سوف يكون وكر العشق لنا !.. مارى تقول هذا وهى
تقتنص مسحة عيني المستعرضة لبؤس المكان ، ثم توبخ نظراتى تلك
بأن تنادينى إلى ذراعيها المشتاتين - ويكفى أن لنا فيه مرتبة
مفروشة !

.....

.....

أنا الآن فى الأشهر الأولى من القاهرة ١٩٤٢ ..

غصت تماماً فى « وعاء مارى » فلا أرى من المعالم سواها .. تجربة
مارى ؟! غصت بل يعت نفسى كاملاً وسهلاً فى صفقة تجربة مارى
هذه .. وحتى وأنا ألفظ أنفاس غريقاً منتحراً فى غورها المرعب ، كنت
أنازع نفسى ساذجاً أو صفيقا ، فما أنا إلا فى تجربة أو تجارب كاتب
تنقصنى لتكتمل لياقة الأدوات من أجهزة الكاتب والروائى والمفكر ..
عالم النوع من هذه الانثى ؟!.. طلاسـم النوع ؟!.. غريب ورهيب
النوع ، ياشاسع الفرق من سذاجة خيال كنت أختال به وأنصوره
شعاعات من عروض جديدة سوف أبهر بها ساء الفكر والكتابة ، وبين

واقع صاعق مباغت يأخذنى فوراً إلى قاع الأعماق ، لتكون أول فض
البكارة من هذا الجنس ، مع هذه الانثى التماسح مارى !

صارحت نفسى مستميتا لآتشبث بالبقايا مما هرب وتبخر من
مثالياتى وأخلاقى وطموحاتى ، فالفتاة نارية متقلبة سادية هوجاء
حقاء وجشعة ، لاتعرف ماذا تريد ؟.. إنها دائما جائعة رجال وأموال ؟
وبدأت أستغرب وأتعذب بدء انحسار لهيها العاطفى المشوب ، فقد
بدأ يخجو وتنطفئ ذبالاته مع عويص إملاقى وذبول أحوالى. وبأدى
هزالى .. ولكن تبقى شىء غريب فيها مازال يؤجج طيش خيالها ..
تحلم هذه القاحلة لو كانت كاتبة وأديبة وصاحبة صالون مثل قريبتها
الشهيرة « مى زيادة » ؟ .. ورغم أنها جاهلة أو نصف أمية ، فهى
تتعثر فى القراءة والكتابة وليس لها طلاقة أى شىء إلا أنها تتكلم بعض
الفرنسية وبعض الانجليزية .. رغم كل هذا يخلب لبها ويريح نفسها
أن أكتب لها كل يوم رسالة عشق وغزل وهيام .. بل تحول هذا الأمر
إلى ثمن راحة ورفاهية لها تعوضها إذا لم تكن هناك نفود لنصرفها على
تكلفة خلواتنا .. تلك الرسائل وكنت أكتبها دائما ومرهقا ومترنحا وأنا
أتوجع ، فإننى فيها أفقد أسلوبى وصدق أفكارى ، كى تقدر أن تفهم
ماأقروه لها .. رسالة كل يوم تلك أصبحت طبق مزة السهرة تتناوله
المدموازيل « مى » الصغيرة فى شغف مدهش بل شبق غريب ، وكأنها
تحتوى أو تمتصنى فى لذة مفتقدة عالية المستوى .. هل تريد أن
تفهمنى مما أكتب لها ؟ ... وماذا لها إذا فهمتى إلا أن تأخذنى كالعادة
وتغوص به بين شفيتها .. ثم تميل بعنقها الناصع على كنفى ، وحبيى
الأسمر الرائع ، فهل سوف تزوجنى يوماً لأسعدك ؟.. تقول هذا
دائما ، ودائما تحس بلسعة قشعريرى الباردة من هذا السؤال المرعب
فتسحب كلامها سريعا ، فما قولتها تلك إلا نكتة ودعابة ، فهى ترفض
أن تزوج من هو أصغر منها . وأحيانا يندفع الغضب ونفاد الصبر من

عينها حينما تكون قشعيرقى شديدة اللسعة ، وترمق في عيني ثقبين صريحين يصرخان بأن زواج مثلها لى لا .. لا .. مستحيل !
وذات يوم .. وكانت الأمور قد طفحت إزائى منها ومن أسرتها .. وجدت نفسى أمامهم بين محالب اجتماع أسرى عاجل وشامل وهام ، حضرته مدام آدمة ، وحتى الخواجة مترى نفسه ، فقد نفذ صبره هو أيضا .. وهاهى مارى أيضا نفذ صبرها طبعاً .. وموافقة على مايقرونه لها .

وفى جلسة صاخبة . ومتوترة ، وغريبة التناول والمصارحة والسؤال الموجه لى ومطلوب الإجابة عنه الآن حالا .. إما أن أتزوجها فوراً وإما أن أتركها فوراً !.

هرعت نظراتى تتردد وتتوسل .. لحظات مرعبة كأنها لحظات ما قبل النطق بالإعدام .. كلا الامرين إعدام .. أتزوجها يعنى سوف أنام الليلة ولقبنى الجديد هو « قواد » .! أتركها يعنى سوف لا يستلمنى من الليلة أى نوم ..

لم أتردد طويلاً .. رفعت رأسى واقفاً وأنا أقف لأقول ..
- حسناً ، سوف أخرج لإحضار المأذون فانتظرونى ..

« هارب من التجربة » —————

خرجت ولم أعد ..
 أتزوج ماري ؟ .. مستحيل ؟ .. طبعاً مستحيل ، وتعال فافترسنى
 ما شئت أيها العذاب الرجيم ! .
 أمشى متطوحاً ذاهلاً فى شارع الفجالة .. ينتظروننى الآن ومعى
 المأذون ؟ .. سوف أحضره معى حالا ؟! .. كم أصبحت كذوباً
 ومخادعاً ، بل أنا جبان ! .. خطواقى تتعثر ، وإحساسى شديد
 بالوضاعة .. الساعة الآن الرابعة بعد الظهر ، وكل دقيقة بعد هذا لها
 فى لحمى ومشاعرى جز السكين .. الشارع صاحب هادر والحياة نشيطة
 جارفة كالعادة .. عساكر إنجليز ، وبنات أفريقيا المجندات البيض ،
 وعربات لورى وجيب ، والترموای ، والأتوبيس الأخضر ، وخادما
 بالكعب الفلين والأساور الزجاج والحريـر الصناعى ولطخات الروح
 السائحة على وجوههن الكالحة .. أصبحن غانيات .. يجدن الزبائن
 دائماً ، ففى أجسادهن التى حضنها الذل والفقر حرارة يفقدها الباردون
 الإنجليز ! .. ما الفرق بينهن وبين ماري ؟ .. أمشى .. أتوقف برهة
 أمام عمارة البنسيون .. أرفع عيـفى إلى الطابق الثانى .. غرفتى
 والشيش موارب ، والياطة من تحتها .. أشعر أننى بت غريباً عنها ..

يسكنها آخر لا يمت لى بصلة الآن .. أريد أن أنام .. أستريح .. فهل
أجلس ولو على الرصيف ؟! .

أمشى .. أمشى .. أستدير من عند « كازينو البسفور » .. أرى
« الحاج فضل الله بائع الصحف » ومفروشاتة الشهية على الناصية .. لم
يعد يرائى ولم يعد يتلقى منى قرش كل يوم .. انصرفت عن قراءة
صحفه ومجلاته .. لم أعد أقرأ أى شيء .. لا صحف ولا كتب ولا مجلات
ولا أى ورق .. الصحيفة المنشورة أمامى ليلاً ونهاراً هى مارى .. شظية
هذا العصر من براكين الحرمان .. البرق والرعد فى ليالى الحرمان ..
يا هذا الحب هل أنت الحب ؟ هل أنت كل هذا العذاب ؟ .. ما أعجب
الأسرار فى مخلوقات هذه الحياة ؟ .. يا إلهى فأين القاموس من طلاسـم
المخلوقات فى هذه الحياة ؟! .. عفوك وغفرانك .. لماذا خلقتنا ، ومن
نحن ، ومن أين ، وإلى أين ؟ .. يقولون نصلى ، فأين أصلى ، ولمن
أصلى ؟ .. هل أركع على قضبان الترمواى وأصلى ؟ .. حقا أريد أن
أصلى ؟ .. يخفق قلبى فأريد لو أصلى فهل أدخل « جامع أولاد عنان »
هذا الذى تواجهنى الآن منذته السامقة ؟ .. أصلى حتى يأتى الليل ؟ ..
أبيت فيه بمنل المجاذيب ؟ .. أنكمش على بلاطه حتى أذبل وأموت ؟
رحماك يا إلهى فهل أصابنى الجنون ؟ .. أمتيق الآن لو يحدث زلزال
ينشق الشارع ، يبتلع الفجالة كلها ، وكل مارى وأهلها !

أمشى فإلى أين ؟ .. خطواتى فى ميدان باب الحديد .. أطل على
محطة مصر فكم حلمت بها فى قريقى .. أتجه إلى محطة كوبرى
الليمون .. أقف على الرصيف .. المترو والقضبان .. مترو مصر
الجديدة .. عطفى الباطن يستنجد باحثا عن صديق ، فهل بقى لى إلا
« صديقى نجيب » .. إنه يسكن فى آخر شارع المطار بمصر الجديدة ..
منذ أشهر لم أكلمه ولم أقابله بل أنا هارب منه .. نصائحى لى كانت
ترهقنى أكثر فماذا تجدى . النصائح فى تلك الأمور ؟ .. عقاير الكلام مع

هذا المرض لا ، لا تنفع !.. أذهب إليه الآن فماذا أنشيد منه ؟ .. لماذا
يملك أن يساعدنى ؟.. لماذا يملك أى إنسان أن يساعدنى ؟ .. المترو قادم
بأزيزه على القضبان ، وهؤلاء الذين يرمون أنفسهم تحت عجلاته ،
لماذا يحسون ؟.. بتر الجسد فجأة .. وتهشم الرأس فوراً ، فماذا
يحسون ؟

.....

عندما فتح « نجيب » الباب ورآنى ، فرد ذراعيه سريعاً ليتلقانى
بينها قبل أن أقع .. كنت أترنح .. هويت على صدره وأتيت الكلمات
يخرج نشيجاً من فمى !.. دخل بى إلى ركن من غرفته وهو يهدئنى
مستغرباً ومتأثراً !.. إنها غرفة بنسيون أيضاً ، ولكن فى الفاخرة
هليوبليس .. معه « ضابط إنجليزى » وأمامها أوراق ودوسيهات
وأكواب ، وزجاجات بيرة .. أخذنى نجيب وقبل أن أفسر له أى شىء
لأغسل وجهى فى حمام غرفته الواسعة ذات الأركان والستائر .. ظل
واقفاً يحمل الفتوة حتى جففت وجهى .. نظرت إليه فى امتنان
شديد .. وتلعثمت بكلمات الاعتذار عن حضورى غير المناسب ..
وهذا الضيف الموجود ! فأنا ، أنا فى أزمة حقيقية ، وليس لى سواء
الآن ! يرق العطف فى عينيه فانهمرت دموعى ، بل انهمرت مشاعرى
فى هلوسة كلام ، فكم أنا يائس وفاشل ومجلود يا عزيزى نجيب ! مارى
يانجيب ؟.. التجربة الرهيبة مارى يانجيب ؟.. هذه الفتاة وأختها
وأما يانجيب ؟ .. من ينقذنى يانجيب ؟.. مصممة أن أتزوجها ..
أتزوجها ؟.. كيف ؟.. وبماذا أتزوجها وقد أصبحت عاطلاً منذ
أسبوع ؟.. فى جيى خطاب فصل لانتقطاعى عن العمل . وإهالى
المتكرر للمواعيد .. هدأنى نجيب .. ضمنى إلى كتفه فى حنو أخ أكبر ..
شدنى من ذراعى إلى مائدة الغرفة .. وهيا صب لنفسك أولاً « شوب
بيرة » ليرطب جوفك وتعال أعرفك بصدقنا العزيز « الميجور
كول » !

« الميجور كول » في الاربعين تقريبا .. بشوش المنظر ، وله وجه حافل برقى الحلقة .. إنه ابن لورد ، وأستاذ أدب مساعد في « جامعة اكسفورد » ومع حرب هتلر المجنونة فهذا هو يلقي في سنجيق الشمال الأفريقي وله كل ليلة منامة في خيمة وناموسية في « معسكرات جنيفة » بالقرب من « السويس » .. « نجيب » يعقد صفقات التموين مع الجيش الإنجليزي أحيانا ، ويكسب كثير الفلوس .. كل الناس يكسبون من فلوس الجيش الإنجليزي .. تجار الخيش والصفيح والحصير ، يلبسون الحرير ويشترون العمارات وكله من فلوس الجيش الإنجليزي .. باعة الفول والبصل والتين يركبون فاره العربات وتلمع في أصابعهم فصوص الخواتم وكله من فلوس الجيش الإنجليزي .. العمال المعدمون هرعوا من قبلى وبحرى تشحنهم القطارات بعشرات الآلاف وراء فلوس الجيش الإنجليزي .. « الميجور كول » وجلسه الآن مع نجيب لإتمام صفقة أطنان من نبات الخروع من أجل زيوت الطائرات .. إنه مرتش لطيف طبعا ، فالصفقة تتم في غرفة بنسيون ، وعلى نشوة البيرة ، ولذة البطارخ .. ولكن رشوته فيها يبدو سهلة وخفيفة ، فكل مطلبه الليلة أن يسهر ويسكر مع أى أصدقاء حتى يأتى الفجر ليعود إلى تلك القاحلة .. لفافة الرمال « جنيفة السويس » .

.....

شربت ، شربت كثيرا وخيل لى أتقى أبعد رويدا رويدا عن الدوامة السفاحة التى دخلت بها .. اجتذبتى الحاجة كول فهو مثقف بارع وأديب ذواق ويغلب لى ، فلا مانع أن يشتم « تشرشل » و « تشمبر لن » وكل لوردات وجنود الإنجليز ! واشتدت جاذبيته لى عندما حكى بصراحة كيف فى أول مرة رأى فيها الاهرامات وأبو الهول - وكان يومها سكرانا كيف خر ساجدا على الرمال .. حقيقة خر ساجدا على الرمال .. أباء العالم ! . تلك العظمة وتلك

العملة ١.. يومها كيف نزل إلى الناس في الشوارع ليراهم كلهم تاريخيون .. حتى الحفاة والصعاليك كلهم تاريخيون .. فمن صنع تلك العظمة وتلك العملة إلا عظماء وعمالة وهؤلاء هم أولادهم التاريخيون . إنه يحترم مصر ويشفق على عظمتها الذليلة ، ويعلم هذا الاستعمار الذي يدوس بالحذاء على رأس أعظم الشعوب .

« الميجور كول » وقد أحببته سريعا - ومنها كان هذا الكلام منه مبالغة أو مجاملة ، فقد أحسست بالقربي له فورا بعد أن ألقى مريثة للشاعر « شيل » ، ورأيت الدموع تترقق في عينيه . حرك جذوقي المنطفة ، فانطلقت أناقشه بل أناقشه من غوص التحليق في غموض هذا الوجود ، أدهشته أحيانا وأفحمته أحيانا ، فسنينا اللوان والجنس وفارق العمر ، فما نحن إلا عقل وعقل .. وهكذا استغرقنا الحديث ! وفجأة دقت ساعة الحائط - وكأنها خبطة تفوقني وتبني إلى خشبة المسرح التي تنتظرنى .. الساعة الآن العاشرة .. عشر دقائق ، وكل دقة أتحفز معها إلى شيء يجب أن يحدث فورا .. مارى والمنتظرون ؟! بريق الدهشة السعيدة والمختالة في عينها عندما وثقت من كلمتي بأنى ذاهب لأعود بالمأذون ؟!.. صدقتنى ، فما أحقرنى فهل مازالوا ينتظرون ؟

قمت واقفا مندفعاً نحو الباب لأنصرف .. لحقني نجيب ووقف أمامي ، فلا نزول فإلى أين النزول ؟.. صمت وقاومته ، واستحلفته أن يتركنى فيجب أن أنهى أمرا أشعر به الآن ! .. فاستنجد بالميجور كول أن يساعده في منعى .. أرغماني غصبا أن أعود فأجلس ، وكول يسأل مستغربا إيه الحكاية ؟.. حكاية مارى ؟ .. أحكى حكاية مارى .. ؟ ها هي كل حكاية مارى .. فأنا أيها اللورد الرفيع إنسان مصرى ومازلت في الثانية والعشرين ، جئت من الريف الأخضر إلى القاهرة الحمراء فقابلتني فتاة تتلظى اسمها مارى ، بركان اسمه مارى .. زلزال

اسمه مارى.. .. وحكى .. حكى .. كل المشاهد والتفاصيل وحكى
وصلت إلى مشهد إحصار المآتون ، كنت قد تأججت مرة أخرى
فوقفت مصمما على الانتصاف !

الميجور كول هذه المرة هو الذى وقف صارخا ليعترضنى ، وله
شكل قائد تباغته معركة حرية .. أغلق الباب بالمفتاح ووضعه فى
جيبه ، ثم بدأ ينكش شعر رأسه ، وقد استيقى فى يده ورقة الفصل من
العمل - من وثائق تدهورى تلك التى أخرجتها وأنا أحكى هاذبا ..
وواضح رغم صرامة شكله أنه اندمج رومانسياً ومفرقا فى مشكلتى
العاطفية المؤثرة !

تلك الليلة وما حدث فيها .. وما تقرر فيها .. لقد رسم الميجور
كول خطة حرية سريعة لاقتلاعى فوراً من معركة الفجالة الضارية ،
فيجب أن أغادر القاهرة ! إلى أين ؟ .. إلى « معسكرات جنيفة » ،
فهناك وظيفة ، والمرتب خمسة وعشرون جنيهًا ، والأكل والسكن
مجانا ، ولا أجازات ولا عودة من هناك حتى تشفى من هذه المارى ..
واهربوا من التجربة كما يقول يسوع المسيح !

وظيفة ؟ .. فى الجيش الإنجليزى ؟ .. تحمس نجيب للفكرة بل
هلل لها ، فهى التى سوف تصنع كل الحلول .. وظيفة كتابية سهلة
وسوف تجد هناك مئات بل آلاف من أمثالك أولاد الناس الطيبين
الغلاة !! .. أما أنا فقد بهت لحظة ، وفاجأتنى مشاعر من مثاليات
امتعاض وكأنتى أواجه حالة خيانة للوطن .. اشتغل فى الجيش
الإنجليزى ؟ .. الأعداء ؟! .. أنا الوطنى المشبوب ؟ .. لا .. لا ..
آسف .. لست من نوع هؤلاء المئات أو الآلاف !

أنا دائخ ولا أعرف بماذا أرد ونظراتى عليها حائرة ومتردة ..
وللوهلة الأولى تحمسا ما اعترانى وما كنت أفكر فيه ، فأخذنا
يتضاحكان ويتغامزان وكأنهما أمام غلام مضحك وعنيد .. لم أنطق لهما

بأفكارى فأنا أعرف وأنا ألقبها على نفسى أنها أفكار متهافئة وضعيفة ،
فمن أنا وما وزنى حق أعلن نفسى شعارا أو انقلابا ؟ .. تسعة أعشار
مصر المطحونة المضوغة يستردون أنفاسهم من فلوس الجيش
الإنجليزى .. يتعيشون الآن من فلوس الجيش الانجليزى .. الوطن
كله يشغل الآن مع الجيش الإنجليزى .. أعداؤنا الألداء المستعمرون
نعم ، ولكنهم الآن يجاربون أنفسهم ويمزقون أنفسهم فى ضراوة
الوحوش ، وما نحن لهم إلا محطة ذهاب وإياب .. نكست رأسى
ساکتا .. وضع أننى استسلمت !

وفى الفجر - فى العربة بجوار الميجور كول - أعطيت ظهري
للقاهرة .. من مصر الجديدة رأسا إلى طريق صحراء السويس ..
لا أستدير ولا أتلفت .. فقط أتحمس عنقى فقد بدأ حبل الفجالة
الغليظ يحز فيه - ومهما ابتعدت أبها الهارب فىلأى أين الفرار ؟

.....

.....

أنا عائد من « معسكرات جنيفة » فى عربة الميجور كول ، ولكنه
ليس موجودا !.. عائد بعد سبعة أشهر .. لم أحضر القاهرة منذ سبعة
أشهر .. بجوارى مجنونة سكسونية نحيلة وطويلة وملتهبة الخيال ، ذاهبة
إلى أجازتها أيضا فى القاهرة .. اسمها « بياتريس » ، وقد التقينا كثيرا
فى خلوات المعسكر .. وعرفت أنها خريجة ملجأ ، وليس لها أحد
فأعطيتها عطفًا وحنانًا صادقا اكتشفت من بعده أنه يمكن أن أكون أنا
هذا الأحد .. تقول أنها أحببتى واسمى على فمها هو « فرعون
الصغير » ، ومن أجل هذا رتبت ، بل أغراها الميجور كول - أن
يكون توقيت أجازتها معى !

« بياتريس » تلتصق بى وتضغط على يدى .. ويدي شديدة
البرودة ، فقد بدأت أنفاسى تتجمد وكلما اقتربت من القاهرة ..

مشاعري بعيدة وأفكارى الآن كيف أتخلص منها بمجرد أن أوصلها إلى
عمارة المجندات بقصر النيل !.. بياتريس تحبى ويا عواطف الحرب
الهوجاء ، كم عدد المجندات البلهاء والوفاى تعلقن بطولى وسمرقى
واستهواهن تعفى وترفعى أو قل سذاجتى وبرأتى .. وقعت معهن
طبعاً فى قصص غريبة ومغامرات مذهلة من خلوات الليل وأثناء
الفارات ، وفرصة الأجساد والأنفاس تدفئ بعضها .. ولكن يا شدة
البرودة ، فأنا فى صقيع دائم .. حكاية مارى والروميو أو الكازانوف
المصرى وبعد أن أذاعها وأشاعها المرح « كول » نشرت لى جاذبية
خاصة - فهذا هو البرنس الهارب من الحب .. ولقد تعلمت بعد أسابيع
قليلة أن أدعوهم وأدعوهن إلى بلاط هذا البرنس الذى أصبح اسمه
« لؤلؤة جنيقة » .. الخيمة الملونة ذات الحديقة الصغيرة الخلابه ، والى
تأنقت فى تنسيقها ورشقتها بياهر الأركان الشرقية والعصرية - وكله
من مخازن صديقى الميجور كول - فبات منظرها يغيظ حتى غطرسة
الانجليز .. نعم نجحت وبسرعة - وتفرغى أن أنسى .. صراعى أن
أنسى .. فى تأسيس وإشاعة نوع مجتمع مصرى عصرى رفيع المستوى
هادئ الكبرياء ، ليفرض احترام الانجليز للمصريين .. فى غلظة ،
ما استقبلتنى ومنذ أول لحظة تلك العزلة البائسة والتحاشى المهين منهم
لمعسكر الموظفين المصريين المدنيين .. جاهدت أن أشتته .. كافحت أن
أطرده .. فتحولت لؤلؤة جنيقة كل ليلة إلى مرح نفوس وسمر علاقات
وجاذبية صداقات تنسى اللون والجنس والدين !

.....

بياتريس تلتصق بى وتفرك يدى ساكنة .. « والوصول الهندى »
المتفطرس يقود العربيه متأقفا ضجرا من غزلنا الصريح .. انطلق ينهب
الطريق فى سرعة مخبولة اسكتت بياتريس عنى ، فقد أخذ قلبى يدق
فى عنف وكلما اقتربت المسافات !

قلبي يخفق بعنف بل يعوى ، فأنا لم أنس مارى بالطبع .. كيف بسهولة ؟ .. أنها المحريق المتدلج فى مشاعرى ليل نهار .. إيمان أفكارى ليل نهار .. عائد لها وفى خطى استرضاءات واغراءات ووعد مسرفة كثيرة إلا الزواج .. فى حقيقتى - من النافى - هدايا متنوعة لها وإخوتها وفى حقيقتى أيضًا كنوز كتابة سوف تلهبها وسوف نقضى متع الليالى فى التلاغى بها .. قصص كثيرة وعجيبة كتبها بصريى الحرمان منها .. استعدت أسلوبى ، وتفتحت شهيقى ، وترعرع وجدانى ، وعاد طموحى فى أن أصبح كاتباً مشهوراً سوف يبهىها قريباً بذىوع اسمه ورواج أحواله ..

ومنذ أسابيع خطرت على بالى فكرة ، يا لها من فكرة .. وكنت قد تابعت فى الصحف والمجلات - « ضجة وفاة الأدبية اللامعة مى زيادة » - وانهمار أعمدة الصحف والمجلات بترائىها ونشر القصائد عنها .. الكل يبكى ، والكل يرثى ، بل والتنافس هائل على نشر ما لم ينشر من مخطوطات قلمها .. حسناء الصالون الأدبى وفريدته الاعجوبة ذات الفتنة والبهاء والجمال ، وأسلوبها العصرى المتحرر النشوان .. ومنذ زمان يدهشنى ويأخذ بلى أن تكون لقادة ناعمة حسناء مثلها هذا الحسن والنعموة فى الفكر والأسلوب أيضًا !.. هل يكتب لها أحد ؟ .. جبران مثلاً ؟ .. أو مطران مثلاً ؟ .. أو هؤلاء العديدين من عشاقها ومريديها ؟ .. العقاد ، وطه حسين ، وشوقي ، وحافظ ، والبشرى ، ولطفى السيد .. كل أدباء مصر .. بل كل أدباء العروبة وشهرة صالونها القاهرى ذاعت فى كل الآفاق ، وعجيبى فلا فضائح من حولها ولا اشاعات ، فهى لوحة الحب والصفاء والجمال الممنوحة للجميع .. يؤثر فى نفسى لوعة هذا التدب والحويل على فقديها ، فهل عقلت الدنيا ولم يعد يعوضها أحد ؟

قفزت الفكرة الغريبة إلى ذهنى .. « مارى » قريبتها ، أو كما تقول

فلماذا لا تكون هي « مى الجديدة » ؟ .. مى التى تحاول أن تعود ،
وأنا من خلف الستار أنفخ فى عبقها فلعله ينتشر ويفوح .. نعم فرصة
هذا الرنين من رثاء اسم مى الغائب ، أن أقترح به اسم مى الحاضر
والموجود .. ولم أتردد ..

وذات ليلة فى قمر جنيقة والكل نيام .. أمسكت ورقة وقلما ، وكتبت
خطابا للأستاذ « محمد التابعى » - صاحب وأشهر وأروج مجلة
أسبوعية فى الشرق العربى كله - « آخر ساعة » - أقدم له نفسى
فأنا فتاة اسمها « مارى » قريبة للراحلة الكبيرة « مى زيادة » ، ومنها
تسرب حب الأدب والكتابة إلى نفسى - وإليكم « قصة قصيرة » من
أفكار بنات الجيل الجديد ، فأنا جامعية فى الثانية والعشرين ومن أسرة
تقليدية محافظة تحظر على بناتها العمل والظهور ، ومن أجل هذا أرجو
الموافقة على أن أتخذ توقيعا مستعارا أداوم الكتابة به لكم هو « مى
الصغيرة » - هذا إذا راق لكم نشر ما أرفقه ، وعندى من نوعه
الكثير سوف أتشجع وأرسله إذا شجعتى سرعة نشركم القصة
المرققة .. وتفضلوا .. !

كتبت الخطاب يومها .. طويت أول قصة وضعتها فى ظرف أنيق ..
الصقت طابع بريد بقرش صاغ .. كتبت عنوان آخر ساعة بعمارة
بحرى ميدان الاسماعيليه - وألقيته فى صندوق البريد !
نفذت تلك الفكرة قبل عودتى للقاهرة بأيام ، وتوقعى إذا قدر لها
أن تنشر أن يكون هذا أثناء وجودى مع مارى لكن توقعى كان يائسا
وضعيفا ، فقد اعتبرت أن خيالى إنما يهذى ويخلق فى هيمانات بعيدة
التحقيق .. بل يائسة التحقيق !

.....

أنا عائد للقاهرة بعد غياب سبعة أشهر ..
فى جيبي « مائة جنيه » .. حقائبي مازالت فى « بنسيون فيوليت »

عند « مدام آدمة » .. وهذه الفتاة « بياتريس » مصممة ومتشبهة أن
أفرجها الليلة على معالم القاهرة !.. وعندما أصل بها إلى مقر إقامتها
سوف أعطيها الميعاد أمام « سينما ديانا » التي تعرفها - وفي نيتي إذا
وجدت ماري وحتما سوف أجدها .. فمع السلامه بياتريس أو حتى
اليزابيث الملكة نفسها !

« الأسوار » _____

القاهرة ٤٢ - ٤٣

أنا عائد بعد سبعة أشهر غياب وعذاب ، من لفافة الرمال الخشنة
في صحارى السويس ، والتي اسمها « جنيفة » .. شارع الفجالة
ودموعى تطفر حرمانا ، وينسيون فيوليت يا خفق القلب .. ومدام
آدمة كيف بالله سوف تستقبلنى ؟!

في جيبى مائة جنيه وأكثر ، من مرتباتى التى لم أكن أصرفها فأين
أصرفها في عراء جنيفة .. لهفتى حارقة إلى أشياء عديدة ، أهمها ورغم
كل شيء أن أرى مارى ، أستعيد مارى .. لا فائدة ولا جدوى من
أى هرب - فهذه الفتاة هى قدرى الواقف يمنع أى مرور ..
صدمتنى مدام آدمة بجفوة استقبلها .. لم تنس ولن تنسى منظرى
وأنا أقول أمامها : هأنذا خارج لأحضر المأذون ليزوجنى مارى
فورا .. خرجت من يومها وها أنا عائد بعد سبعة أشهر فماذا كنت
أنتظر منها ؟ .. بادرتنى بأن غرفتى مشغولة ، وكل الغرفات مشغولة ،
وعغشى ها هو فى غرفة السفرجى « عرفان » .. قالت هذا خاسمة
وباترة لأى كلام قد أقوله ، بل استدارت بظهرها تنادى عرفان
ليتصرف معى !

صدمتنى وجرحت مشاعبرى .. وفكرت أن أغضب وأن أثور

فما هكذا يتعامل البشر المهذبون ؟ .. ولكن لماذا ضياع الوقت ، فماذا عاد بهم بنسيون فيوليت هذا بشكله الراكد ووجوهه القاتمة ، وعيني منذ زمان على « بنسيون كنج فيليب » !.. في أحلى عمارات شارع الفجالة ، عمارة « الخواجة قرصاتي » ، وصاحبته العجوز العرجاء « مدام موريس » ، والغرفة فيه بثلاثة جنيهاً في الشهر وبوسعى أن أستأجر أسبوعاً .

وطرقت الباب على بنسيون مدام موريس .. استقبلتني للوهلة الأولى في تأفف من منظري المشعث المترب وعفشي الغريب الصادئ - ولكنها عندما تذكرتني فتحت لي ورحبت !
« مدام موريس » أرملة حاجب سابق كان لامعا في المحكمة المختلطة .. محكمة الامتيازات الأجنبية والقتل للمصريين مجانا أحيانا !.. وهي قزمة مالطية معوجة الملامح ، وتمشي دائما على عكازين فساقها وزراعها مشلولتان .. وذات مرة كنت أعبر الشارع ورأيت بعض الصبية الأشقياء يخطفون عكازها .. ووقفت مسكينة حائرة ، فتطوعت أن أكون عكازاً لها حتى أوصلها إلى باب البنسيون ، والذي دعتنى يومها إلى دخوله ، فبهرتني غرفاته وأناقة أثاثه وهذا الهدوء الفامر الذي يكسوه .. تذكرتني وعرفتني ، فقد أطلت الكلام معها يومها ، وقرأت لي عن مستقبل في الفنجال .. ولكنها هذه المرة ، وأنا أخرج لها ورقة من فئة خمسة جنيهاً ، صممت أن لا إيجار عندها بالأسبوع بل بالشهر كاملاً !.. دفعت لها الجنيهاً الثلاثة بلا تردد ، واختارت لي حجرة تطل شرفتها على كل شارع الفجالة .

خرجت .. صرفت خمسة عشر جنيهاً كاملة فما المانع .. مشتريات سريعة من ثياب ، وقمصان ، وبدل جاهزة ، وما أشتهى من احتياجات وأناقات ، وحتى الكولونيا وبرينتین الشعر .
أخذت حماماً طويلاً جيداً ، فهنا الماء الساخن من الحنفيات وليس

بمثل وابور جاز مدام آدمة .. استرخيت على السرير السفنج بعض الوقت أرتب أفكاري ، أحاول أن أرتب أفكاري .. وماذا عن أفكاري وخططي كلها إلا أن أقابل ماري .. أذهب إلى شقة « الخالة زاهية في شرم الفجالة » فهي التي بوسعها أن تحضر ماري ، بل قلبي يتحدثني سوف أجدها عندها الآن ؟

.....

فوجئت « زاهية » برؤيتي وأخذتها الدهشة برهة من فخارة منظري .. كانت وحيدة مع القطة والابرة والفنتلة والملاهيل وعفونة الروائح .. المنظر وكما تركته لم يتغير .. الكنبه المتهدلة المرقعة ، والمقاعد المكسورة ، وشظايا من قش وقشر وخشب ومزق ، ثم مرتبة النوم المطوية دائما على البلاط !

أحاول بمجرد دخولي أن أستنشق عبير ماري ، فكم يتحول هذا المكان الحضيضي إلى وهج وعطر ومهرجان عندما تكون ماري في أحضانها !

زاهية على منظري في دهشة وبلادة ، ثم لم تلبث أن انفجرت ملامحها ولاكت لسانها ، عندما رأنتي أخرج رزمة الخمسات وأخذ منها واحدة أضعها في يدها .. وهيا هيا يا خالة زاهية وجهزي ما تقدرى لنا من مشويات ومشهيات وكل الطازج والحريف من سوق شرم الفجالة !.. تناولت المرأة الورقة منى في وثب وحيوية ، ولكن لم تلبث بعد لحظات أن هبطت وترددت فهل أنا وحدي أم أنتظر واحدة ؟ .. واحدة ؟ .. من غير ماري أيتها الخالة زاهية ؟ .. وعليك من أجل هذا أولا وقبل كل شيء أن تخطفني رجلك إلى شقتها - طبعاً ما زالت فيها ؟ .. أو ماتت براسها في وجوم أن نعم .. حسناً .. دفعته حانيا نحو الباب وأنا أوصل تعليماتي .. ثم تمس في أذنها عن وجودي الآن عندك ، ولتحضر فوراً فلها عندي هدايا كثيرة وأخبار أكثر .

زاهية نكست رأسها برهة قبل أن تسألنى ، فهمى لم أعرف أن مودموازيل مارى خطبت وزفافها بعد شهر ؟ .. يوزباشى فى سلاح الفرسان اسمه « رؤوف » ؟!

تساندت ألتقى الصدمة المدوخة والتى أبدا لم أتوقعها !.. مارى مخطوبة وزفافها بعد شهر ؟ .. رؤوف .. من رؤوف ؟ .. ومتى ظهر ، وكيف ظهر ؟ .. استعدتها مرة أخرى بل استعدتها عدة مرات .. لا فائدة ولا جدوى فالأمر حقيقى وها هى صورة العريس بدأ يوزعها على أفراد الأسرة - وعند زاهية واحدة كارت بوستال - وجه وسيم متألق ، وفيه ما يشبه البله ، و ضيق العينين جدا ، ولكنه يتوهج فى ثيابه العسكرية وندشة الفرسان على كتفيه العريضين .. كيف وجدته ؟ .. كيف وجدها ؟ .. وأنا ؟ .. يا إلهى رحماك - بوابة جحيم جديدة تفتتح أمامى !!

جلست منهاراً آخذ رأسى بين يدى فى وجوم ضاغط ذاهل .. أحملى حولى ولا أتكلم .. والمرأة حائرة تلف ورقة الخمسة على أصابع يدها وتتردد أن تعيدها لى .. بقيت واقفة تنتظر وقد ألجمها منظرى البائس .. أشفقت على منظرى البائس .. صنعت لى قهوة .. شربتها بعد أن بردت !.. المرأة تحاول أن تكلمنى لتسرى عنى وأنا لا أسمعها ، لا أعى ولا أسمعها .. اسم رؤوف يحز فى رقبى كالسيف .. اسم مارى تلافيف ثعبان فى حلقى .. تحكى عن عربة رؤوف الفزدقية ، والقصر الريفى الذى أخذهم إليه ذات نهار فى « الفيوم » .. أنه من « عرب الفيوم » ، وصدقنى ، مارى وهذا هو حظها ، ولكنها لا تحبه .. مارى لا تحب أحدا ولن تحب أحدا ، وإذا راق لها يوما أن تكون قد أحبت فهو أنت .. لقد رأيت هذا بعينى فيها هنا .. وهى تسند رأسها على صدرك وكأنك بيتها المختار !

أحملى فى زاهية ونظرتى باهتة وبلهاء .. قلت وأنا أخرج الكلام

حشرجة من فمى - ما رأيك أن تنهيه رغم هذا وتبلغنيها عن وجودي ؟ .. هزت رأسها في إصرار بما يعنى أن لا فائدة .. توسلت إليها أن تحاول .. ألححت واستعطفنت أن تحاول .. لها ورقة الخمسة تلك كاملة إذا تمكنت من إحضارها إلى هنا .. قولى لها أننى غير موجود .. افعللى أى حيلة .. تنمرت نظرات المرأة على الورقة .. دستها في صدرها ، ثم خرجت !

.....

بقيت فى الانتظار طويلاً حتى عادت بوجه يحمل الحسرة وخيبة الأمل .. وضعت ورقة الخمسة أمامى ، وفى صوت جامد غامض قالت إنها لم تجدها !.. لم أصدقها فماذا حدث ؟ .. ألححت أن تقول لى حقيقة كل ما حدث ، فانهمرت دموعها فجأة ، وحكت لى عن المهانة التى تعرضت لها بسببى .. لقد ضربتها الست ودبعة - أم مارى - بالشبشب ، وقذفنها بالطبق ، وطردها على السلام أمام كل السكان .. ومارى هى السبب ، فبمجرد أن سمعت اسمك وسيرتك ، وأنا أهس لها عن ظهورك ، جنت وصرخت وانفجرت وقالت كلاماً وسباباً كثيراً !.. صممت أن أسمع .. استعطفنتها أن تقول كل شيء !.. تقول أنك جبان وحقير وناقص رجولة وحادار أن تقترب منها وإلا قضى عليك خطيبها الظابط الخطير ، وعيب عليك يا فلاح يا تافه أن تفكر فى بنت ناس أصبحت مخطوبة وزفافها بعد شهر !.. بنت ناس ؟!!

المرأة زاهية - ويعد أن طالت جلستنا الساكنة الكئيبة - أغراها هدوئى البادى فعادت تنظر إلى ورقة الخمسة الطريجة على الكرسي وتساألنى - هل لك رغبة أن أصنع لك أكلاً أو أحضر مشروباً ؟ .. ابتسمت - ضحكنت .. قمت واقفاً أقطع وأفرك يدى وعينى تستعرض المكان .. وكر العشق ومأوى حار الذكريات !.. وخطر على بالى خاطر أهب منى الخيال .. هذا المكان ؟!! وكما قالت - بنت الناس -

لا يخفى فيه سرا ، فلماذا لا أصنع له سرا سريعا يطفى الغلة
مما أنا فيه !

قلت للخالة زاهية - وقد بدا لها أن معجزة قد أفاقنتى من أزمى -
أن هذه الخمسة لتكون لها إذا عدت بعد ساعة ووجدت هذا المكان
مرتبا ونظيفا ولاتقا ، فسوف يكون معى ضيوف !
كانت الساعة الثامنة وميعادى مع « المجندة السكسونية بياتريس »
فى التاسعة !

.....

وجدت بياتريس واقفة أمام سينما ديانا .. خلعت ثيابها العسكرية -
وتلك منها مخالفة خطيرة - وغامرت من أجلى - كما قالت - بهذا
الفرسان الأزرق الخلاب !.. « بياتريس » المسكينة لا تدرى أنها
فقدت ثلاثة أرباع إغرائها من خلع الملابس العسكرية .. بدت نحيلة
عجفاء كعود القصب الأبيض الداوى !

« بياتريس » لطخت وجهها أيضا بالبودرة والألوان ، فهل ينقصها
ألوان ؟ .. ويا غرابة حواء - سواء هنا أو هناك - فهي تذكرنى الآن
بخدمات الفجالة وهن يتعثرن فى أردية الغائيات وألوان الصائدات ..
تمسنا .. ذراعها فى ذراعى ، جذلة ومنتعشة وطروب . أنها فى لهفة إلى
غوامض الشرق ومغامرات تلهب الخيال .. تحدثنى مرة أخرى عن
وحدتها الرهيبة فى هذه الحياة .. خريجة الملجأ ، التى لا تعرف لها
أبأ أو أمأ أو خالا .. وماذا بعد أن تنتهى الحرب وتعود ؟ .. إلى من
تعود ، وماذا سوف تعود ، الا بخفق ذكريات شرقية حارة مثل تلك
التي هى فيها الآن ؟ .. كم تمنى - وليحدث ما يحدث - لو تكبر
بطنها على فرعون صغير له مثل تلك السمرة والعراقة والكبرياء !
بياتريس البائسة يتهور خيالها ، ويجمع ويتجرا ، فهل تدرى عن
اعصار الصقيع الذى أنا فيه الآن ؟ .. أنا فرعون مسلوب الروح ،

وأشهى معها بجسد محنط خاو من الاحشاء وكل الأعضاء .. كم أصبحت أكره النساء .. كل النساء .. يقولون ضعيفات واهنات ، فمن أين لهن إذن تلك القدرة المخفية المخيفة المدمرة التى تمضغى الآن تحت أسنان هذه المخلوقة مارى ؟ .. الأنتى الصغيرة الضئيلة مارى .. الستين كيلو من هش اللحم والجلد والعظم مارى !

.....

« بياتريس » متهللة وموافقة على أى شىء وأى مكان وأنا أدخل بها مستهترا مخبولا ويلا مبالاة ، إلى مستنقع هذا السوق من بركة شرم الفجالة ، ثم إلى الشقة القمامة !.. لم تستنكر الفتاة ضمة المكان وحقارة الأثاث ، بل ألهب خيالها وهام بها افتتاناً وحاساً - وكأنها فى لفافة من سراديب ليالى الشرق وألف ليلة .. هللت وانتشت .. خلعت حذاءها وفكت أزرارها ، وطرحت نفسها أرضاً كمن تريد تقول : شبيك لبيك يا فرعونى الصغير عبدتك بياتريس بين يديك !

وبعد وقت لم يطل .. كانت المائدة قد امتدت ، والمرتبة المفروشة قد سويت ، والأقداح والروؤوس قد تطوحت ، والحالة زاهية قد انصرفت - وتعالى أنت يا هذه الإنجليزية البيضاء الشقراء لأذل فيك كل الشقر والبيض من هذه الدنيا !

تمضى ساعة .. وساعة أخرى .. بياتريس بجوارى خادمة هامة تتنفس رجفة النشوات . منظرى الدميم البذئ بجوارها ، ولا شىء إلا أنتى بت قمامة من هشيم بشر يحتاج إلى مكساة .

لا أعرف كم مضى من الوقت حتى سمعت الطرق على الباب .. قمت خاملاً مترنحاً ، فلا بد وأن زاهية قد عادت .. أفتح الباب ومنظرى فاضح مشعث .. ارتد إلى الخلف فوراً فيا للمفاجأة ، يا سريع المفاجأة .. من ؟ .. من ؟ .. انها مارى !!

.....

« مارى » واقفة جاحظة العينين على ما ترى ، فقد انفتح الباب

على المصراعين ونظراتها مسددة كطلقات الرصاص على الطريقة
الصريحة بياتريس !

فجأة - هوت على وجهي بصفعة قوية .. رددتها لها فوراً في صفتين
أقوى وأشد .. ونشبت بيننا معركة هوجاء ، تمزقت فيها
الثياب ، وحفرت بالأظافر على الجلد ، والأصابع المتشنجة تشد الشعر
من الجذور - بينما « بياتريس » تجمع ثيابها مهرولة وتمرق من الباب
فارة مرتعة مذعورة !

بقينا - أنا ومارى - طريحين لاهثين .. هى منهارة على الأرض
وتستند بظهرها على الجدار ، وأنا جالس مشرب ومرتعش بجوار
الجدار الآخر .. نتبادل نظرات كراهية نارية محمومة .. ثم رأيتها فجأة
تمد يدها نحو حقيبتها الملقاة بجوارها لتخرج منها لفافة « مجلة » ألقتها
في وجهي بكل قواها وهى تصرخ - ولماذا بعد أن تركنتى تتجراً
فتستعمل اسمى ؟

رمت عيني لفافة المجلة التى سقطت بجوارى .. إنها مجلة « آخر
ساعة » فماذا تقصد ؟ .. أستعمل اسمها فماذا تقصد ؟ .. ما هذا
وماذا بتلك المجلة ؟ .. ارتج صدرى بطريقة زلزال فى الطريق وأنا أفر
الصفحات .. أقرأ الصفحات وأتوقف عند الصفحة ٢٤ .. ويا إلهى
فما هذا ؟ .. العنوان ، والاسم تحت العنوان ، بالبخط الكبير ،
والصفحتان ٢٥ و٢٦ كلها والتوقيع أيضاً فى النهاية .. قصتى .. أول
قصة .. « يوميات مهاجرة » .. « قلبى فى يدي » .. قصة بقلم مى
الصغيرة .. يا له من دوار هائل قد أمسكنى .. الرعدة قد تملكنتى
والتيار الساخن يسرى بل يغلى فى عروقى .. يتلاشى كل شئ من
أمامى .. لا أرى مارى ، ولا بياتريس ، ولا زاهية ، ولا الفجالة ،
ولا جنيفة الانجليز ، ولا أى معالم .. قصتى منشورة بالكامل .. مى
الصغيرة ولدت .. أقرأها .. كيف أقدر أن أقرأ والفقرات ترقص
وتقفز من عيني إلى انفجار النشوة الهائل الذى انتشر هادراً فى

وجداني !.. أعود وأفر الصفحات .. كل الأعلام من كتاب مصر
وأستاذة مصر لهم هنا أساء وصور وعناوين وكاريكاتير .. مقال التابعى
وله بنط الاسم بئلل مى الصغيرة ، وريشة صاروخان ترسم مشهدا من
قصتي !.. أراهن بل أكاد أصرخ فى جنون بأن عدد آخر ساعة هذه
المره ، وأهم مادة فيه هى تلك القصة لمى الصغيرة .. أتحدى ما سوف
تحدثه تلك القصة من طنين ؟ .. وتساؤل منذ متى وزع هذا العدد ؟ ..
تاريخه ٢٥ مايو ، ويا إلهى فأنا أعيش الآن فى ٢٥ مايو فكيف
نسيت ؟!

مارى تراقب ما اعترافى فى دهشة وتساؤل .. تبرق عيناها فتزحف
تقرب منى .. تلمس ذراعى .. تلتصق بى .. تسند ظهرها على
صدرى .. تموء كقطعة جريحة تبحث عن دفء بيتها .. أنا لا أراها
ولا أحسها ، بل أنا ذاهل وهائم ومأخوذ ، وأرفع المجلة بذراعى ..
وكأننى احتضن حبيبتي الجديدة ، الرائعة التى تطل على الآن من ثقب
الأسوار الغليظة تناديني أن أقوم وأهرع مسرعًا إليها فقد أصبحت
حقيقة ووجودًا !

ولقد وقفت حقا كمن ألبى النداء فورًا .. تركت رأس مارى يقع ..
وأخذت أرتدى ثيابى فى هدوء غامض مسلوب .. لم أتعجل . ولكن لم
أتكلم أيضًا .. قضيت فى ربط خيوط الحذاء عشر دقائق مثلا !..
سرحنى غريبة ومريبة فى أننى قد أكون شفيت من مارى فجأة .. حمى
وادمان مارى ، والاعصار ينحسر فجأة .. يسرى فى بدنى إحساس
الثقة والغبطة - وكأننى أولف رواية من لحم ودم وقد قررت الاستدارة
بأحداثها فجأة .. تجربة مارى الرهيبة يا إلهى فقد تكون انتهت ..
يسقط الستار منها أمامى الآن على آخر فصل من أول مسرح أدخله فى
هذه الحياة .. وهذا أنا الآن جاهز فورًا لأقطع تذكرة جديدة فى مسرح
جديد من فصول هذه الحياة !

« ماري » جاحظة العينين على منظري في استغراب وتحد .
لا تتكلم ، ولكنها تشعر أن حدثا غريبا قد شدى بعيدا عنها فجأة .. لم
أهتم .. كنت شاردا جدا بل بعيدا جدا .. أنتهى وأفتح الباب لأنصرف
والمجلة فى يدى ، ولكنها تستوقفنى فى زججرة صيحة تطلب أن أترك
المجلة فهى صاحبها .. المجلة فى يدى ومفتوحة على الصفحة ٢٤ ..
أغلقتها ساكنا ، ووضعتها على المقعد فى أدب وهدهوء ، ثم فتحت الباب
وانصرفت !

.....

أنا عائد فى تاكسى من مصر الجديدة والساعة الآن الواحدة
صباحا .. رأسى ثقيل ومتطوح فقد شربت كثيرا وشبعت زهوا
وسعادة .. كنت عند صديقى « نجيب » .. منذ الضحى عند نجيب ..
فقد استيقظت فى الصباح وأول شيء فعلته هو كتابة قصة جديدة
لآخر ساعة - وتحت العنوان وبالخط الواثق « بقلم مى الصغيرة » ..
ثم قصة أخرى لمجلة جديدة اسمها « كلام الناس » ، وقد أغراني
فيها اسم ويريق محررها البازغ « مأمون الشناوى » ، وقد أرفقتها
بخطاب له شبيه بخطاب التابعى .. وبطريقة طابع القرش صاغ ،
وضعتها فى صندوق البريد ، وركبت المترو إلى مصر الجديدة !
« مى الصغيرة » هى سرى الحافل الجديد ، ولسوف أتكنمه عن
الجميع ، حتى عن صديقى نجيب .. فخيالى مندلع وجامح ومتلاطم ،
ويعوم فى بحر من الأساطير ، ويرسم غرائب الأشكال والتوقعات
لحبيبتى الباهرة المظلة من بصيص الأسوار !

ولقد كانت قصة آخر ساعة المنشورة تلك - وبكل الحرص منى -
فما تحدثنى عنها إلا استدراجات للاختبار ، هى نجمة السهرة عند
نجيب وأصحاب نجيب .. كلهم مثقفون وقراء صحف ومجلات .. من
قرأها استدرجته أن يتحدث عنها ، ومن لم يقرأها اجتذبه لقراءتها -
فقد كان الإغراء لها أن القصة غير تقليدية وصریحة وجريئة ، وكاتبها

المقنعة تحاول أن تمنح الرجال الكثير الوافر من أسرار الأنثى .. ولقد أحسست بالرعب من معركة التنافس والتساؤل بينهم على من يقرأ أولاً ومن يعلق أولاً .. فمن تكون هذه الكاتبة ؟!.. هل نشر لها من قبل ؟!.. هل هي عشيقة جديدة للتابعي ؟!.. وهل هي جميلة وحسنة أم خنفسارية وديممة ؟!.. أم ترى تكون رجلاً ويخدعنا ؟!.. يا إلهي وهذا كثير على مشاعري ، فهل أفشى لهم سرى ؟ .. لا .. لا .. وساعدني يا رباه !

.....

عجيبة أن أنسى ماري هكذا .. لا أصدق نفسي فلا بد أن نفسي تخدعني - فأنها لم تخطر على بالي طيلة جلوسى ومرحى مع نجيب وأصدقائه .. بل لقد تطرفت في مشاغبة مشاعري وتحديها ، فقضيت بعض الوقت مع التليفون أبحث لعلنى أعثر على المظلومة « بياتريس » لأسترضيها عن أحداث ليلة أمس !

.....

دخلت « بنسيون كنج فيليب » لأجد الردهة مضيئة ، والسفرجى « زيتون » واقف وأمامه تجلس الست وديعة والست زاهية في انتظارى ومنظرهما متهيج .. وقد قفزت نحوى بمجرد أن رأتانى فأين ماري ، وهل كانت معك ؟

وفوجئت بالحكاية العجيبة .. ماري ومنذ ليلة أمس لم تعد .. اختفت .. دهشت وانكمش دمي لحظة خاطفة ، ثم تمالك نفسي وأكدت لها كل خطواتى ومعلوماتى وفي صدق هادئ متزن أحسنا به فوراً .. وبدأ التساؤل في قلبي فأين ذهبت إذن ؟ أدهشها برودى وتعجبا من قلة حماسى ، بل استفز هذا الهدوء والبرود غضب ست وديعة ، فعلا صوتها يحذرنى من أكون قد أخفيت أو سوف أخفى ما قد أعلمه من أمور ماري ، فإن خطيبتها رؤوف يقرب الدنيا بحثاً عنها منذ طلعة النهار ومسدسه مفتوح في يده .. وأول الشك له في غريمه السابق

الذى هو أنت ، فخذ الحرص لنفسك منه وأبلغنى بأى شىء تعرفه
أو قد تعرفه .. بل ساعدنا فى سرعة إيجادها ، فهو مجنون وابن أكابر
عرب الفيوم .. صحت فيها زاعقا بأن لا شأن لى ، وأننى لا أخاف
رؤوف هذا ولا أعظم منه .. تراجعنا من أمامى مهرولتين نحو الباب
فقد كانت غضبى عنيفة وضارية .. وعندما أغلق الباب ، تحرك
« زيتون » من خلفها وأكمل الغلق بالترباس .. ثم نظر نحوى
بحنان ، ورجانى أن آخذ الحرص على حياقى من هذا العاشق
المجنون ، بل أحسن أن أبلغ البوليس فالمسدسات فى اليد تقتل طبعاً !
مسدس ؟ قتل ؟ .. يا إلهى ، هل لم تنته معركة مارى ؟!

« جنون القمر »

استيقظت في الصباح على طرق الباب ، ووجه مدام موريس بعكازها ، ثم اغلقها الباب بهدوء ، ودعوتى أن أجلس بجوارها على الكتبة الأستديو !.. نهضت سريعا فقد - كان صوتها ودودا طيبا غريبا ! .. فتحت لى كف يدها تبرز الجنيهات الثلاثة التى دفعتها إيجاراً لغرفتي هذه .. وصارحتنى فورا فيحسن أن أبحث عن أى بنسيون ، بل أحسن أن أكون الليلة في مكان آخر غير القاهرة كلها ! « زيتون السفرجى » حكى لها ما حدث ليلة أمس عندما كانت نائمة .. المرأتان المولولتان ، والفتاة الهاربة ، والضابط الفيومى والمسندس المفتوح فى يده ! .. رددت مطلبها ونظراتها نحوى عاطفية ومشفقة كمن تتصورنى قتيلا أمامها .. كان النوم مازال يرفرف فى عيني فلم أعرف ماذا أرد عليها إلا أن أخلق فيها ساكناً مستغربا وقد تملكنى الحياء من عملية الطرد الصريحة تلك .. وفى نبرة عطوفة يا شدة ما تهزمنى فورا فأتهاوى ، فأنا فى حرمان شاسع وهائل من الأمومة والأبوة والأخوة والعائلية منذ توغلت مقتنحا هذه الأدغال الوحشية لتلك القاهرة .. تهاويت أمام الأم موريس .. صارحتها بأننى لم أنم حقا طيلة الليل ، إلا قبل دقائق من دخولها .. هناك أشياء حائرة وعويصة

كثيرة في حياتي يا أم موريس .. تقلقني وتورقني وتقض مضجعي حقا ولكن واقه العظيم وأقسم لك ليس منها حكاية هذا الضابط الفيومي بمسدسه المفتوح !.. حكيت لها .. حكيت ما قدرت عن ماري ، وعن أمها ، وخالتها ، وأخوتها ، وبنت عمتها ، وكل هذه القبيلة التي مرقت من أسرها فجأة منذ ليلة واحدة فقط .. صدقي يا أم موريس . ومنذ ليلة واحدة فقط انتقلت إلى أسر أكبر لا أعرف كيف أصفه وأفسره لك .. صراع أهم وأكبر وأخطر عن المستقبل والمصير والحياة ! قاطعتني فلم تفهم أى شيء مما قلت إلا أن حياتي تلك التي أتكلم عن مستقبلها ومصيرها مهددة بالتوقف الآن في أى لحظة بمسدس مفتوح !.. أنصت إلى نصائحها راضخا ساكتا راضيا ، والواقع أنني وقبل أن أنام - كنت قد حسمت تفكيرى على قرار - هو العودة السريعة إلى قمر جنيفة في ليالى صحراء السويس ! .. قمر جنيفة وعندى له مفاجأة مناجاة .. لهفة نشوة ومناجاة .. هذا الحلم القديم الطويل السارى منذ الصبا والذي قفز فجأة ليفتح بابه على المصراعين !

.....

.....

أنا في « جنيفة السويس » وقد مضت الآن تسعة أسابيع - ومن بعيد ، من عند قمر جنيفة ، هذا أنا أحرك لعبة عرائسى الرائجة النشوانة ، والى اسمها « القصصية مى الصغيرة » ! .. كبر حجمها وسرى صيتها ، ويأتيني طينيتها المسترسل على جناح البريد من قاهرني الطبقية المتكبرة المحتكرة !.. « آخر ساعة » نشرت ، للكاتبية مى الصغيرة قصتها الثانية والثالثة والرابعة ، وكل ما أرسله لها من هناء .. بل أنها أخذت تتسلل به إلى الصفحات الهامة وتنبه عن عطرها الفواح في أرجاء كل عدد !.. مجلة « كلام الناس » ويا شدة ما تكهرت

نظرائى عندما قرأت برواز المقدمة بتوقيع « رئيس تحريرها مأمون الشناوى » وهو ينشر أول قصة عنده ويقول : « سواء كانت هذه القصة بقلم فتاة أو امرأة أو رجل أو أى سنكوح فهو أسلوب كتابة جديد يستوقف النظر ويستحق النشر ! .. « مجلة الاثنين » - كبرى مجلات دار الهلال ، والتي قفز بها « مصطفى وعلى أمين » إلى أكبر توزيع - ها هى فى الصفحة الوسطى ، أهم منطقة فى المجلات .. « قلم مى الصغيرة يقتحم المعركة ضد أعداء المرأة الثلاثة توفيق الحكيم ، وتيمور ، وعلى أمين » .. مقال العدد الهام وأسلوب الأثنى العصرى الشهى يسيل اللعاب على صفحتين ، وكلمة أستاذة - كتقايلد دار الهلال - تسبق اسم « مى الصغيرة » !

هكذا أعيش مع قمر جنيفة فى حالة جنون .. هذيان وجنون .. استلمتى الرعشة المتواصلة من حمى القمر حتى ولو كان محاقا فى جوف الظلام .. حمى القمر أو جنون القمر - تعبير ريفى من قريتي لا أنساه منذ وأنا صبي حالم نائم على سطح البيت أحلق شرها فى اكتمال البدر .. نهتق أسمى عن ذلك التحديق وإلا غطست فى بحره الفضى مع جنياته الساحرات فيممسسن عقلك وينفخن فى عينيك هواء الجنون !.. هذا أنا وقمر جنيفة فى حالة جنون .. أهيم معه وأحلق حواليه بل أسبح فى بحاره - ويا ملك الالهام أين تضعنى الآن من تلاميذك ومريدك ؟ .. هذا أنا أحوم فى فلكك ، مغامرا فى فلكك ، مركبتى من ورق نعم . ولكنها من نسيج شعاعاتك التى لا تبلى .. زيوتهما خدعة بيضاء .. نعم .. شريفة بيضاء نعم ، ولكنها تحاول احتواء المسافات البعيدة من رحلة العمر القصير .. ويوما ما سوف تهبط وتستقر وتهذب وتستغفر !

هكذا أنا وقمر جنيفة فى حملقات الجنون .. أرتب على سطحه قوافل الأساطير ، بل أحدها وأضع لها الأماكن والمواعيد .. وكل يوم لى

البريد الذى أوزعه من هنا - وفى تخطيط لا قاط حريص - على عديد الأجنحة الصحفية ! .. والمثير والملمب أن كل شيء أرسله بات ينشر فور وصوله .. خطى أن أكبح جراح نفسى وأتأسك فأستمر محتفيا متواريا سنتين بل ثلاث ، حتى ينضج الاسم فى عيون القراء فيطلبون من الطابع المزيدي ! .. ويا خبل خيالى حينما كانت تهيم بى المشاعر فى آفاقها السارحة فأتصور أن تلك الفتاة التى يكبر حجمها الآن ، التى أحس أنها باتت موجودة فعلا ، قد تنكرنى حينما يأتى الوقت الذى يتحتم أن تنسحب لأخذ مكانها !

.....

أشهر جنيقة الصاخبة العجيبة التى أقضيها تلك ، وإحساسى أنها « قلابة حفر » تجرف فى أعماقى وتبحث عن غائر المناجم والينابيع .. هذا المجتمع الذى أنا فى لفاقته ؟ .. الانجليز ذوو الصيت وأسياد الحضارة وملاك العالم ؟ .. ها هم معى والسلة واحدة ! ومنذ الصغر كان يقرصنى هذا الشعار الذى أطلقه « الشاعر الأوربى » كيلنج « فأصبح وثيقة كونية . الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .. يقرصنى ويستفزنى ويستحثنى فأرفع رأسى مستفسرا السماء ، بل غاضبا مستغربا فهل نحن غرب وشرق إلا بشر من نطفة أب واحد ؟

ها هم الانجليز عمارة هذا الغرب بل أقداده .. فرصة أن أراهم وأتأملهم وأعاشرهم بل أغوص فيهم .. ومنذ الصغر أيضا ، كان من أحلامى البائسة المستطيرة لو كان أبى باشا أو غنيا فيرسلنى لأتعلم فى مدارس بلاد الانجليز .. أجرب الرضاع من طاقاتهم القادرة تلك ، وأتغذى من هواء هذا التفوق الذى يخنلون به على هامات كل البشر .. حرياتهم التى يجدونها ويحتكرون امتيازاتها لأنفسهم ؟ .. ثروات عقولهم التى يتفاخرون بها فى الأدب والروايات والأفلام ؟ ..

يا شدة ما ألهبني هذا الأدب الإنجليزي والشعر الإنجليزي ، وأيضاً هذا الزهو الفرنسي والألماني والروسي والأسباني والإيطالي .. أدب يتعالى ويتعاطى مع نفسه فقط وكأنما العالم من خلف أوروبا مجاهل وأحراش ومستنقعات ! .. أوروبا تلك القارة الجليدية الصغيرة ، كيف هي سكببية الحضارة الآن ؟ . من فعل بها هذا ؟ هل لأنها زرعة الرجل الأبيض فقط ؟ .. ولماذا لم يكونوا هكذا حينما سطعت حضارة الرجل الأسمر هنا عندنا منذ خمسة آلاف عام ؟ .. هذا أنا وجهها لوجه أمام شريحة هامة من لحم وعقل وبيت المتحضرين الإنجليزي .. لندن كلها هنا .. همبشاير ، وبوركشير ، ومانشستر ، والوست آند ، والايست آند ، والبيكاديللي ، والهايبارك ، والباكنجهام ، لا مكياج ولا أقنعة ولا أغلفة .. أولاد لوردات وأولاد صعاليك .. النبلاء والسفلة والشذذ .. الطبيعويون والعقلاء والبلهاء .. وأنا في الشرفة عليهم أتفرج وأتملى وأقتبس وأتأمل وأفكر .. متغطرسون وعنصريون ومتعالون علينا طبعاً - ولكن يا شدة غيـرقي من مستواهم الراقى بين أنفسهم .. احترام الإنسان هو بعد الله إيمان وعبادة !

.....

ومنذ أيام كانت لى مباراة غوص أعماق مع صديقي الأستاذ الأكاديمي ابن اللوردات « ميجور كول » وهو جالس في خيمتي والقمر علينا مطل .. نتبادل الجرعات من زجاجة خبيثة النشوة طوحتنا فأنستنا الجنس واللون والعقائد .. قلت له أن بلاده مشهورة ومتيمة بتجارب تحضير الأرواح أو تقمص الأرواح وكلها بين أحياء وأموات ، فما رأيك عزيزي الأستاذ كول في التجربة بين أحياء وأحياء ؟ .. يعنى هل تصدقني إذا أفشيت لك سرى ، فأنا الآن ، والموجود في هذا المكان الآن ، متقمص ومربوط بروح ويجسد فتاة حية ! .. حقا فتاة حية وتتنفس .. هي الآن تحت جلدي وفي جوفي وتتربع على مملكة غرائزي

وأعماقي .. لا .. ليست « ماري الفجالة » لا .. بل ماري أخرى ،
أتلقيها من عصر بدء المساواة عندنا .. بنت العصر المصري الذي بدأ
يفض أسوار الهرمان والحريم ، واردة خلخال وبرقع أمها ، فيها هي
تلقيها في البحر .. بنت العصر المصري الذي آذن أن يستدعي نصف
طاقاته وأهم محاليقه من سخف الحبس بين المطابخ والمخادع ! .. فتاة
مشيرة جريئة ، متحررة خلافة ، مصرية لحما ودما ووثابة الطموح ..
العفة والكبرياء ، وعراقة المنبت هالة من حول خطاها .. الفتاة في
الثانية والعشرين عزيزي كول .. جامعية من الجيل المثقف الجديد ..
مندلعة الخيال وسابحة في أنهر ثقافات العالم ، ولها جاذبية أن تقتحم
محاسن الرجال وتدهش تحفظ الرجال ، سمراء وخلافة ومكرة وخفيفة
الوزن .. وعزيزي كول إذا طرقت الباب الآن على وجداني فسوف
تجيبك وتلبيك ! .. هذه الفتاة عزيزي كول ، وأنا الآن مغموس في
تقمصها ، غائص في تقمصها ، مصمم على تقمصها ، ممنوع الخطأ من
تقمصها ! .. وطبعاً أصارحك فذلك يجمدني ويهرقني ويجلد عقلي
وحواسي - فكما تعرف ليست لي إلا تجربة واحدة خاسرة من عالم
الأنثى والانات هي هذه الفتاة المنحلة « ماري الفجالة » ، فلم أع أى
شيء ولم أر أى شيء ولم أحفظ أى شيء ، أما الآن في التجربة من
تقمص فتاتي الجديدة ، فرهاني أن أدخل في فستانها وأكتفى ولا شيء
أكثر ! .. عدتي للتجربة هي أننا - نحن الرجل وهن المرأة - وعاء
واحد من لحم لا يختلف ، وما اختلاف بسيط العضويات إلا زى
المسيرة من مشوار هذه الحياة ! .. تراهني عزيزي كول عن عينة
النوع من هذا النقص ، فخذ أولاً منه هذا التباهي .. أحاول أن أحكي
لك ، فهذا أنت أول رجل يعرف سرى - عن تقمصى يوميات فتاة
تحلم وتنتبأ أن تكون عضوة برلمان في بلادها الأفريقية .. يوميات لها ،
وتحديد التاريخ بل تحديه ، بعد عشر سنوات فقط ولن تزيد .. أفكارها
وأحلامها وطموحها عن بلادها .. انظر والمجلة اسمها « الاتنين » ،

وتوزع ١٢٠ ألف نسخة أسبوعية ، والقصة بتوقيع فتاتي ، وعنوانها « يوميات عضوة برلمان » ! .. ثم خذ تلك الجسارة الخطرة من يوميات خاطئه حيلى .. نعم حيلى !.. يريدون اجهاض جنينها الذى بدأ يخفق به جوفها وهى ترفض وتصارع وتفشى دقيق التفاصيل من أسرار مشاعرها وغرائزها وتنفس أفكارها !

« كول » هز رأسه ذاهلا ومستغربا .. ورأيه أن الجلوس تحت قمر جنيفة مع أفريقى مطلسم مثلى ، فعلا يثير الجنون .. صحت فيه مصححا ، بل مصرى يا كول ولا تنس أن المصرى من سلالة قدماء برعاء ذوو حضارة مرعبة - كانت الروح لهفتهم بل لعبة حياتهم .

.....

فوجئت اليوم برسالة من مارى نزلت على رأسى كالصاعقة .. دوخنى ما جاء فيها وتتلج له دمى .. مكتوبة بخط ريكى ومتعثر ، وتطالبى بالحضور فورا فهناك أمور هامة وخطيرة قد حدثت بخصوص « موضوع مى الصغيرة » ، فقد اكتشفوا العنوان وجاءوا إلى شقة حبيب شلى ، وقد قالت لهم - من أجل خاطرى - أنها هى نعم مى الصغيرة .. ولكن بعد هذا حدثت أمور أخطر تستدعى سرعة تواجدى !

.....

هرولت من جنيفة عائداً إلى الفجالة فورا - وأنا فى رعب القلق - وهأنذا أنزل فى بنسيون كنتج فيليب ، وأول ما فعلت ، أصف لزيتون السفرجى شقة مارى وكتابة رسالة قصيرة لها بها رقم تليفون البنسيون ، فأنا فى انتظار مكالمة منها .

وقد عاد « زيتون » سريعا بعد أن أدى المهمة بطريقة مضحكة - فمازال مرتعبا من حكاية المسلس المفتوح .. رعى الرسالة من تحت عقب الباب ، ثم ضغط على الجرس ، وهزول نازلا على السلام قبل أن يراه أحد !

أنا جالس بجوار التليفون، - « وينسيون كنتج فيليب » كما هو ..
وقد قابلتني مفاجأة أول ما دخلت .. فتاة سودانية عذبة وجذابة الملامح
جدا ، غارقة برأسها بين صفحات « آخر ساعة » والمجلة مفتوحة على
آخر نشر لى الصغيرة .. التى عنوانها « جامعية وحسنا » .. خفق
قلبى فتوقفت أمامها أطل على عينيها ، أحاول أن أستشف التأثير
منها . وعندما أحست بنظرقى عليها أغلقت المجلة وهرعت بها لتختفى
فى حجرتها .. حجرتى سابقا !

« مدام موريس » ، رحبت بنزولى عندها .. فقد جئت لها بهدايا من
علب التومباك الإنجليزية الذى تحبه .. ولكنها اعتذرت عن حجرتى
القديمة ، فإنه ينزل بها الآن الضابط السودانى وابنته الطالبة
الجامعية .. هذه الفتاة الأبنوسية الفارحة إذن !

ولقد تعرفت سريعا على هذا الضابط عندما خرج مع ابنته من
الحجرة يطلبان دفتر التليفون الذى كان قريبا منى ، جلس بجوارى
بينما راحت ابنته تبحث فى الدفتر .. وعرفتق به مدام موريس فهو
« القائمقام سيف » ، وله عادة النزول عندها منذ سنوات ، وهذه هى
ابنته « سامية » .. « القائمقام سيف » مفرط الطول ، وله رأس ضئيل
يشبه القلقاسة ، ولكنه ضحوك ومرح ، وخفيف الظل ، وكل كلمة
يقولها يتبعها بضحكة يعقبها السعال المتواصل ! .. قال لى أنه فى فرقة
ميدانية قد تستغرق عدة أشهر ، وهمس بصارحنى كى لا تسمع ابنته ،
بأن أم البنين أرسلت هذا الحففر من ورائه رقاية وصيانة .. أما الرقابة
فأنت تعرف ، ولكن الصيانة فلأنه مشهور عنه بأنه لا يأتية النوم
إلا والسيجارة مشتعلة فى فمه ، فلا بد له من أحد ينزعها من بين شفتيه
قبل أن ينام وإلا أحرقت الفراش وأحرقت من على الفراش كما حدث
عدة مرات !

أبادلته الضحك وذهنى بعيد ، فالفتاة الأبنوسية كانت قد استلمت
التليفون تتكلم مع زميلة طالبة مثلها - وفوجئت بأنها تكلمها عن عدد

آخر ساعة الأخير ، ففيه قصة غريبة عن فارسة من كلية الآداب ،
ومحاضرة عن فلسفة ديكارت - وهذا لا يهم فيوسعها أن تكتب
بأحسن من تلك الكاتبة - المهم أن البطلة اسمها « سامية » ، يعنى
عن اسمها ، فربما هى المقصودة دون أن تدري !
قلبي يخفق بشدة ويحتاج انفعالا ، والفتاة تتوارى بسماعة التليفون
لتواصل الهمس والضحك مع زميلتها عن تلك القصة .. اختلس عليها
النظرات الشغوفة المعجبة فلأول مرة تطالع عيني فتاة سودانية لها نظرة
مثل هذا البهاء والجمال !

.....

دق التليفون بعد نصف ساعة تقريبا وكانت هى « روز » صغرى
البنات تبلغنى أن مارى مريضة وتلازم السرير فلن تقدر على الخروج
للقائى ، فيوسعى أن أحضر فى أى وقت لرؤيتها فلا توجد الآن موانع
من تلك الزيارة !
وقد ذهبت مسرعا لأجد الجميع فى انتظارى ، ومارى راقدة فى
السرير فعلا ، وفى وجهها كلمات وجروح وعلى رأسها لفافات
وضمادات .. تتأوه وتتوجع وعيناها تبرقان نحوى بالشوق واللهفة
والشهقة والدموع .. ماذا حدث ؟ .. حادثة أوتومبيل ؟ .. أمس
فقط ؟

ولكنها لم تكن حادثة أوتومبيل ، بل كانت خناقة ضارية جرت هنا
ليلة أمس مع خطيبها الأرعن السابق « رؤوف » ! .. تبكى أمامى
بكاء طفوليا حارقا يسترسل ويعلو صوتهما الناتج فيه .. هذا الرؤوف
الغليظ لا تحبه ولا تريده .. فما ذنبها أن يظل يحبها ويطاردها ؟!
لقد فسخت خطوبتها منه بعد ليلة الحرب .. هربت من غيرته
وفجأته وثقل دمه وسخافة طباعه .. وأمس تربص لها هنا على السلام
فى الظلام ، وتسلسل من خلفها ، ثم فاجأها بأن انهال عليها ضربا
جنونيا ، حتى خلصوها منه بصعوبة وهو يوشك أن يقتلها !

مارى تحكى وقلبي جليد لا يذوب ولا يتأثر ، بل أستعجل أن
تخلص من هذا السخف إلى الأخر الهام والمروع .. وتستمر
وتقول أنه بعد أن أفاق على نزيف الدم من جروحها ، ركع متوسلا
مستغفرا معتذرا ، يخط رأسه في بلاط الأرض ويطلب الصفح ..
وأسرع وأحضر الطبيب .. ثم حدث التراضى بأن أقسم أمامهم بقليل
الوعود والعهود بأنه لن يعود ويرى وجهه مرة أخرى .. فقط عليهم
قبلها أن يسامحوه ، ومن أجل أن يسامحوه - وبطريقة عرب الفيوم -
فقد أفرغ جيوبه أمامهم من كل شيء له ثمن .. الساعة الذهبية ،
والسلسلة الماسية ، والخاتم الكتلة ، والمحفظة بجنيهاها الثلاثين !

.....

انصت إلى عذابات ماري بوجه جامد وقلب بارد ، وبأشدة
اشمئزازي بل قبلها بأشدة قشعريرتي المألوع وأنا أسمع ما أسمع ..
رؤوف المسكين هذا كان يمكن أن أكون أنا ، بل هو أنا فعلا ، ولقد
كنت هكذا فعلا !

مارى بعد أن انتهت من مأساة نفسها تشير بنظراتها نحو أمها
وأخوتها أن يتركونا وحدنا ! .. ولقد تعجبت من سرعة طاعتها لها ،
والظاهر كن على اتفاق ، فواضح أن هذه الفتاة قد أصبحت سيدة
البيت وهى التى باتت تعوله وتقود زمامه .. خرجن ، وطلبت منى أن
أوارب الباب ، ثم دعتى ببريق عينها أن أجلس على طرف السرير
بحوارها .. أمسكت يدي بيدها المرتعشة الحارة ، ثم شدتني إلى وجهها
الذى تفوح منه صيغة اليود ، وعلى شفثيها شوق العناق ! .. لا ..
لا يا ماري . ليس الآن ، فأنت مريضة وأنا مزكوم ، ثم فى البيت هنا
فهذا لا يليق !

اكفهر وجهها واتقد بالغضب والخرج برهة ، ولكنها عادت تلين

وتبلغنى أحداثها السارة .. نعم سارة .. مى الصغيرة بدأت تكسب
الفلوس .

.....

و ذات يوم منذ عشرة أيام تقريبا ، فوجئت بخالتها مدام آدمة
ترسل لها أن تحضر فوراً فهناك الضيوف الكبار اللذين حضروا
ويستفسرون عنها .. وعندما ذهبت فوجئت بالصحفى الكبير
« الشناوى » ، والكاتب عضو البرلمان « أحمد الألفى عطية » ،
والمشهور الآخر فى الصحافة واسمه « صلاح » - ورغبتهم الالتقاء
بالكاتبة الزميلة مى الصغيرة ، فلديهم لها أولاً شيك صغير لحاملته ، عن
أجور ما نشر فى « آخر ساعة » ، ثم هناك خطابات يريد ودعوات
لها .

وتقول مارى أنها ارتبكت برهة ، ثم انطلقت تودى أمامهم ببراعة
دور مى الصغيرة .. بل أنها لكى تقنعهم أكثر ، رضيت أن تسهر معهم
عندما دعوها إلى الملهى الفاخر الأوبرج .. ولكى تجارهم وتقنعهم أكثر
وأكثر فقد لبست دعوتهم فيها تلا ذلك من ليال .. بل اشتد اندماجها
وإياهم - وخصوصا بعد أن أقنعوها بأن « التابعى » وبمجرد حضوره
من السفر سوف يصدر قراراً بتعيينها ، ويخلى لها أحلى الغرفات ،
بتليفون أبيض ، وسكرتيرة خاصة لتكون أجمل وأشهى جاسوسة
صحفية فى كل بلاط صاحبة الجلالة ..

قلبى يسقط فى جوفى وأنا أسمع كل تلك النكبات والكوارث ..
أستدرجها مستريدا وأنا أتلقى ألما وعذابا .. غرامياتها المنطلقة مع
الكازانوفا الألفى عطية ، وكل ورقة من محفظته للجرسونات من صنف
ورقة المائة أو ورقة الخمسين .. كرماء ما أروعهم ، وما أخف دمهم ،
وما أبهر مناظرهم .. كلهم كرماء وكبراء وقد تغزلوا فيها شعرا ونثرا ،
وأغدقوا عليها الثناء واطروا المواهب .. أجاهد أن أقاسك لأظل
أسمع .. وحتى جاءت الليلة التى سكرت وأفرطت فيها فاعترفت .. لم

يكن هناك المفر .. لا .. لا تخف فقد تكلمت على اسمك كما أوصيت ،
ولم أعطهم أى شبهة أن الذى يكتب رجل .. قلت لهم أنها ابنة عمى
« انطوانيت » المسافرة فى السويس .. قالوا لى - وحتى تظهر بنت
عمتك انطوانيت فلا مؤاخذه لن ننشر لها حتى تحضر قصصها بنفسها
إلى دار المجلة .. أكدوا أنهم لن ينشروا إلا إذا ظهرت انطوانيت . لم
يكن أمامى غير تلك الحيلة والآن بعد أن عدت ، تعال وارفع هذا
التعب عنى فكل هذا من أجل خاطرك .. وخذ هذا البريد الذى
سلموه لى .. ومطلبى الآن .. وبدأت تلف ذراعها حول عنقى - فلماذا
لا تعلمنى يا حبيبى كى أكون لك دائما مى الصغيرة !

تهللت براسى صامتا لا أتكلم .. أشعر أننى قشر ثلج يتهشم
ويذوب .. حلمى السارى الناصع يتعكر بل يتبدد .. وقفت مستأذنا
بلا كلام .. لم أعلق ولم أتكلم ، فقد كنت محتثقا وفى يجرى المراتة
والكآبة .. قلت لمن يجب أن أذهب إلى مهمة عاجلة وسوف أعود بعد
ساعة . الست وديعة متحمسة لقضاء كل اليوم معهم ، فمن أجل
صنعوا ورقة لحم فى الفرن ، وهات لنا معك وأنت عائد ، الفياسكا
والكوتشينة ولنحتفل بتصافينا وعودة الحياة إلى مجارىنا ..

.....

خرجت ..

بريد مى الصغيرة فى جيبى كأنه جنتها المقتولة .. شارع الفجالة
أمامى - والدنيا ضحى - سواد رهيب كالحج .. أترنح ذاهل المخطى
نحو بنسيون كنج فيليب .. أصعد السلام أفتح الباب ليواجهنى ..
منظرا لم أتوقمه أبدا .. الضابط السودانى سيف ، والفتاة الانبوسية
« سامية » ثم مفاجأة وجود هذا العريض الطويل لابس القربان
يوزباشى « رؤوف » .. بقايا مارى .. يقف أمامى فى تحفز متوتر
وغريب !

« نحن بشر » _____

« رؤوف » ضابط الفرسان - وكانت المفاجأة لى أنه استأجر غرفة فى « بنسيون كنج فيليب » ومنذ اليوم أصبح نزىلا فيه !
 أول مرة أراه أو يراى .. وقد عرفته من صورته - ويا غرابة ما تنهشم الملامح الوسيمة الشاعخة تحت ضربات العشق الخاسر المحروم ! .. غريمى فى حب « مارى » ! .. حامل المسدس المفتوح ؟ .. فهل لم تعرف ذلك « مدام موريس » صاحبة البنسيون ؟
 فوجئت طبعاً ودارت بى الأفكار ، فهل جاء يطاردنى ؟ .. كان وجهه شاحبا باهتا وملاحه ممسوحة .. قدمه لى « القائمقام السودانى سيف » وهو يشد ذراعى لأجالسهم ، فقد كانت أمامهم أكواب بيرة وأطباق حمص وفول سودانى .. والفتاة الأبنوسية « سامية » - ابنة سيف - منزوية عنها ووجهها كالعادة غارق بين دفتى كتاب ضخمة ..
 اعتذرت فى ارتباك ، وقلت أنى جئت لآخذ شيئا من غرفتى ومضطر أن أخرج حالا .. بادلته النظرات ، وأدهشنى أنه يبدو كمن لا يعرفنى
 فهل هذا معقول !!

دخلت غرفتى وأغلقت الباب ، ولم يكن هناك شىء لآخذه أو أفعله .. محتق الآن ودوار رأسى - وأبدا لن تغلب عليها محنة

جديدة - هى هذا القطع الصاعق المنقض فجأة لأقع من شاهق
الأحلام ! .. هذا الفرق المؤثر السريع للبريئة الحلوة المتفتحة واسعة
الآمال - « مى الصغيره » !

.....

أخرجت من جيوبى هذا البريد .. خطابات كثيرة على عنوانها فى
« آخر ساعة » ، ومعظمها تبدأ بالكتابة الكبيرة ، والأستاذة ،
والنايفة ، والجريئة والثائرة .. رسائل غرام ، وغزل ، وإعجاب ،
وافتان ، ومراهقة ، ومعاكسة ! .. وأيضاً احتجاج وتأنيب على هذا
الأدب السافر الذى لا يليق بتوقيع فتاة أو امرأة .. ثم دعوات لإلقاء
محاضرات ، والاشتراك فى ندوات ، وجميعيات خيرية ونسائية تسأل عن
عنوانها ! .. ورسالة متحمسة طريفة أيضاً بتوقيع « فاطمة عزت
موسى » رئيسة الحزب النسائى ، تدعوها للانضمام فوراً إلى
قافلتهم ! .. يا إلهى ، لمن بات هذا البريد ومن يرد عليه الآن ؟
أنظر زائغ العينين إلى هذه الأوراق الطريجة أمامى فلا أرى فيها
إلا ورقة امتحان تعلوها دائرة حمراء وفيها صفر من عشرة ! .. سقوط
فاحش ، بل سقوط مخجل فى أول حصّة من الامتحان البائس الذى
خططت ودققت له ، ورسمت بل هيأت له أن يستمر سنة بل ثلاثاً !..
أنا مشبع به وليس لى تنفس الآن سواء ، ولست أدرى بدونه كيف
سوف أقدر أن أعيش غداً وبعد غد !

هذا الانكشاف السيئ المباغت ! .. المنظر البشع الجهول
للمستهتره « مارى » ! .. وهى تسكر ، وتسهر ، وتتبدل ، وتتطوح مع
اللهاء الساخرين ! فحول الجائمين على بلاط صاحبة الجلالة !..
شعورى بالغضب والنفور والاشمئزاز ، بل بالذل والمهانة والندم ،
وكأننى كنت من خلفها قواداً يقدمها لهم ! .. خجل وانكسار وفشل
وسقوط ! .. سقوط وله أذيال ملحق .. ملحق منحة من أكاذيب

مارى .. ابنة عمها المسافرة فى السويس واسمها « انطوانيت » - هى
مى الصغيرة ؟ .. هى التى تكتب ؟ .. لن يعودوا وينشروا الا عندما
تظهر انطوانيت هذه وتحمل لهم كتاباتها بنفسها ؟ . أين انطوانيت
هذه ، وكيف أجدها ، بل كيف أقدر أن أولفها ، وهل يمكن لجبائرة
آخر ساعة الأذكياء المتمرسين أن يعودوا ويصدقوا ادعاءات
جديدة ؟! .. الأفكار والخيالات والمقترحات تطحننى ، فماذا لو قمت
الآن وذهبت أقدم نفسى اليهم ، فهذا أنا هو يا سادة الكاتبة
مى الصغيرة ! .. ريفى جلف يتعثر فى أذيال منظره الخائى ! . كم
سوف أصبح بينهم مسخا وأضحكة .. أنا أعرف ضراوة هؤلاء الناس
فى سخرياتهم !

.....

قمت واقفا فلم أعد أطيق الجلوس .. ويجب أن أخرج كما قلت
لهم ، فىلأ أين الخروج ؟ .. « مارى » ولحمة الفرن تنتظرنى ،
والفياسكا والكوتشينية ، فهل أذهب لاستزيد من جرعات العلقم
مما فعلت وفعل هؤلاء الناس ؟ .. هذه الفتاة مازالت تنصور أن
بوسمها أن تتزوجنى ؟ .. بل أن هذا الالتحام الأخير لها مع الأحداث
- وتصورها طبعاً أنها البطلة الحقيقية فى كل الأمور - قد أنعش آمالها
فى أن أرتبط بها مدى الحياة .. حبال مى الصغيرة تمسكها فى يدها
وتربطنى بها .. نعم ، تنبهت وأرعبنى أن أى اقتراح الآن للملحق عاجل
يمكن أن ينفذ مشروع مى الصغيرة لا مفر أن تكون وسيلته مارى ! ..
نعم لا فرار منها إلا اذا ألغيت المشروع كله فكيف أقدر ، فهل ألقى
حياتى ؟

ملحق عاجل مثل ماذا ؟ .. « انطوانيت » هذه التى رمتها أكذوبة
بل عقدة وحى أعود وأحلها ؟ .. أحلها كيف ؟ .. نعم أن لها ابنة عمه
اسمها انطوانيت .. رأيته عدة مرات .. تقرأ وتكتب ، فقد نالت

شهادة الكفاءة بالعربي .. ولكنها جوفاء وفارغة وبلاء .. وشامية غليظة وبلا قومية وتكره مصر ، وحلمها أن يتزوجها أى صعلوك انجليزى أو أمريكانى ويأخذها معه إلى بلاده .. لا . مستحيل فلن تنفع طبعا ، ثم ماذا كانت تقصد مارى حينما قالت تعال وعلمنى كيف أكون لك مى الصغيرة ؟!

هل تقصد أن بوسع مواهبها أن تصحح الأكلوبة للأباطرة إذا عدت ولقنتها الدرس بإجادة ؟ .. آخذ من تشيى وأكس فيها مثلا ؟ .. وإذا فعلت كيف أقدر أن أمسح تلك اللطخة البشعة التى وقعت وانتهى الأمر على الثوب الناصع ؟

أنا فى حالة دوار وتخبط وهذيان ويجب أن أخرج ، فهل أذهب إلى السينما .. أذهب إلى « نجيب » فى مصر الجديدة ؟ .. أذهب ، فإلى أين ؟ .. ثم هذا الطاووس المنتوف الريش بمنقاره المزعج المخيف « رؤوف » ؟ .. يقلقنى ظهوره المريب هنا طبعا ، ثم هذا الغموض من نظراته - حتى لو لم يكن يعرف أننى هو غريمه فلا بد سوف يعرف .. ثم لماذا جاء ينزل هنا على بعد خطوات من مارى - وله كما أعلم شقة فى « منيل الروضة » يعيش فيها مع أمه وأخيه وأخته ، غير قصر الغيوم ؟ .. هل لديه خطة ؟ .. يقتلنى مثلا ؟ .. لماذا هذا الأهل ، فهل يحل القتل شيئا من أمور الحب ؟

خرجت من الغرفة وجدت المنظر كما هو .. أوقفنى القائمقام سيف مصما قبل أن أخرج أن أسمع منه نكتة سودانية .. رؤوف جالس ونظراته الثملة الزائغة مرفوعة نحو وجهى ! .. ينكش شعره ، وينفخ صدره ، ثم يجرع كوب البيرة الممتلئ فى جرعة واحدة وبطريقة جشعة ، ويهبط به فى عنف على المائدة فيتحطم وتتناثر شظاياها ! .. وبينما يساعد سيف وابنته فى جمع الحطام ، دق التليفون .. يظهر « زيتون السفرجى » ليرفع السماعه ، ثم علا صوته نحوى ينادينى -

مدموازيل مارى تطلبك ! .. اشرأب عنق رؤوف وكأنما مسته كهرباء ،
وفى حركة عصبية راح يحرك رقبتة ما بين منظرى ومنظر زيتون وهو
يحمل سماعة التليفون ! .. أشرت لزيتون ضجرا أن يقول لها أننى غير
موجود ، أو أحسن أن يقول لها لقد سافر فجأة ! .. قلت هذا ثم
اتجهت مسرعا إلى باب الخروج !

.....

أدخل البنسيون والوقت بعد نصف الليل ! .. المكان هاجع ، ولبة
زرقاء ذاوية فى ركن الردهة ، ولا توجد إلا غرفة واحدة يظهر منها
الضوء من خلال زجاج الباب المغلق - هى غرفة « رؤوف » ! ..
سرت البرودة فى عروقى فتوقفت برهة أدير نظراتى فى الظلام
وأتصنت ! .. أحسست أو تخيلت أن أكرة باب رؤوف تستدير فى ببطء
على يدهم أن تفتح الباب ! .. تعجلت بخطواتى نحو غرفتى ، ودخلت
وأغلقت الباب .. ثم عدت وأغلقتة بالمفتاح ! .. هل أنا خائف ؟ ..
لا فلست أعرف الخوف حتى ولو فى مجابهة خطر الموت ! .. ولكن ماذا
لو معه مسدس حقا ويأخذنى غيلة ؟ .. بماذا أدافع عن نفسى ؟ ..
أحاول أن أقنع عقلى أن مشاعرى عاتمة فى بحور روائية مسرفة -
يا شدة احتياجى الآن أن أغوص فى النوم !

خلعت ثيابى وأطفأت النور وتمددت على السرير طريحا مكدودا !
يا إلهى كيف قضيت نهارا قاحلا لافحا ! .. بدأته بأن اشتريت
زجاجة الكيانتينى مع قراطيس من الفواكهة والهدايا ، ورسالة اعتذار
لمارى وأمها ست وديعة بأننى أواجه مشاغل حمة وسوف أمر عليهم
غدا ! .. مشاغل حمة ؟ .. من سينما إلى سينما ، ومن مقهى إلى مقهى ،
ومن شارع إلى شارع ، أتسكع زانغ العينين ، متعثر الخطوات ! ..
حمت من حول مبنى آخر ساعة ! .. غدا سوف يظهر العدد الجديد ،
فهل أصعد لأسأل متوسلا هل فيه قصة جديدة لمى الصغيرة ! .. عيى

غاصة بالدموع .. تمشيت أمام يافطة « كلام الناس » في آخر شارع
المبتديان ! .. توقفت طويلا أمام هذا البناء الرهيب الذى بناه الانجليز
« لدار الهلال » .. هل أطمع يوما في حجرة من عديد طوابقه ؟ ..
توقفت أحلم أمام « المصرى » فى قصر العيني ! .. تسكنت حول
« البلاغ » ، و « كوكب الشرق » و « صوت الأمة » فى المنيرة ! ..
تمشيت وتمهلت أمام « الأهرام » فى باب اللوق .. الأهرام وصالونه
الشهير كل ليلة ! .. ثم « بار اللواء » ونجوم المجالسين ..
« البشرى » و « محبوب ثابت » و « امام العبد » ، و « زهير
صبرى » ! .. « توفيق الحكيم » بالبيرييه والعصاة جالس على الناصية
لمقهى « الريتز » تحت الأيموبيليا .. ها هو ومعه « مدحت
عاصم » ! .. مشيت ومشيت .. ركبت المترو إلى مصر الجديدة فلم أجد
« نجيب » ! .. عدت أتشرد وأضيع فى الوقت حتى يظهر العدد الجديد
من « آخر ساعة » .. إنه يظهر فى محطة باب الحديد قبل يوم من
توزيعه فى السوق .. « نسخ الأقاليم » ! .. لديهم ثلاث قصص
أرسلتها مرة واحدة ! .. أنا يائس بعد الذى حدث أن ينشروا أى
شئ .. ولكن بقية من أمل ، تهافت الأمل يا رباہ ! .. اشتريت العدد
ويدى ترتعش وبى رهبة أن أفتحه .. « كاريكاتير » صاروخان .
الصاحب الملون على الغلاف ، وزعماء مصر الباشوات وأصحاب المقام
الرفيع يرتدون ثياب الشحاتين ووقفتهم أمام سور السفارة
البريطانية - وادونا وزارة لله يا أسيادنا !! .. وكما توقعت تماما لم تكن
القصة منشورة ! .. مى الصغيرة غير موجودة ، ولا رائحة لها ولا كلام
عنها !

.....

ها أنا مستلق محمق فى الظلام ، تأخذنى القشعريرة من تحيل ديبب
خطوات فى الردهة .. إنها ليست خيالا .. فالخطوات مسموعة فعلا ،

فهل هو رؤوف بمسدسه المفتوح ؟ .. أحس أن أكرة الباب عندى تتحرك ، وأن يدا ما تحاول معها ! .. قمت متوترا واجفا ، ولكن لم أليث أن تراجع ، فربما كلها تصورات بفعل الأوهام !

أحاول عيئا أن أنام ، كيف أنام ؟ .. اشعلت الضوء وعدت أستعرض عدد آخر ساعة .. عدد التشيع من جنازة مى الصغيرة .. ما أقسى هؤلاء الناس .. ما أغلظ قلوبهم وما أفحش تسلطهم ! .. عيناى زانفتان ولا تصلحان للقراءة .. أحاول أن أنام ، وأكاد أغفو ، ولكننى أعود وأسمع تحركا واضحا فى الردهة هذه المرة .. تحركا يحوم حول بابى ! .. أقوم متمردا نافد الصبر والغضب يأخذنى وأحسن أن أجابه هذا المعتوه .. لن يخيفنى رؤوف هذا وحتى لو كان فى يده مدفع !

فتحت الباب فى ضجة .. فتحت على المصراعين .. لم أجد أحدا .. تحركت أبحث عن « زيتون » حتى وجدته مستغرقا فى النوم ، وعيئا أحاول إيقاظه .. عدت أتمشى فى الردهة ونظراتى على غرفة رؤوف المضاءة والباب الموارب المفتوح .. اقتربت منها فقد اجتذبتنى فيها أصوات غريبة تصدر منها .. أصوات تشبه الأنين .. أنين يزوم محتثقا وفيه كركرة تنفس ذبيحة !

فتحت الباب ويا هول ما رأيت .. « رؤوف » منظرها على السرير بشيا به ، وذراعه متهذلا ، وقناة من الدم جارية من عروقه المقطوعة تنزف على بلاط الغرفة .. يا إلهى إنه ينتحر !؟ .. صحت بعلو صوتى .. أيقظت البنسيون كله .. هرول الجميع فى دعر .. بحثنا عن أربطة توقف النزيف .. الفتاة السودانية « سامية » هى التى بادرت سريعا فأحضرت الشاش وقامت بالربط حول القطع .. بحثنا عن طبيب فى العمارة .. طلبنا الاسعاف وبقيت واقفا بجواره حانيا متأثرا يكوينى الألم .. وعيناه المنطففتان ترفرفان على منظرى ومنظر سامية فى استسلام طفولى يائس وذليل !

.....

مازلت في « بنسيون كننج فيليب » .. وقد مضت الآن خمسة أشهر منذ انقطع حلم مى الصغيرة وانطفأ بريقه الخاطف ! .. توقفت « آخر ساعة » عن النشر ، و « مجلة الاثنين » أيضاً - وكأنها كانتا على اتفاق لسحق لعبي البراقة الصغيرة وتبديد لمعتها التي سطعت وبشدة على مدى عدة أسابيع !.. توقف الجميع عن النشر ، فقد ذاعت السخرية وامتدت السيرة في الأروقة الصحفية عن الشريحة الشامية البيضاء الشقراء « مى » والتي تحيد الكتابة بساقيها .. نعم راجت النكت الذنبية الناهشة من الألسنة الماجنة .. وبقيت مجلة واحدة فقط تنشر لها ، بل وضع لى أنها تنشبت بالنشر لها فقد باتت « قصص مى الصغيرة » هى أروج مادة فى إعدادها !.. مجلة واحدة هى « كلام الناس » ، ولكنها فى حالة لفظ انقاس أخيرة ! .. فالمجلات الجديدة والتي يحاولها مصريون وطيون كانت تموت بأسرع مما تولد ، فى الخنق الأريب من السوق المسيطر لصحافة الشوام واليهود .. ماتت كلام الناس سريعاً مثل سواها ، وهذا انطفأ آخر بريق من زبالة الأمل !

.....

تلك الأشهر الخمسة وما حدث فيها .. فقد سئمت أن أعود إلى العمل فى « جنيقة » ! .. يشئت من جدوى أى عمل ، فأنا لا أصلح إلا للكتابة .. وبالذات الآن تحت توقيع مى الصغيرة .. فقد كان تربصى وتفرغ طاقتى كلها أن أعود وأستعيد المسيرة بأية وسيلة وأية تضحية .. أنا مكسد ومشيع بها بل مربوط بها .. تسرى فى عروقى وتحتل كيافى وتملأ عقلى وحواسى .. ويا للفرع حينها حاولت ذات مرة أن أتمرد على توقيعها وشخصيتها ، كيف تلجم قلمى وانكسر فاشلا وذليلا ، فقد تبينت أننى من دونها معدم الأفكار والأسلوب تماما ، بل فى حالة خواء ! .. معى بعض الأموال التى يمكن أن تعولنى عدة أشهر .. وقد كتبت رسالة اعتذار إلى صديقى « الميجور كول » أبلغه أننى

سئمت جنيفة بل سئمت الحياة ! .. وحكيت له عن صدمتي القاسية من
توقف النشر ، ثم رجوته لو يكلف أحدًا أن يحضر لى حاجياتى الباقية
فى خيمة جنيفة ! .. تذكرت المجنونة « بياتريس » خريجة الملجأ
الوحيد الحائرة ، فكُتبت لها أيضا !

.....

علاقتي ببارى كل تلك الأشهر - ومع الحرمان الطارئ من الفقيدة
مى الصغيرة - عادت جذوة الحمى التى كانت خادمة تتحرك وتتقد
باللهفة على البقية الحية فيها ! .. توهمت هذا وارتعت على نفسى ،
فلم يعد لى من عمل كل يوم إلا أن أذهب وأقضى معظم الوقت
بجوارها ، ملطوعا بجوارها .. وقت فارغ ردى مضجر ، لم يكن
يكسب نفسى إلا الانحطاط والانحدار !

ورويدا رويدا يئست الفتاة من تشقى ووجومى ، وبدأت تدرك
بحس أعماقها أن حبى الأكبر وعشقى المقيم هو مى الكاتبة والخيال ،
لا مى الجسد والتحسس ! .. تحولت جلساتي معها إلى مجرد عواء
ذكريات .. نحيب ذكريات .. لفظ أنفاس ذكريات .. أذهب معها إلى
السينما وإلى الباتيناج وإلى المراقص وإلى الحفلات .. أو غشى ونظّل
نمشى حتى ولو بلا كلام .. وباتت لها خلوات بنفسها لا أعرف
أسرارها ! .. لم يعد يهم أن أعرف أسرارها فقد عجزت عن الصرف
عليها بعد أن تبخرت كل نقودي فى أقل من ثلاثة أسابيع !

وبدأت أذعر من جائحة الاملاق التى أوشكت أن تقترب منى ..
كتبت رسالة « إلى محمود كامل المحامى » أطلب الحاقى بأى وظيفة
فى مجلته الرائجة - « العشر قصص » - والتى من رواجها أصبحت
تصدر فى الأسبوع الواحد ثلاث مرات .. ولكنه لم يرد !
ذهبت وطرقت على باب منزل « سلامة موسى » فى الفجالة ..
أعرفه ولى جولة قديمة معه أيام كنت تلميذا فى « دمنهور » .. كتبت له

رسالة طويلة ذات مرة عن أننى معجب « بالمجلة الجديدة » وكيف تلهب خيالى وتحرك خلايا عقلى .. ودهشت بل ارتج من تحت زلزال النشوة عندما رد على برسالة شخصية ، يقول فيها أنه أحس بصدق مشاعرى وقد أعجبته أفكارى وجدة أسلوبى ، ويدعونى أن أمر عليه عندما أزور القاهرة فى أى وقت فقد أصبحت صديقه ! .. تلك الرسالة من سلامة موسى يومها يا إلهى وما فعلت بى ! .. وذات يوم بعدها اكتشفت أن « صديقى سلامة موسى » واسمه مكتوب كرئيس تحرير على « جريدة مصر اليومية » ! .. قبطية ووطنية ، وكانت فى ذاك الوقت كاسدة ولا تقرأ إلا من قلة من الأقباط ، وأصحابها « أسرة المنقبادى » ومنذ سنوات كانت شعلة شعبية ووطنية تضىء الطريق مع « الزعيم زغلول » ، حينما كانت شعارا صادقا لالتحام الوحدة الوطنية ! .. أقول ، قرأت وأنا فى دمنهور أن سلامة موسى قد أصبح رئيسا لتحريرها - وفى تلك الفترة كان الزعيم القبطى الوفدى الشهير مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد قد أصبح هدفا للمعارضة عندما انشق بعض كبار أقطابه عن الحزب ، وحدث الشرخ الخطير فى الالتحام الوطنى مع حزب الأغلبية ، وانطلق الصراع فترامت على الجماهير سموم التعصب ، واندلع الشعب السياسى الخبيث ينقل حرائقه من الوطنية إلى الأديان .. كتبت مقالا وجدانيا خارجا من أعماق النفس أدعو فيه لعودة الوثام والالتحام بين طائفتى الأمة تحت عنوان « الدين لله والوطن للجميع » .. أرسلته لسلامة موسى ، وفوجئت بعد يومين فقط أنه منشور فى الصفحة الأولى يتصدره اسمى « المسلم » الذى فيه محمود وأحمد بالبنط الكبير ! .. كنت مازلت فى السابعة عشرة .. ألهبنى هذا النشر فاسرعت بمقال آخر ، وآخر ، حتى أكملت « ٤٠ مقالا » كلها وجدانيات وطنية وبالوقائع التاريخية عن تلاحم المسلمين والاقباط على مدى العصور فى الكفاح الوطنى .. مقالات تهاجم التعصب المقيت وتدعو للتسامح ، فكلنا مصريون أولا ، وبعدها كونوا

ما شتتم أقباطا أم مسلمين ! .. بعدها ذاع صيت تلك المقالات في أرجاء الأقباط والمطارنة والجمعيات الدينية القبطية فقط ، أما أرجاء المسلمين فلم يحس بها أحد ، وكان هذا يقهرنى ويخوب بجذوة حماسى ! .. « سلامة موسى » وقد قابلته في حينها عدة مرات ، في البدروم المتصدع لجريدة مصر في شارع الملكة نازلى .. وقد أذهلهم وأدهشهم صغر سنى .. ومن غرفة سلامة موسى بتلك الجريدة تسربت بدفع الأيادى بعض الوقت ، إلى مرحلة غريبة صاحبة ! .. لا أريد أن أحكى عنها الآن فإن لها مجلدا حافلا ومثيرا قد أكتبه ذات يوم ، ويا رباه هل سوف يقدر لى أن أكون كاتبها ؟!

.....

« سلامة موسى » يسكن في شارع الفجالة . وبالذات أمام « عمارة قرصاقى » التى فيها « بنسيون كنج فيليب » ، وله شقة في الدور الأرضى تحوطها حديقة ذابلة ، تقع فيها مطبعته وإدارة مجلته .. دخلت عليه ، وكان يومها مكفهر يائسا ، فأمامه كمبيالات وديون وعقبات طبع ونشر وتوزيع - وإذا شئت أن اشتغل معه فلا تظوع بجانا بمثل مقالات جريدة مصر التى كانت كلها أيضا بجانا ! هكذا انطلقت أتصور محروما بانسا من حول أسوار الحديقة لصاحبة الجلالة .. عبنى لا تحيد عنها وابدأ لا أرغب فى سواها .. أتصور حقا ، فقد بدأت أبيع من كتبى وثيابى ومقتنياتى .. تكومت أجرة عدة أشهر لم تدفع للطبعة « مدام مورييس » . تدهورت أحوالى ولقد استسلمت تماما لهذا التدهور الذى أوشك أن يصل بى إلى أن أبيت جائعا أحيانا أو أفطر وأنغدى وأنعشى على الفول المدمس والعدس وأقراص الطعمية !

.....

وفى تلك الأشهر أيضا .. « رؤوف » ، ويا غرابة ما يقاجأ البشر

بعجيب ما يخطط القدر .. فلقد شفى من حادث الانتحار الذى أوشك أن يفقد فيه حياته .. تمكنوا من إنقاذه بعد جهد هائل - وكما قيل - لولا الفتلة السودانية « سامية » لم يكن يقدر له أن يعيش ! .. شفى من « لعنة مارى » فى إعجاز سريع وغريب يشبه مقاجأة الروايات ، فإنه بعد أن خرج من المستشفى توطدت علاقته بالقائمقام سيف وابنته المنقذة ، وتعارفت الأسرتان وتبادلتا الزيارات فى المنيل وفى الفيوم وفى الفجالة .. المهم قفز هذا العجيب الساحر الذى اسمه « الحب » ليصنع الخوارق . وقع رؤوف وسامية فى وعائه العسلى اللذيذ القناص .. حدثت الخطوبة ، ومنذ أيام ودعتهم على محطة باب الحديد ، هو وصهره وخطيبته ، فى الطريق إلى السودان وعقد القران فى « كسلا » حيث تعيش أسرة القائمقام سيف .. فقد تمكن رؤوف من نقل نفسه إلى فرقة الفرسان المصرية العسكرية فى البلد الشقيق !

.....

وذاث يوم قريب من تلك الأشهر الخمسة .. وكان إملاقى وعسرى قد اشتد وتصاعد - تفتق ذهنى المطحون عن أمل أن أبيع « قصة سينمائية » ! .. كنت قد اتصلت بالمخرج السينمائى « محمد كريم » .. أشهر مخرج مصرى ، وصانع أفلام عبد الوهاب الذائعة الصيت - ويقولون أن القصة السينمائية يشترونها بمائة جنيه وأحياناً بخمسمائة ! .. يعنى هات الملخص لها والفكرة فقط فى حجم تسع صفحات فولسكاب ، وإذا راقت سوف تجد فى يدك فوراً « شيك » لن يقل عن مائة جنيه ! .. كلمته بالتليفون وقلت له أن عندى قصة سينمائية جديدة ، فسألنى عن اسمى .. ارتبكت وقلت له ، أننى أتكلم نيابة عن « الكاتبة المعروفة » مى الصغيرة « والتى نشر لها منذ مدة قريبة عديد القصص فى آخر ساعة ودار الهلال وسواها ! .. تذكر أنه قرأها وأعجب بأفكارها ، وأعطانى

الميعاد لأحضر بها في العمارة التي يسكنها بجوار كورنيش النيل في « جاردن سيقى » ! .. القصة التي أعدتها وكدست آمالي في انقاذ نفسي بها ، اسمها « عطر الجنة » وهي قصة حب ذات فكرة عصرية جديدة وتصلح - ياليت - لتكون ثالث أفلام العظيم عبد الوهاب ! .. لم يكن قد تبقى في جيبى يومها إلا ورقة واحدة من ذات العشرة قروش وكان أملى كبيرا في أننى سوف أخرج من عند كريم وفي يدى شيك المائة جنيه !

وقد قرأ « كريم » القصة .. وهو رجل مشتمل النشاط والحيوية ، وله شكل خالق كوفى صغير .. أليس يخلق الحياة والشخوص من صنع يديه على شريط فيلم يبهر الناس لمدة ساعة ونصف وساعة ؟ .. أعجبت به بعض القصة ، ولكنها تحتاج لمناقشة طويلة مع المؤلفة وجها لوجه .. اعتذرت له أن المؤلفة مسافرة وغير موجودة وأنها أنابتنى عنها في كل شيء حتى في المناقشة والاتفاق .. ومن حماسى ولهفتى كاد الرجل يكشفنى فاضطربت ، فقام يربت عطوفا على كتفى وهو يوصلنى إلى الباب ، فهو مستعد أن يتفاهم مع المؤلفة عندما تعود من هذا السفر وتعال معها !

خرجت من « عند كريم » يائسا حائرا مختنقا .. جلست على أحجار كورنيش النيل بجوار « فندق سميراميس » ، أهلك فى موج النهر شاردا ذاهلا زانغ النظرات .. وفجأة .. وجدت من يصيح باسمى من عربة جيب عسكرية - وكان هو - الميجور كول !

عانقتى فى شوق ولهفة - رغم أن الانجليز يستنكفون عناق الرجال للرجال - وتجمدت نظراته برهة على منظرى البائس .. ثم قال لى أنه استلم خطايبى ولكن بعد أشهر من وصوله ، فقد كان مسافرا خارج القاهرة وعاد منذ أسبوع واحد فقط . وأنه حاول أن يعرف مكان إقامتى فلم يوفق .. أنه الآن فى القاهرة نهائيا .. وظيفته ومكتبه الجديد

فى « قشلاق قصر النيل » .. يشرف على النادى والمكتبة ومشتريات الضباط من ملابس وقمصان وأحذية !

كان متعجلا ، وقد عاد ينظر إلى شكلى البائس المنهار فى أسى ، وصارحته بأننى بلا عمل الآن .. طلب منى أن أمر عليه بالقشلاق فسوف يحصل على عمل لى .. ترددت وبمشاعر حقيقية قلت له أننى لم أعد أصلح لاداء أى عمل من هذا النوع .. لم يأبه بترددى ، وكتب ورقة تصريح وعليها توقيعى كى أقابله بها غدا .

.....

وفى الصباح ذهبت . ادخلونى عليه ، وكان متربعا مبتهجا فى صالون فخم يطل على ساحة جناح هائل الاتساع والاناقة ، ومن حوله مكاتب تجلس عليها مجندات مشوقات ثم أكشاك بيع براءة متناثرة ، وأمامها تقف « فتيات البيع » ساطعات المنظر !

بمجرد أن رآنى أمر بإحضار استمارة التحاق بالعمل ووضعها أمامى لأكتبها .. عزيزى الميجور كول ، وقد صارحته مرة أخرى - بعد أن أخذتنى رهبة المكان - بأننى مازلت مترددا ، ولا أعرف فسوف أفشل فى أى عمل ، بل ماذا أصلح هنا لأى عمل ؟ .. لم يكثر وسألنى عن آخر مرتب لى فى « جنيفة » فقلت « ٢٣ جنيها » .. أرغمنى أن أملأ الاستمارة .. سلمتها له . تصفحها ثم جرى عليها بقلمه يملأ خانات أخرى ، وسلمها لسكربتيرته « سيرجنت ميديث » لإنهاء الاجراءات ، ثم قام واقفا وتعال أعرفك بخلية ملكات عش النحل الذى سوف تعيش فيه كل نهارك من الآن .. هذه هى مدموازيل « جودى » .. « بيكى » .. « اثينا » .. « نانا » .. « لويزا » .. « دوللى » .. « سيلفانا » .. « ايلين » .. « فيكتورين » . كلهن موظفات مدنيات من عائلة فقراء الخواجات فى القاهرة .. من الساكنين ومن غمرة ، ومن الظاهر ، ومن بولاق ، والعباسية ، ومصر الجديدة .. لا توجد

بينهن مصرية واحدة ، فكلهن إما جريك أو شوام أو يهود أو مالطيات
أو قبرصيات .. شابات مزهوات الشباب وذوات جمال جرىء وأنوثة
تتلظى . نسيطات ومندلعات وروائحهن تشمل الأنف !
عرفنى بهن - ثم أوقفنى أمام « الخواجة ماركو » فى كشك الخزينة
والذى سوف أشتغل مساعده ابتداء من اليوم - وأوامر كول له أن
يعفينى من أى جهد - ثم سلمنى استمارة الالتحاق وفيها رقم مرتبى
الجديد . يا إلهى .. انه « ثلاثون» جنيتها فى الشهر » !

« الأجراس » _____

القاهرة ٤٢ - ٤٣ :

ومنذ شهرين ، وهذا هو منظرى فى عملى الجديد بقشلاق الانجليز فى قصر النيل .. فلاح يطل من ثنايا « الحصى » على خلية غريبة سابعة من أنواع النساء البيض .. خصوصا فى فترة الغلق من - ٢ إلى ٤ ظهرا - حينما يهدأ المكان ، وتنتحرر الفتيات من الثياب والأحذية وتوكات الشعر ، وينطرحن مكدودات من الوقفة بالساعات .. يتمددن على الكتب والكراسى والسجاجيد وحتى على البلاط .. يفردن السيقان ، ويفتحن البلوزات ، وتعلو أصواتهن بالأسرار والخبايا وسرف المعلومات والمغامرات عن غريب أمور النساء .. وأنا .. أنا الذكر الوحيد القابع فى كشك الخزانة الزجاجى ، أدعى أننى أكتب وأحسب ، بينما ألق بنظراتى على هذا السوق الحافل من أنواع النساء .. غريبات النساء ، فكل واحدة منهن تمثل نوعا وجذوة .

« نانا » الأغريقية ، بعودها الفاره وعنقها الرخامى الطويل .. « جابى » اليهودية ، بمنظرها الفجرى المتفجر .. فيكتورين القبرصية ، وجسدها الفواح تهتز به كشجرة تثقلها الثمار . « ويبكى » ، ودوللى و « سليفانا » . و « لويزا » ، و « ايلين » ثم

« السيرجنت ميديث » بوجهها الأحمر وشعرها الأصفر وباقوتة العين الخضراء .. طلائع سهيل غريب لفتيات عصر الحرب .. تمزيق الستار نهائيا بين الرجل والمرأة .. الحرية تنتشر إلى درجة المساواة في المجون والجنون .. مشاعري بينهن بل سباحتي بينهن ، دهشة واستطلاع وظمأ طبعاً .. ظمأ إلى حصص استطلاع جديدة ورؤيات جديدة في أنواع امرأة الحرب أو فتاة الحرب . ويا إلهي كم سوف تتغير الطباع وتنحسر التقاليد بعد إعصار تلك الحرب ، فهل سوف نغير نحن هنا في مصر .

« الخواجة ماركو » - رئيس الخزينة - وقع مريضاً بضعة أيام - وهكذا كان يجب أن أجلس مكانه ، أواجه هذا الطابور الممتد الطويل كل صباح وعلى الوجوه غيرة الحرب وذهول الحرب . نجوم حرب هتلر وتشرشل وستالين وروزفلت ، من كل الميادين ، والقاهرة لهم محطة استراحة أو تموين .. جنرالات ، ومارشالات ، وميجورات ، وكباطن ، وصغار ضباط ، وأيادهم تحمل استمارات المشتريات ، وعليهم أن يمشوا واحداً واحداً أمام المجالس على شباك الخزينة .. طابور طويل يعلن عن ديمقراطية الانجليز حتى في سعة الحرب ، فهذا هو « الجنرال أو كنتك » أمامي والمارشال سمطس أيضاً ، و « الجنرال ديجول » الفرنسي بقامته الطويلة في آخر الصف ! .. أشكال غريبة وأنواع صاخبة فمعظمهم مخمور ومترنح ، وبعضهم سخيف ومتعجرف ، وغيرهم ضحوك ولا مبال ! .. العالم كله أمامي .. طابور أمامي .. منظري وباشدة الاضطراب خوف الخطأ أو التعثر .. ثم لففتي وحرصى أن أعطيهم نموذج المصري الجديد المتحضر . تمرست .. تمرنت ، فإنهم كانوا يخطئون كثيراً في أنواع ورق الجنيهات المصرية ، حتى جرت يدي بينهم في سهولة ، وأصبحت أليفاً للمترددين ، يتلکأون من حولي ويسألونني المشورة في غير المبيعات ! .

وذات مرة - وكان « ماركو » قد طالت غيبته - شاغلتنى مخالب

تلك الخزينة في حادث مرعب وعجيب ! .. يومها كنت مزدحما أمام فوج هائل من ضباط الطيران ، وكان أحدهم - وهو ضابط صغير - يحاول أن يستأذن ليسبق دوره فهو متعجل لموعد سفر .. رفض الذين أمامه أن يسمحوا له بل زجروه وأمره أن ينتظم في مكانه ، فسكت وهو يزوم محتجا ، وعلى ملاحظه شكل طفل يوشك أن يبكي .. ولكن جنرا لا مهيبا ضخما نظر إليه عطوفا ودفعه بيده ليأخذ مكانه .. هرول الضابط نحوى وهو يعتذر عن سوء سلوكه بأنه سوف يكون طائرا في الهواء بعد نصف ساعة - هذا إذا لم تقابله « طائرات جورنج » في أول الطريق .. كان قد جهز فلولسه وطواها على ورقتي الفاتورة ، فأسرعت أختمها له وسلمته نسخة الأصل ، بينما تركت النسخة الكربونية المطوية على الأوراق المالية تنزلق في الدرج دون أن أفحصها .. والذي حدث بعد أن أنهت ردية العمل في المساء وأغلقت أبواب المكاتب والأكشاك ، والعادة دائما أن أكون آخر المنصرفين ، حتى أتمكن فأرتب الحسابات وأجمع الفواتير وأفحص الأموال ، ثم أغلق الخزينة لتكون جاهزة التسديد في الصباح ! .. فوجئت بفاتورة هذا الضابط مطوية على سبع ورقات من ذات المائة جنيه وورقة واحدة من فئة الخمسين ! .. فحصت الفاتورة فوجدتها سبعة جنيهات ونصف جنيه - إنه دفع على كل جنيه مائة جنيه ! .. قفزت من مكاني مسرعا كمن أريد أن ألحق به .. كيف وقد مضت الساعات ؟! .. ثم « ميجور كول » قد انصرف ! .. وسكرتيرته « ميديث » أيضا . بل والجميع قد انصرفوا ، ولم يبق سواي أنا و « عم مدبولي » الفراش ، الذى كان واقفا متأفقا فى انتظار أن أنتهى حتى يغلق البوابة ! .

حكيت لمدبولي وأنا منصرف عن حيرتى مع هذا الخطأ الفادح .. الـ ٧٥٠ جنيهها تلك ، وصاحبها المسكين الطائر الآن فى علو السماء ! .. أنصت لمدبولي وحملته فى وجهى تعلن الدهشة لأننى أحكى

له عن هذا الأمر بسهولة ! .. مثل تلك الأخطاء كالعادة لا تحكى بل تخفى فورا في جوف الجيب ! .. استعاذ بالله من الشيطان عما فكر فيه وصارحنى بأن « ماركو » بينى الآن فيلا في المعادى « من عديد أخطاء تلك الخزينة ! .. نظرت إليه في عتب ، فهل نحن مثل ماركو يا عم مدبولى ؟ .. عاد الرجل ينكش شعر رأسه ويتمتم ولكن المبلغ كبير . إنه ثروة لك ، وكأنك لم تقل لى ! .. وبخته ، نهرته ، فلست لصا ولن أكون ! .

وفى الصباح عندما حضرت مبكرا تبينت أن أحدا لم يسأل عن هذا المبلغ .. أسرع فقممت بتسديده - وعندما جاءت الفتيات وشاعت حكاية الـ ٧٥٠ جنيتها التى دفعها الطيار الاسترالى الغلبان فى قميصين وكرافنة وبنطلون ، جحظت عيونهن النهمة فى عدم تصديق ، فأنت أنت الغلبان أيها الفلاح الساذج الابله ! .. ورحن يتندرن ساخرات ويطلقن نحوى تعليقات الدهشة والاستخفاف ، بطريقة أحرجتنى بل أخرجلتنى ! .. يا إلهى - طباع فى الغريزة لم يعرفنها ! .

أقشعر دائئا من النظرة على درج الخزينة ، وأمامى الأكوام والرزم من مئات وآلاف الجنيهاات .. أرتعب من شكل الفلوس الكثيرة وأتساءل فى دهشة عن تقسيمة هذه الحياة ؟ .. فإن ورقة واحدة من نوع تلك المائة التى أقلبها فى يدى ، أو أقل منها بكثير ، كانت قادرة ذات يوم على تغيير مصيرى وإكمال تعليمى فى المدارس والجامعة ! .. ومن أجل هذا بت أحتقر المنظر من تلك التى أذلتنى ! .. أحتقر وأكره شكل هذا المال الذى لا أدرى هل يوزعه قدر مقصود أم صدفة ضريبة ترميه أنصبة وحظوظا ! .. لا لست أحسد أو أحقد على نصيب جعلنى ابن فلاح كادح ومكافح وطموح ، تطاول فى جراءة أن يعلم أولاده فى المدارس ذات المصاريف ! .. فشل مع الابن الأكبر ، فلم ييأس مع الثانى ، وثابر ولهت مع الثالث الذى هو أنا - حتى لفظ أنفاسه شهيدا

قبل أن يكمل مشوار المعركة ! .. معركة حقا ، جيل الكفاح لهؤلاء
الآباء الفلاحين الذين تسللوا من سراديب الطين بفلذات أكبادهم
ليتلقنوا المعرفة وكرامة الحياة ، كى يأتى اليوم الذى قد يتأتى فيه أن
يتمردوا على هذا الذل والضميم والقهر الذى هم فيه ! .

طردت من المدرسة طبعاً ، فمن يدفع تلك الـ ٢٠ جنيه
« المصاريف .. بل طردت من المدينة كلها ، فمن أين إيجار المسكن
والطعام وكل الحياة ؟ .. لذت بعض الوقت ببيت شقيقى الكبرى
وزوجها فى « شبرا » وهما - فى جهاد أن يحصلألى على مجانية الفقراء
كى أستمروا فى الدراسة - وهما كم مائة شهادة فقر حقيقية ، ياذل نفسى
وانتكاس رأسى وأنا أقدمها - ولكن المجانية كانت بالواسطة وكان
فرسانها دائماً ياعجبى من أولاد الأغنياء ! .. يا له من قهر شحن
النفس بالاستنكار والتحدى ! .. يا له من ذل أجد فى الجوف نيران
الغضب والتمرد ! .. عشت أتلطم فى القاهرة عدة أشهر ، ثم طويت
نفسى أعود إلى قريتى ذليلاً مندهشاً ، أجلس على جسر التربة
وأحلق ! .. أحلق فى عزبة هذا الباشا البرنس التركى الذى يملك
٩٥ ٪ من حياة أملاك القرية .. الـ ١٤ ألف نسمة لهم تنازل الخمسة
فى المائة فقط ، وليأكلوا الطين وليبلعوا الزلط ويسفوا التراب ، فهذا
قدر الله أن يكون غنى وفقير .. أطل غاضباً ومستنكراً على عزبة هذا
الباشا وقصر هذا الباشا ومراتع هذا الباشا من ثنايا شجر السرو
وأسوار الحديد ، وتأملى المعذب وتساؤلى الحارق هو عن تلك التفرقة
الظالمة وبشاعة شيوعها .. حملة ساعات أستدير بها نحو أهل قريتى
الحفاة العراة .. هلاهيل اللحم والعظم والثياب .. الأوعية الهشة
المريضة الذابلة .. مستسلمون ساكنون ، ورؤوسهم منكسة بدعاء
القناعة والرضا بمشيئة الله ! .

ولقد فكرت وقدحت ذهنى فلا يمكن أن تكون تلك مشيئة الله . فالله

خلق الكون لنا فائق التكوين والبهاء والنماء ، وأطلق مخلوقاته من
بنى البشر - وبعد أن دس فيها أجهزة العقل والمشاعر كى أن تنظم
نفسها بنفسها ! .. إذن فتلك التفرقة الفظة وهذا الظلم البشع ليس إلا
أمورا بشرية مصنوعة .. صناعها طغاة ، أنانيون ، محترون ينتقلون
بنا من حقبة ظالمة إلى حقبة أظلم ! صناع أشرار ولا بد من
مكافحتهم .. هذا التاريخ الذى قرأته ، ودائما لا تحل الأمور إلا
ثورات يشعلها السخط ويؤججها الغضب .. وعيدان الكبريت لتلك
الثورات دائما قلم يكتب ، أو فم يخطب ، أو يد تمتد بالسلاح ! . وبدفع
الروح والغريزة فقد كانت لهفتى دائما أن أمتشق قلمي وأخوض به
الميادين .. ومن أجل هذا وضعت نفسى فى تفرغ أن أشجده وأستعد به
لذات يوم يلوح فيه التحدى .. ومنذ الصبا المبكر ، بل منذ الطفولة ،
أشعر بأننى أمتلك فى أجنحة نفسى فصولا تدق الأجراس إلى عديد
حصص التأمل والمعرفة ! .. هكذا انطلق التحدى معى من ذل قطع
التعليم ، فماذا تجدى تلك المدرسيات والبيكالوريوسات وورق
الشهادات ، وأمامى أكاديمية مفتوحة من أرفف مؤلفات العالم .. فكر
العالم .. غصت فى بحر القراءة وتمرست على قفز الأعماق ، ورتبت
لنفسى طريقة حصص قراءة ومراحل تأمل تمتص الرحيق من أى شىء
أقرأ فيه أو أتأمل ! .. بات مسجدى الذى أتهجد وأتعبد فيه فى القاهرة
هو « دار الكتب بباب الخلق » .. أصبح أصدقائى وأعزائى فى نواصى
المدينة هم « ياعة كتب الرصيف وعربات روبايكا » الورق ! .. هذا
أنا فى بعض رحلة القطار أحمل تذكرة التمرد والتحدى ... طرقت
الأخيرة المصممة على بوابات القاهرة الغليظة ... توغلى فى هذا الدغل
المدهش من غابة التجارب .. أولئك النسوة ، وهؤلاء الانجليز
والأمريكان وكل هذا الطابور الواقف أمامى كل صباح ، يتوهج
بحضارة الطباع وكرامة الإنسان ، يبهرنى ويستقرننى ويحرك لهفتى
ويا إلهى فقد شحنت وتكدست فمق مقى محطة الوصول . ؟

.....

وفى « ميس الضباط » دعاى « الميجور كول » إلى - سهرة بارقى - يقيمها بمناسبة رحيل صديقه العزيز « بيرجر » إلى الجزائر البريطانية ! .. ووجه الدعوة أيضا إلى فتيات البيع وأى صديقات لهن حتى من خارج العمل .. ثم سألتى فلماذا لا أحضر فتاتى أنا أيضا معى ؟ - يقصد مارى - وقد ضحكت ، ونهته للمرة المائة بأنها لم تعد فتاتى ، ومهما رأتى معها فلم تعد فتاتى ! .

« مارى » ومازلت أراها يوميا بالطبع ! .. وتيرة انتظار أقطعها فى ملل وحيرة ، وما استمرارى معها إلا التحديق المتطير ، أبحث به عن طرف الدوبارة الذى انقطع منى ومنها ، عن بالونة « مى الصغيرة » التى تطوحها توهة الهواء الآن ! .. ولقد جئت إلى تلك السهرة مع مارى .. كانت نشيطة وسعيدة ومنعشة ، وكنت خجولا من منظرها المسرف فى التبرج والألوان .. يا آلهى فكم أصبحت غانية ! .. سهرة صاخبة متلاطمة ، تبادلنا فيها أنا وكول جلسة الموائد ، فقد لاحظت اهتمامه الشديد منذ رأى مارى ورقص معها ! .. انتقلت إلى مائدة « ميديت » ، فمئذ أساييع أحاول أن أعلمها العربية ، وهى تحاول أن تستزيدنى من الانجليزية - ومسحة من تعلق جعلتها تشغف فى بعد أن حكيت لها بعض ما أحلم وبعض ما أكتب من أفكار قصص ! .. أخرج بها إلى المدينة أحيانا ، أو إلى السينما ، أو الباتيناج ، ولقد جعلتها تتعرف على بنسيون كنج فيليب ، وأحببتها بل عشقتها مدام موريس ! .. تسهر معنا وتطيل البقاء ، حتى بعد أن تمام مدام موريس ! .. وهكذا عندما لاحظت من بعيد رواج مارى بين الأيادى وخصوصا « كول » ، فما رأيك يا « ميدى » أن نترك هذا الصخب والهواء الخافت ، لنجلس فى شرفة الهواء الطلق مع مدام موريس ونقرأ لنا نبوءات الفنجان ! .

.....

وكان اليوم التالى لتلك السهرة أجازة قضيته مع « صديقى نجيب »
فى مصر الجديدة ..
وعندما عدت إلى البنسيون فى آخر الليل ، وجدت قائمة تليفونات
تكرر فيها اسم مارى واسم الميجور كول ، ثم مع آخر مكالمة رسالة
عاجلة مرحة تركها « كول » بأنه يقضى الآن سهرة سعيدة جدا فى
بيت « حارة حبيب شلى » مع الطانط وديعة أم مارى - ويستحى أن
أسرع بمجرد حضورى ! .. ابتسمت مندهشا ، وضحكت
مستغربا فعزيزى كول أيضا له اندلاعات الفنان ! .. و .. وأسرت
إلى النوم ! .

وفى الصباح عندما دخلت فى مبنى العمل دهشت وحملت متعجبا ،
فقد رأيت « مارى » واقفة بكشك المبيعات ، تتلف لرويق وابلاغى
بأنها عينت منذ اليوم بمرتب « ٢٠ جنيها » ! .. قالت هذا وهى تضغط
على يدى فى نشوة وحرارة ، وكأنها منحتى صحة كل النهار بعد صحة
ليل ضنين ! .. ولست أدرى لماذا تضايقت ونفرت بل تشاءمت ، فما
تلك المطاردة القدرية الشقية من الحاح ما يحدث بينى وبين هذه
الفتاة ! .

.....

.....

هذا هو الشهر السادس منذ قطع الدوبارة عن « بالونة مى
الصغيرة » التى مازالت تتطوح وتتقلب وتحوم فوق أسقف البلاط
لصاحبة المجالة الصحافة .. كل يوم يمر ، بل كل لحظة ينهشنى الفزع
على مصرى ، ويرعبنى أن تقلع المركب كل يوم وتتركنى نائحا على
أرصفة الضياع .. وكل يوم يمر له حجم سنة تسقط من عمرى .. ولقد
أمسكنى العذاب من قلة حيلتى وانعدام إمكانياتى .. تخبطى اليأس وراء
وسيلة الظهور .. هل أظل حبيسا فى زنزانة مشروعى الفاشل هذا ،

فلماذا وبعد أن أعيتنى الحيل لا أجرب أن أتمرد وأخرج سافرا وليحدث ما يحدث ! .

نعم . كان آخر قرارلى وبعد أن طحنتنى الحيرة أن أطرق على باب الضمير المهنى ! .. كتبت خطابا شخصيا مطولا للأستاذ التابعى ، أصارحه فيه بكل قصة مى الصغيرة من الألف إلى الياء .. أسجل عليه كل القصص التى نشرتها آخر ساعة وسواها ، وكيف وضع أنها لاقت الاستحسان والرواج من القراء ، فلماذا أحرم من فرصة أن أنشر ، وهل يجب أن يسخطنى الله لأتحول إلى فتاة تعجبكم وتروق لكم ، وما هذا الظلم المتعسف فى إهمال الأخذ بيد الناشئين ؟ .. خطاب طويل ، ويحمل التحدى لضميره وقلمه الذى تعلمنا منه ، وكما قلت له شجاعة الرأى ! .

انتهيت من كتابة الخطاب وأرقت به « قصة قصيرة » جعلت عنوانها نفس العنوان الذى يكتب به هو « بعض من عرفت » - العنوان الذى يملأ به القاهرة أحلاما وسحرا وتحليقا ، فهو يروى فيه لقطات جذابة عن مغامراته العاطفية والمثلية مع بنات السنين ونساء التميز وعذارى الدانوب ! .. الكونتس ، والدوقة ، والليدى ، والبرنيسيس .. أوانى العسل ، وأشهى الرحيق يسكبها كل أسبوع فى الصفحة الثانية من آخر ساعة .. والناس تعلق بكل نهم اللذة والاعجاب .. قصتى هنا ووقائعها فى القاهرة .. وموضوعها « مجندة بريطانية حسناء » تشتهى لنفسها طفلا من عصر أمراء الفراغة ، وعندما تقع على أميرها المنشود فهذه هى قصتها الغريبة معه ! .

غلقت الرسالة مع القصة ، وتوقيعى عليها باسمى الصريح لأول مرة .. وخرجت أبحث عن صندوق البريد ! .

.....

أحسست بالرعب عند أول صندوق بريد أقف أمامه ! .. أن ألقى هذا الخطاب فهذا يعنى إعلان الفشل النهائى لمشروع مى الصغيرة !؟ .. جيتت .. لم ألق بالخطاب بل استمرت أمشى وأسمع بانسا حائرا ، وكلما هممت أن أتوقف أمام صناديق البريد الكثيرة التى تقابلنى احتجت إلى شجاعة أكثر ، فأؤجل إلقاءه إلى صندوق آخر ! .. أمشى وأمشى وكلما فكرت أن أتوقف أمام أحدهما ، أعود وألوى عنقى إلى صندوق آخر ! .. العتبة الخضراء ، ثم شارع الأمير فاروق ، ثم ميدان إبراهيم باشا . ثم شارع فؤاد الأول ، ثم شارع عدلى باشا ، ثم شارع سليمان باشا ، ثم ميدان باب اللوق ، ثم .. ثم أتوقف أمام صندوق البريد المعلق على حائط عمارة فارهة من ناطحات القاهرة الحديثة ! .. مازالت يافطة « مجلتى » التى كان يصدرها « أحمد الصاوى محمد » موجودة ، وكانت شهرتها - « الباخرة التى تسير » - توقفت عن الصدور بعد أن استهلكتنا لهاثا وانبهارا من خلفها ! .. « مجلتى » هذه كانت باخرة براقة ، ظهرت فجأة لتمخر العباب فى أرجاء الأحلام المصرية .. أول صحافة مزهوة بطباعتها الحديثة وفخارة ورقها المصقول وزهو الصور والألوان والرسوم .. وكل عدد فيه باقة من صور تنويع لأحلى وأشهى بنات الصالون المصرى .. بنات الذوات والهايلاف بشعورهن المعقوصة ، وأكتافهن العارية ، ونهودهن البارزة ، وطراوة الابتسامة ، وسحر العيون والجفون .. يكتب فيها فرسان القلم : « توفيق الحكيم ، وطه حسين ، والعقاد » ، ونجوم جدد تتنازل من أعلى مقامات المناصب .. ومحفة عطر مطهمة وذات رياش يخفق لها القلب ويندلع معها الحلم والخيال .. تحولت « مجلتى » بالصاوى إلى نجم الأحلام فى السماء المصرية ! .. عاشق فرنسا والسوريون وليالى باريس ! .. كازانوفنا العصر ودون جوان الجيل وروميو أمير العشاق ! .. مترجماته وكتبه الجواهر عن أفذاذ فرسان الغرام ! .. تدفق بنفسجى فى عيون وأفئدة الناس ، والصاوى

يمسك له عصاة الحاوى الماهر الأريب ! .. ولقد تعطف على الناشئين بالاعلان عن مسابقة لهم فى القصة والمقال والبحث والنقد - وكنت مازلت تلميذا وتيبا جديدا ، فاجتذبنى مغناطيسه القوى أن أطرق الباب على « مجلتي » تلك ذات ضحى ! .. أول مرة أخذ الشهيقي فى أجنحة البيوت من بلاط صاحبة الجلالة .. فى يدي كشكول بائس المنظر ومنظرى معه أشد يؤسا .. حذائى المرتوق ، وبدلتى الكالحة ، وقميصى البالى ، وواضح أن الفقر الغليظ قد وشم بالختم الكاوى على كل مساحة من وجهى ومنظرى ! .. دخلت مترددا مرتجفا وانحنيت أمام شاب أبيض صغير - من سنى تقريبا - يشغل سكرتيرا له ، فمن أوصله هذا المحفوظ إلى تلك الخطوة .. اسمه « سامى » - وكان مؤدبا ودودا خفف من حيائى بحماسة لكتاب كان يقرأ فيه - من خطب وطنيات « الزعيم الشاب مصطفى كامل » ، وقد أنصت له طويلا ومعجبا .. ولكن عندما جاءت الفرصة أن ينصت هو لى ، بادرنى بأنه غير مقتنع بجذوى اللقاء مع أستاذه الكبير ! .. تركت له الكشكول ، ورجوته أن يحاول ويختار منه أى قصة لدخول مسابقة الناشئين ! .. تلتطف ووافق ، وبينما هو يهم بتوديعى ، فتح الباب عن جناح « الصاوى العظيم » ، لتخرج منه لفحة من عطر فواح ، عرفتھا من صورھا فهى الشهيرة ذات الجمال وبنت الذوات « أمينة البارودى » ، والصاوى يودعھا بكل أتيكيت وأناقة الباريسيين .. التصقت بالحائط أحاول أن أخفى منظرى الزرى ، حتى عاد من توديعھا فتوقف أمامى وأمام سامى ونظر إلى شكلى ، ولست أدرى ماذا أضحكه ! .. قدم له سامى الكشكول وهو يهمهم مبتسما مشيرا نحوى بأننى أريد أن أدخل فى مسابقة القصة ! .. وبينما هو يقلب فى الكشكول لاحقته أقول له صادقا ومن القلب بأننى معجب بأسلوبه ولآلى تعابيرھ ! .. ابتسم مغتبطا ، وربت على كتفى كأنه يمسح على ظهر جرو مشرد ، وتلطف يسألنى أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، فأجبته فى

فأفأة وثأناة وثأناة ، عن مدرستى وقرى ولهفتى أن أكون كاتباً .. فعاد يرتب على ظهري في رقة وهو يدفعني نحو الباب ، بعد أن أمر سامي أن يقرأ في الكشكول ويدي رأيه ١ .

خرجت يومها وأنا أكاد أطارير فرحاً وأملاً .. وبعد يومين أو ثلاثة - وكان العظيم الصاوي - يكتب أيضاً عاموده اليومي في الجبارة « الأهرام » وفي الصفحة الأولى .. أشهر باب صحفى على الاطلاق ، فوجئت منه بهراوة ثقيلة ظالمة تنزل فوق رأسي ، فقد روى عن لقطة لقائه بناشئ خيالي حالم من أولاد الفلاحين - وان لم يذكر اسمي - وأشفق عطوفاً على جيل الناشئين الزاحفين من غيطان الريف وخيالهم أن يقودوا الوجدان والعقول ، فلمن يتركون الحقول ورعى الجاموس ١؟ .

يا شدة التأثير يومها ، بل يا شدة القهر واليأس والفضب والجنون ، .. يأس أوشكت معه أن أعود إلى مذلة الفأس والمقطف والركوبة ، بعد حلم القلم والورق والمكتب ١ .

.....

صندوق البريد ، في عمارة « مجلقى » .. ومرة أخرى أتشاءم منه بل أشيح وأستعيز أعود وأمشي لأتوقف عند « آخر ساعة » في عمارة بحري ، فهل أصدع وأسلم الخطاب يدا بيد ؟ .. لا . وأحسن أن يكون في البريد ١ .

عدت أمشي في اتجاه شارع قصر العيني .. الشارع الذى يجذبني إليه بأقوى المغناطيس هنا مملكة النشر والصحافة ودور الأحزاب .. هنا بلاط صاحبة الجلالة الصحافة .

« ٣٠ » مجلة وجريدة متناثرة في شقق وبيوت وقصور وفيلات .. تعبت من المشى .. كان يجب أن أحسم ترددي المعضب ، فتوقفت أمام صندوق بريد الجمعية الجغرافية الملكية ، وأخرجت الخطاب من جيبي ، ورفعت يدي لأسقطه في الشق .. وفجأة .. فجأة ..

وجدت شأها يحملق في وجهي ويمسكنى من ذراعى .. باسم ،
وطويل ، ووسيم ، وأخضر العينين وممشوق القوام .. من ؟ من ؟
« حازم فودة » ؟ .. زميل النيل الثانوية ؟ .. ويا لها من مفاجأة ! ..
أنه يدير « مجلة سياسية وفدية » اسمها « الساعة ١٢ » .. يا إلهي ،
لقد قرأت اسمه عليها فلم أصدق أن يكون هو ! .. تبادلنا الضناق في
حمية وحرارة ، فكم تنافسنا ولما في الكتابة وحصص الأدب والشعر
والانشاء ! .. تمشيت معه وذراعه في ذراعى المرتعش .. يخفق قلبي بقوة
وهو يقول أنه يعد عددا خاصا لمجلته عن « القصة القصيرة » ، ثم
يسألني فجأة سؤالا مباغتاً غريباً ، وكأنما السماء تنشق لى فجأة عن
سحر معجزة .. يسألني فهل أعرف عنوان الكاتبة « مى الصغيرة » ،
فإنه يبحث عنها له أسابيع لينال منها قصة لعددته الخاص المنتظر ! .

« الحطة »

عندما سألتى « حازم فودة » فجأة - إذا كنت أعرف عنوان « الكاتبة مى الصغيرة » ، فهو يريد منها قصة للعدد الخاص الممتاز الذى سوف يصدره قريبا من مجلته الساعة ١٢ .. توقفت بل ارتعدت وشحب وجهى فلماذا يسألنى أنا بالذات ؟ .. هل يعرف ؟ .. كيف ؟ .. ومن قال له ؟ .. نظرت إليه مستطلعا فوجدت وجهه لا ينى عن شيء ، فسألته مترددا وأنا أخفض رأسى لأخفى انفعالات وجهى - ولماذا تظن أننى أعرفه ؟ .. قال - لا أدري فهو مجرد خاطر ، فأنا ، أعرف عنك منذ زمان أن لك الأنف الحاد فى تشمم الكتابة ومن يكتبونها ! .

أوشكت فى لحظة ضعف يائسة أن أقدم له نفسى فأنا هو « مى الصغيرة » .. ولكننى تراجعته سريعا ، فكم سوف تعلقو سخرية ضحكاته ! .. ضغطت انفعالى وأجبتته فى هدوء - نعم أعرف ! .. تهلل وجهه متعجبا غير مصدق ، وأدهشه أن الخاطر الذى ألقاه عفوا قد أجاد التصوير ، فقال متحمسا - إذن هيا نذهب إليها فوراً ونتفق معها ، وبإلتيما نحصل منها على صورة ننشرها مع القصة ! .. عدت أنفوس فى وجهه .. برىء تماما ولا ينم عن أى شك أو هزاز ! .. أنها

إذن رمية قدر تلقى طوق النجاة في آخر لحظة .. إنقاذ مى الصغيرة في آخر لحظة .. استرددت نفسى .. ابتسمت .. ضحكت .. أخذته من ذراعه فى حماس - وعزيزى حازم ، ما رأيك أولا فى تناول فنجان قهوة فى محل « إيسافيتش » القريب هنا ، وتعال احك لى أنت أولا عن مفاجأة أنك الآن صاحب مجلة ؟!

.....

الليلة عيد ميلاد صديقى « الميجور كول » - وقد أعد له السهرة مجموعة من أصدقائه وزملائه فى أبهاء « عوامه » أنيقة راسية على شاطئ النيل « بجوار كوبرى الزمالك » - وكان قد دعانى بل أشركنى فى الاستعداد لها بطريقة ، نريدها ليلة شرقية فنانة مثل ليالى « جنيفة السويس » ، وملعونة تلك الحرب ومن شنوها ! .. كما دعا أيضا كل فتيات البيع - وأولهن « مارى » وكل أسرتها بالطبع ! .. علاقته بمارى تبادت واستشرت ، ويخيل إلى أنها أصبحت منه إيفالا وتعلقا محكما .. أبدا لا شأن لى بهما ، فشتونى مع نفسى أهم وأكبر ! . لقد رغبت أن تكون مفاجأتى لسهرة عيد ميلاد « كول » أكلة فته شعبية - بكل التحاييش والتحاويج ، من صنع صديقى الكبابجى الشهير « أحمد العجاقى » بشارع فاروق ، يصحبها « أنجر » محشود بلحوم الكباب والنيفة المشواة ، وأطباق متنوعة من سلطة الطحينة والطرشى البلدى الحريف - حددت لمواكبها توقيت الوصول إلى سهرة العوامه ، وكانت التكاليف باهظة وقاصمة - ٢٣٠ قرشا معلش - .. ثم أيضا مفاجأة الليلة الشرقية الفنانة ، فقد دعوت معى مجموعة من أصدقائى وأصدقاء « نجيب » منهم الموسيقار الشيق العجوز « سامى الشوا » غازف الكمان الذائع الصيت ، ثم هذا المطرب الجديد « الكحلاوى » وكان قد بدأ يروج فى القاهرة بجواويله البدوية ، ثم راقصة السفور الجميلة « عزيزة سامى » ! .. وهكذا مع

امتداد السهرة تحولت هديتى فى عيد الميلاد - طبق الأكل وطبق
الفن - إلى كل السهرة .. الفتة والنيفة والكوارع التهمها الانجليز
وبنات الانجليز ولعقوا الأصابع ! .. ثم كمان « سامى الشوا » - وله
الله عندما عزف عليه لحن « يا عزيز يا عزيز كبة تاخذ الانجليز ! »
وعندما فسرتها لهم ضحكوا وصخبوا وتسامحوا ثم مواويل الكحلاوى ،
ورقص عزيزة سامى وكيف أبهجهم وأثملهم إلى درجة التطوح والتمرغ
والصياح ! .

.....

يمتد الوقت ومازالت السهرة مندلعة وصاخبة .. أنسلل إلى شرفة
العوامة ، وكان القمر بدرا والنيل يتلأأ .. نسيم أبريل الرخى ..
وأحاول أن أزن رأسى مما يوج فيه من أفكار بل من هائل الأفكار ..
وما نشاطى فى تلك السهرة وزجى بنفسى فيها لأكون صانع معالمها ،
إلا الاحتفال الخاص بنفسى .. انتهاء فترة الاستجمام المرهقة البائسة
التى كنت ضائعا فيها أحلق فى هذا الحبل الذى أنقطع من بالونة « مى
الصغيرة » .. ها هو الحبل يعود يا إلهى متقطعا متهافتا ضعيفا ، ولكنه
بات ممسوكا فى يدى .. هذا اللقاء الخرافى منذ ثلاثة أيام مع « حازم
فودة » واتفاقى معه أن أبدأ النشر ! .

« مى الصغيرة » أصبحت محجرة « فى مجلة الساعة ١٢ » ! ..
تكتب كل أسبوعين قصة قصيرة ، ثم كل أسبوع « باب » للنقد
والتعليقات - ولها كل الحرية أن تكتب ما تشاء ، فكل ما تكتبه سوف
ينشر إلا ما سوف يشطبه الرقيب الانجليزى والرقيب المصرى ..
والمرتب « أربعة جنيهات » فى الشهر - وهو مرتب يعلو عن تسعيرة
المرتبات فى كل الشوارع الصحفى ، والذى لا يزيد أبدا الآن عن ثلاثة
جنيهات .. مع اشتراط أن يظهر الاعلان عنها فى « الأهرام » مرة ،
وفى « المصرى مرة » يوم صدور كل عدد ، ويكفى أن يقال فيه « مى

الصغيرة « تظهر في الساعة ١٢ .. هذا هو اتفاقى مع « عزيزى حازم » في جلسة « ايسافيتش » التاريخية ، والى أحسست معها أن مرحلة طارئة وهامة تطرق الباب على حياكى لتوقظ ما هجع وخذ من أحلامى البائسة ! .. اتفقت معه على البدء من هذا الأسبوع بالباب الجديد والقصة القصيرة ! .. مواصلة أكاذيب بيضاء منى ، أرجلها وأختطفها وليغفر لى الله كل تلك الحيل المؤثرة البريئة ، وأنا أناضل غلظة هذا السور من حول بلاط حبيبتى المشتهاة صاحبة الجلالة !

.....

لى ثلاثة أيام الآن منذ قابلت « حازم » ، وكان آخر كلام بيننا أن ، دعنى بضعة أيام حتى أتمكن فأقنع « مى الصغيرة » وأبلغها بالاتفاق ! .. مهلة تردد وتفكير ، أعطيتها لنفسى كى أقرر وأتأهب ، فالساعة ١٢ فى قطار الصحافة ليست إلا « عربية سبنسة » ، فها أدراى لو تعجلت الالتجاء بها الآن أن أظل بقية حياكى قعيد المؤخرة الصحفية ؟ .. حلمى وتشبثى هو « آخر ساعة » مثلاً أو « المصرى » مثلاً أو « الأهرام » ، ياليت ، أو هذا الهرم الجديد الذى ينيئون أنهم يشقون له الآن جوف الأرض ليظهر فجأة ويصبح معالم ! .. « مشروع أخبار اليوم » ، وما يقال عن قرب ظهورها ! ... ترددى واهن ودلوعة وضعيف الإرادة ، بل تدليل خطر لأحلامى المتلهفة والمتلاطمة منذ زمان فى متاهة السرايات ، بحثا واكتشافا عن أية محطة يمكن أن أركب منها الاكسبريس الصحفى .. ولقد أبلغت « حازم » اليوم تليفونيا بيشرى موافقة « مى الصغيرة » على التحرير فى الساعة ١٢ ابتداء من هذا الأسبوع .. هكذا حسمت التردد .. وهذا أنا بسهرة تلك الليلة أنهى استجمامى وأفرك يدى - فمئذ الصباح المبكر سوف أستلم « مائدة كازينو البسفور الرخامية الناعمة » ، فى الركن الشاعرى الهادئ ، وأمامى فنجان القهوة الدسم ، وكوب الماء المثلج - وتعال ياقلمى المحروم خذ فرصتك وحظك ! .

.....

مازلت سارحا مع النيل والقمر على سور شرفة العوامة .. نحن في
أبريل وربيع مصر الفواح يعبق ويسرى في شعاعات القمر .. النيل
والبدر في اكتماله .. وآه يا بلادى الجميلة العريقة ، يا كنانة الله وفتنة
الزمان ، متى تجمعين شعث نفسك وتراثك وتأهين لمستقبلك
وطموحك ؟! .. من خلفى « الزمالك » وثم « بولاق » ، ثم
« شبرا » ، ثم « روض الفرج » ، ثم « القناطر » .. ومن أمامى
« أمبابه » ، وبعدها « بشتيل » ثم « أوسيم » ثم « المناشى » ثم
برقاش ثم « القطا » ، ثم أبو غالب « ثم قريقى الراكدة فى تابوت القهر
والحرمان والمهانة . أهلى الغائصين كاللدود فى الطين .. جسر الفقر
الطويل الذليل قبلى وبحرى ومن ثناياه تطل فسيح المراتع والعزب
والقصور والأملاك للبشوات والخواجات والاقطاعيين .. قريقى البانسة
المحرومة ، وقد طالت غيبتي عنها .. يعدت نظراتي عنها .. وسوف
يكسرنى الحزى إذا رمقنى بعض أهلها فى منظرى المزيّف البادى هذا
كأبناء الأغنياء اللاهين أو أبناء الخواجات الصاخبين فما أدرهم بأن كل
هذا أكاذيب وأقنعة بمثل أكنوبة وأقنعة البريثة « مى الصغيرة » ! ..
ردائى هذا ومنظرى هذا ووقفى تلك ، مجرد مطروف يطوى رسالة
مندوب من الفلاحين فى الوحل والظلام إلى أهل القاهرة فى الابهاء
والأنوار .

.....

القمر والنيل من سور الشرفة .. هيمان الاحلام بل سحر
الاحلام .. نقرة الربيع على القلوب والمشاعر ! .. وأشعر أن جسماً
دافئاً بضاً يتسلل ويلتصق بى .. إنها « السيرجنت ميديث » ،
السكسونية فاخرة الانوثة ، يجذبها منظرى السارح مع النيل والقمر ..
كانت ثملة ونشوانة فاشتد التصاقها بى ، بل لفت ذراعها من حولى فى
ضمة شغف أن تأخذ كل الجرعة من سحر المنظر وإغرائه .. كان

جسدى بارداً ، ورغبتي خامدة ، وأتني لو لم تتماذى بفمها الذى أخذ يتكور مستدعيّاً ومتلمظاً للقبلة .. ولست أدري كيف شاء القدر أن تظهر « مارى » فى تلك اللحظة بالذات لترانا هكذا .. وتبدأ معنا مأساة السهرة ..

« مارى » وقد شربت كثيراً بحيث فقدت الصواب والاتزان - وهكذا ما كادت ترى منظرى الملتصق بميدى حتى اندفعت فى رعونة وهمجية نحو الفتاة وقد أخذتها الغيرة تشدها وتبعدها وهى تطلق هلوسة وهذيانا تريد أن تقول به أن هذا الرجل رجلى .. غضبت وثررت واستنكرت ، وزجرتها أن تفيق من خمرتها الثقيلة فلست رجلها ولست رجل أى امرأة ، ولاداعى لفضائحها فى كل مكان .. ولكنها صغبت واشتد هياجها ، وتماذت فرفعت يدها بالحقيقية تهم أن تضرب بها ميدى ، فلحقتها أمسك ذراعها وأنا أدفعها بعيداً ، فانزلقت قدمها ووقعت بجوار سور الشرفة .. قامت تيكى وتترنج وتصرخ ، وعادت تتجه إلينا لتكمل المعركة وهى تتساند على السور .. ثم فجأة - ياللهول - تدرجت كالخشية من فوق سطح العوامة لتسقط فى النهر !

وقامت ضجة الفزع والصياح .. هبت العوامة كلها لرعب الحادث .. وأسرعت أقفز لأنزل حيث سقطت فوجدتها محشورة فى الماء بين الشاطئ وجانب العوامة ، وهى تضرب بذراعيها فى صرخات هستيرية هلعة مستنجدة !! قفزت فى الماء حتى تمكنت فأمسكت بها ويدى تحاولان تخليص ثيابها من أسلاك قد انغrust فيها ... وبينما أحاول ذلك وقعت بكلتا يداى على منطقة من قاع الماء الغائض ممتلئة بشظايا الزجاج وأسياخ لها حدة المنشار ، فرحت أجرف الشظايا وأخلص الأسلاك بيدي حتى تمكنت ورفعتهما لتتناولها منى الأيادى .. ووقفت برهة لاهتاً مروعاً أتأمل هذا الدم الغزير الذى انبثق من جروح الشظايا والأسلاك فى يدي وذراعى !

وذهبنا إلى « المستشفى العسكري الكبير » بالعجوزة .. مارى فى حالة اغماء ، وأنا بالدم النازف الذى حاولت عبثاً أن أوقفه بربط المندبل !.. وتبين أن مارى لم يحدث لها إصابات ذات خطر إلا من خرايش ورضوض خفيفة .. أما أنا فقد خرجت من المستشفى تلك الليلة ويدائ تعلوها رباطات لفائف كثيرة ولن تفك حتى تلتئم الجروح بعد أسبوع أو أسبوعين !.

.....

هذه الفتاة المدمرة « مارى » وماحدث بسببها .. قدر صارم أن تعود بى إلى حصّة التردد مرة أخرى .. أصابعى باتت سجيّنة فى تلك الأربطة فكيف أنفذ الوعد بالكتابة ؟.. وفى التليفون ، عزيزى حازم معلّش ، فمى الصغيرة تخلف وعدها فللأسف قد فاجأها المرض وليس بوسعها أن تنفذ الاتفاق إلا بعد أسبوعين .. صدم حازم وظن هذا انسحاباً أو تراجعاً ، وراح يعتب بأنه أستعد باخلاء الصفحات ، وجهاز الاعلان للأهرام ، وتساءل فى شك إذا كنت أضحك عليه أم ماذا ؟ ولكنى أكدت له أنها سوف تفى بوعدها بمجرد انتهاء محنة هذا المرض الطارئ معها ! لى أيام وأنا حبيس حجرقى فى « بنسيون كنج فيليب » بيدائ المربوطتين ، وأنا معها عاجز عن فعل أى شىء !

« مارى » وقد شاع عنها منذ ليلة العوامة - بأنه كان منها محاولة انتحار لأنها مازالت تحببى ! .. وتضخمت الإشاعة التى نفيناها بشدة طبعاً ، سواء جاء النفى منى أو من مارى .. مارى تنتحر فهل هذا معقول ؟ .. الرجال فقط هم الذين ينتحرون حين يلقون بأنفسهم فى حم بركانها .. ولكن عزيزى العاشق « كول » ماأشد إشفاقى عليه - بدأت نظراته المعاتبة الغريبة يوجهها نحوى ، وهمس بنات البيع من حولى ، ولفئاتهن المزعجة بحيث بت أحس بالحرج والسأم من العودة إلى قشلاق قصر النيل هذا !

يعاودنى القلق والتردد مرة أخرى ، من حول عودة الظهور لى الصغيرة فى مجلة صغيرة حزبية مثل الساعة ١٢ .. إنها واحدة من عشرات المجلات الصغيرة التى تتغازل فى السوق تحت أجنحة الاغداق من « حزب الوفد » الحاكم .. تتعيش من الوفدية .. لا بأس ولا مذلة أن تتعيش من الوفدية فكل البلد وفدية !.

« الوفد » فى قمة رواج الحكم وثباته .. « النحاس باشا » هو الزعيم الأوحد وقطب الجماهير بل هو ملك الجماهير ، « وسراج الدين باشا » هو ولى العهد اللامع ، والوفديون فى كل مكان هم الفطاء الوطنى والسياسى .. والمعارضة مضغوطة بآنسة فهى خلايا متأججة تتصايح فى شوارع مهجورة .

مجلة الساعة ١٢ خفيفة الوزن جدا .. لا ثقل لها البتة ولا لمعان فى هذا السوق الضاوى هادر الأنوار بل هى شاحبة وتوشك أن تضمر وتتصرف مثل سواها .. لقد ظهرت ساطعة ولامعة وجامعة ، ولها قافلة كتاب جذايون لمدة أشهر قليلة فقط ، ولكن السوق الجامح ماأسرع مالكمها لتتكسر وتتهاوى فى انكماشة الرصيف .. ولقد استأجرها « عزيزى حازم ؟ الوفدى جداً عن إخلاص وعقيدة أعرفها فيه منذ الصبا - من صاحبها « الشامى » حائز الرخصة « وديع شبلى » .. ولعله فكر فيها أولاً كمشروع تجارى يمكن أن يبدأ به مستقبله ، فالصحافة إذا أخلصت ونجحت وضرب معها الحظ فهى رواج واغداق ثم ثانيا كمشروع سياسى يرضى به عقيدته الوفدية المقتنعة - فقد كان حزبيا متحمسا ويرثا !.

وعندما قابلته ، كانت أحلامه التجارية البريئة والشريفة قد خبت وتواضعت وسط طاحونة هذا السوق ، ولكنه استبقى لعزمته وإرادته ،

حماسه الوفدى ليرفع به رأسه فى وجه هذا السوق المتفطرس المحتكر ا.

لم يكن هناك ما يغرى باختلاف تلك المجلة عن بقية الكتاكيت الصحفية الصغيرة الموصوة ، والتى تلتهمها دائما أفواه الصقور من صحافة الشوام واليهود والمخابرات البريطانية .. صف مجلات بانس يتصور ، مثل « التلغراف » ، و « المصرى أفندى » ، و « الشعلة » و « العزيمة » ، و « الصرخة » ، و « الصاعقة » و « الرأى العام » ، و « رابطة الشباب » ، و « الحوادث » ... الخ ... الخ لا جديد لديهم فى السياسة إلا أن النحاس هو الزعيم الأوحى ، وسراج الدين هو الوطنى الأسطع ، وملعون آباء وجدود « صدقى » و « محمد محمود » و « حلمى عيسى » و « مكرم » ، وبقية الأوعية من المطبخ السياحى المحشود ا .. لا جديد للقراء إلا القفص والتكتيت وغريب الأنباء من صالة « بديعة » و « بيا » وراقصات الحانات وأيضاً أولئك الغانيات من طبقة بنات الهايلايف ونساء الصالونات ، وعن أسرار درية هانم ونعمات هانم وسوسن هانم ، وغراميات ومغامرات عائشة فهمى ، وتاتا زكى ا .. ثم القصص والمترجمات الراكدة ودائما لها مكان الهامشيات فى صفحات الاعلانات ا .. ولهذا خطر على بال « حازم » أن يقدم هذا الاختلاف من جذوة « مى الصغيرة » التى توهجت فجأة كما اختفت فجأة ا

كانت القصة القصيرة فى ذاك الحين أو فى تلك الأشهر بالذات - وأقولها بلا ادعاء - قد دقت خاطف الأجراس لنفسها فى الساحة الخاملة الراكدة منذ لاحت تلك القصص البراقة ، أو تلك الشهب اللامعة .. الاثنى عشرة قصة التى نشرت تباعا من دار آخر ساعة ودار اللال تحمل اسم مى الصغيرة .. كانت مفاجأة تقليب وجراة تجديد فى تقليدية القصة القصيرة وتحفظها الفاتر وقشرها المتهافت .. هيجت شهية القراءة فى الناس للقصة القصيرة ا .. نعم منذ مرقت

« مى الصغيرة » على السطح الرائد اهتز نهر القصة القصيرة وبدأ يأخذ الحركة والمجرى ، فهذا هو « حازم فوده » وسواه يتأهبون لإصدار أعداد خاصة عنها .. هناك قصصيون كبار وأساتذة رائعون يملأون الساحة طبعاً . « محمود كامل » و « سعيد عبده » و « يوسف حلمى » و « تيمور » و « صلاح ذهنى » و « فجر » و « أدى » و « طاهر لاشين » - ولكنهم باتوا فى أوعية الهواية والتسلل بمثل الطعام الواحد .. نفس الطبخة التقليدية من مجتمع يتدارى بعورات نفسه ، ويتلفح بكثيف الثياب ليخفى الأورام والعورات من جراحات أعماقه ونزيف حرمانه ! .

هكذا مجلدة الساعة ١٢ خفيفة فى الوزن جدا ، وتوزيعها هابط وتنافسها كاسد ، ولا أمل يرتجى فى أن تماشى العمالقة الكبار ، فهى بالنسبة لمجلة مثل آخر ساعة أو الاثنين ، مجرد واحد يركب البسكليت وعلى طريق المنافسة مع واحد يركب البايكار ! .. المجلة السنيسة والواقفة على المحطة « املت » ، وليس هناك من معالم إلا الرصيف ، بقايا الرصيف ، وسوف أتوقف عنده فى انتظار أن يلمحنى أصحاب الجلالة عظماء المحترفين ، فهم خلية التأثير الكبرى .. هم أزرار الإضاءة لاشارات المرور .. نعم سوف أتراسل بذبالات ضوء تلك السنيسة مع أنوار « التابعى » و « أبو الفتح » و « مصطفى أمين » و « أولاد زيدان » و « أولاد تكللا » و « أولاد صروف » وبقية وجهاء البلاط الملكى الحافل - ولهفة ذات يوم أن يطلوا من الشباك على راكب السنيسة اللاهث فيلحقوه بقطارهم الفاخر ! .

وفى « كازينو البسفور » دعوت « حازم » أن يقابلنى ، وأعطيته أول قصة وعنوانها - « وداعا يا عشش الترجمان » ، و « أول باب » - وعنوانه « لو » .. جلست بجواره ، وتركته يقرأها وقلبى يخفق برعشات الامتحان .. أغلقت عيني وحواسى كى لا أتبع

ملاحظه ، بل استدردت وأعطيته ظهري كي أخفى اندلاع قلقي وهففي
فربما يصدمني بأنها ليست هي ! .. وأخيرا ، أخيرا - وجدته يهزنى من
كتفى وعيناه تسطعان بفرحة نهمة ، ثم مدلى يده فى حماس لم يقدر على
إخفائه ، يشكرنى ، يشكرنى ، ويا إلهى يالها من فتاة ، فأين
كانت ؟ .. ولكن أين صورتها ؟ .. بل أين هي بنفسها ؟ ! .

أغمضت عيني مرة أخرى .. وتتواصل معى الأكاذيب والتمثيل
الأبيض معلنش .. وعزيزى حازم يجب أن أصرحك فتعرف حقيقة
المأساة عن هذه الفتاة .. أنها مشلولة منذ حادث تصادم وقع لها فهي لا
تقدر الفراش أبدا ، ثم يفزعها أن يراها أى رجل غريب وهي بهذا
الحال ، ثم ما جدوى أن تراها أو تقابلها وهذا أنت ترائى أمامك أودى
المهمة ؟ .

ابتسم حازم وهو يغرس عينيه فى وجهى مستسلما ، وغمز بعينه
يسألنى - حتى ولا صورة ، فقد سمعت أنها جميلة وشقراء ؟ .. قلت فى
إصرار وأنا أهز رأسى ، حتى ولا صورة يا عزيزى حازم ! .. بقى
يتفرس فى وجهى مفكرا وسارحا ، وأخذت تتسرب إلى وجهه الوسيم
ابتسامه مريبة أخذت تتسع رويدا رويدا ، ويوشك بعدها أن يصارحنى
بالحقيقة التى يحس بها - ولكنه سحب ابتسامته سريعا ، وطوى المقال
والقصة فى عناية ، ووضعها فى حقيبته ثم حيانى قائلا : وإلى اللقاء فى
الأسبوع القادم ! .

« البوابة »

خطواتى تنهادى وتتردد فى شارع قصر العبنى .
الساعة الآن الرابعة بعد الظهر - وعندى ميعاد فى السادسة فى مقر
« مجلة الساعة ١٢ بشارع محمد باشا سعيد » .. لأول مرة سوف
أدخل دار تلك المجلة ، فالיום عيد ميلادها الثانى - وقد أعدت حفلة
صغيرة لأسرتها مع الأصدقاء والزلاء يقيمها صاحبها « حازم
فودة » .. ولأن لاميعة الأسرة « مى الصغيرة » غير قادرة على
الحضور ، فيتحتّم - كما شدد حازم - أن أكون مندوبها الحاضر حتى
ولو جلست بينهم صامتا بلا كلام ! .

.....

نحن فى سبتمبر .. و « مى الصغيرة » تتربع الآن على شهرها
الخامس فى حاشية من هذا البلاط الصحفى الصغير « الساعة ١٢ » .
تتربع فيه بل تتألق .. « القصص واليوميات » ، ثم هذا الباب المثير
الجديد « برج بابل » - و « رخا الرسام » كل أسبوع يتفنن فى رسم
العنوان - البرج الشاهق ، وفتاة عصرية فاتنة تتسلق السلام إليه ،
وفى يدها « قلم » له شكل السونكى المسدد ! .
قلم له شكل السونكى المسدد طبعاً - فالأعداء أمامها ولا

سواها - ها « الفقر » و « الحرمان » ! .. نعم ، فماذا يكون أعداء بلادها في جيل تمشيط الحرب هذا ، إلا الفقر الغليظ يغطيها ويطحن فيها من الاسكندرية إلى أسوان ، والطحانون البشعون هم الاستعمار والفساد والاقطاع ! .. ثم هذا الحرمان الباهظ المكس المرهق ، الرافض لأى تفتح أو تنفس ، والمزاليج على بابه وعليها سلاسل من قهر وكبت وعقد وغليظ تقاليد ..

فتاقى الفتاة البازغة أصبحت ضجة صحفية ! .. باتت انتشارا وفضولا وإثارة ! .. طنينها يسرى يوما بعد يوم ، وعطرها المثل يعبق ويفوح رويدا رويدا ، ويريدها المنهال يكبر ويتضخم أسبوعا بعد أسبوع ! .. بريدها ينهال ، وأنا شديد التوارى ، مصمم على التوارى ، وحازم يضعه بين يدى فى اللقاء الأسبوعى على المائدة الرخامية بكازينو السفور مبسوطا ومنتشيا وحائرا .. توزيع المجلة أخذ فى التصاعد ، ولولا غلو الورق فى السوق السوداء لطبعت منها عشرات الألوف ! .. ولكن الحيرة معه كيف يرد على السؤال الصعب الذى بات ضغطا والحاحا بل مطاردة له فى كل مكان .. سؤال ، من هى « مى الصغيرة » ؟ .. أين هى مى الصغيرة ؟ ! .

عدة مرات يفتحن فى هذا الأمر ، ونهرب سويا منه وفى سرعة إلى أمور أخرى ! .. كلانا أنا وهو لا نريد أن نصل إلى حسم المصارحة فيه .. أنا أشدد وأغالى على أن مى الصغيرة موجودة. وعندما تشفى سوف تظهر له وللجميع .. وهو يستقبل منى هذا التأكيد فى دهشة وحيرة بل يعتبره استخفافا بعقله ، فإنه يعرف ميولى وأسلوبى وطموحى للكتابة وهواية أقنعة التخفى منذ تحتة المدرسة ، ولكنه يجاربنى ويتراجع سريعا مع النجاح والانتشار الذى أصبحت تلاقيه مجلته منذ بدأت تنشر لى الصغيرة فى أبريل الماضى ، وأبدا لا يريد أن يجمع نفسه أو قراءه بأية لطمة من صدمة أو مفاجأة قد تطيح بهذا

النجاح والانتشار .. ولكنه فقط يتعلق بشعرة هذا التأكيد الغريب
منى ، فلا بد إذن أن لى الصغيرة هذه وجودا ما فى حياىى .. حب ، أو
زواج ، أو قرابة ، أو أى علاقة جعلتها تتجسم بيننا وبين الناس ،
فلماذا لا أصارحه ليفكر ويدبر معى ؟ .

والواقع - وكنت قد اتخذت لتلك المرحلة قرارا ملزما ولا تراجع أو
تردد فيه - أن يظل طنين هذا التوقيع يحمل الهمس والتساؤل فى
الساحة الصحفية لمدة ثلاث سنوات إن لم تكن أكثر ، فمادمت أنا
الذى يكتب فماذا عاد يقلق أو يضير ! .. هكذا لن يغربى أى
استدراج .. لن تضعف إرادتى أمام أية لهفة .. أبدا لن أسكب جرعى
الغالية والباقية فى لظى هذا الجفاف ! .. نعم فالساحة الصحفية لأمثالى
بلا قلب - طبقية ، وذنبية ، وغادرة . وهى أيضا بلا ضمير - فمن
الممكن جدا - وفى لحظة خاطفة أن يتهشم هذا التمثال الجميل الذى
مازال طريا وهشا فى يدى ، تحت سحق ضحكة ماجنة تقع قهقهتها فى
أبناء السخريات من بلاط العناية فى صاحبة الجلالة ؟ .. بل ماذا يملك
الرفىء الخافى الذى يتعثر فى أذيال حيائه والمتشبث بل المستميت فى
صون كرامته وكبريائه ، أن يفعل - إذا لفظه المجون الصحفى واللذع
الصحفى بالطرد القاتل ، إلا أن يدير ظهره وينصرف تماما وإلى
الأبد - مستسلما لهذا القهر الذى تطاول يوما أن يقهره ! .

وهكذا اتجه اقتناعى أن أدير أنا ظهرى لهم ، فمهتق الآن أن أفتح
رعبتهم الأعظم التى هى زبائن القراء أن يقتنعوا هم .. أو س قاعدتى
فى أسواق زبائنهم .. أتقن تمثالى الجميل فى إحياء زبائنهم .. آخذ
اللجوء لنفسى بل أطلب الحماية من شوارع وحوارى زبائنهم ! .. نعم
اقتنعت أن لا حماية لى إلا من قارئى الصحيفة أو المجلة .. وبقدر ما
أقنعه عن نفسى سوف يستيقنى بل سوف يستمسك بى .. أبدا لا
رشوة ولا تسلىق ، ولا تزلف ، ولا وصولية ، إلا أن أجتاز الامتحان مع

القارئ .. تلك هى وثيقة الأمان التى وضعتها حجابا تحت إبطى
ولسوف أظل أعيش به ما بقيت لى حياة ! .

.....

خطواتى مازالت تنهذى وتتردد فى شارع قصر العيني ..
ثلاث سنوات وهذا هو القرار ، أن أظل تحت قناع « مى
الصغيرة » - ولكن لا بد من حيلة لاجتياز تلك السنوات ! .
ولقد كانت لى محاولات لاهثة وهاذية لايجاد الموديل الذى أتقن عليه
صياغة تمثالى ! .. محاولات فكهة أحيانا ومأساوية أحيانا ، تلاطمت
معهما حين أشركت معى فى البحث صديقى طيب القلب « الموسيقار
سامى الشوا » ، وأشركت أيضا صديقى المحبوب « نجيب حلمى » -
فهما الآن أعز من تبقى لى من أصدقاء ، بل هما باتا حياى الخاصة ..
« نجيب » - وكان نهرا صاحبنا من التجارب - يرانى نصفه الشريف
البرىء والمفقود .. و « سامى » - وهو بلا زوجة ولا أبناء - يرانى
ابنا من زوجة يحلم بها داتها واسمها « مريم » ! .. صارحتهما عن مأزق
« مى الصغيرة » .. الفترينة التى حصلت عليها فى المعرض الصحفى
ومطلوب لها « المانيكان » .. تمثال الشمع الذى سوف أكسوه بياهر
الثياب ! .. فتاة ولو توجرها بخمسة جنيها فى الشهر لتؤدى دور مى
الصغيرة ؟! .. ورغم خرافية الفكرة وفجاعتها ، إلا أن تخطى من
حماسى المؤثر أمامها ، جعلها يندبجان وينشطان معى لتنفيذ تلك
الفكرة ! .

وذات يوم دق التليفون وكان « نجيب » يلى على عنواننا هو موجود
فيه الآن ، ويطلب سرعة حضورى لمفاجأة قد لا تخطر لى على بال ! .
وأسرعت إلى العنوان ، وكان فى « شارع الزقازيق بمصر
الجديدة » .. فيلا صغيرة من بيوت الشركة البلجيكية ، ومن حولها
حديقة يمرح فيها كلب مخيف .. ويستقبلنى نجيب على الباب ليهمس فى
أذنى ألا أفتح سيرة أى كلام عن الموضوع ، فهمتى فقط أن أعين

المفاجأة ثم بعدها نتكلم ! .. وتقدم منى صاحب الفيلا وهو عجوز كاريكاتيرى الشكل ، أبيض الشعر ، حاد الملامح ، وله شارب تركى مفروش على مساحة ضخمة من وجهه ، صدره مفتوح ، والبايب ينفخ فيه من فمه .. قدمه لى باسم « العم القانمقام شكور بك » رياضى سابق وملاك سابق ، ومصارع سابق ، وفارس سابق ، - فأسرع الرجل يقاطعه مقهقهها ولاحقا أيضا ! .

وعندما جلست فى صالون ممتلئ برؤوس الثيران والماعز وعجيب المحنطات دخلت علينا فتاة ، يا إلهى ما أغربها من فتاة ، وكأنها فراشة ترفرف بلا صوت . وجهها نادر التكوين - ليس جميلا جدا ، ولكنه عذب التعبير .. وعيناها أيضا يا عجيب ما يختلط بها من حدة ووداعة ! .

اسمها « بشرى » أو « بشر » كما يناديها الأب - قد سلمت على بطريقة قصم الظهر للملكات ، وقال نجيب أنها خريجة « الدلفراند » ولكن خطها فى العربى إذا أردت أن تجرب فهو أجمل وأحسن من خطك ! .. ابتسمت بشرى وطوت رأسها فى حياء ، ثم بتشجيع من أبيها طلب منها أن تطلعنى على أجندتها لأقرأ بعض ما تكتبه من الخواطر والشعر المنثور .. وقامت فى حياء وسلمتنى الأجندة بعد أن فتحتها على صفحة عنوانها « عندما يغرد البلبل فى الفجر » ! .. أقرأ فالحظ جميل حقا وأسلوب الكتابة لا بأس ، ولكن يالها من فتاة غامضة فلماذا لا تقول شيئا ؟ .

واندفع الأب يتكلم فى أمور عديدة وبعيدة ، عن معارك العسكر والترك والمغاربة ، وعن « عزيز المصرى » الذى هو صديقه ويأتى لزيارته أحيانا ، ثم عن حرب هتلر وموسوليني تلك ، وكيف أن الحروب لم تعد شجاعات وفروسيات وبسالات بل أضرار يتلهى بها أطفال أشرار عابثون ! .

الفتاة تنظر إلى أبيها شغوفة ومعجبة ، وألاحظ نسخة من مجلة الساعة ١٢ موضوعة على مقعد قريب ولا بد أن نجيب أحضرها معه ، أم ترى هي التي اشتريتها ؟ .. واشتد تحرقى أن أسألها عن ذلك ، فقاطعت ثرثرة العجوز وأنا أستدير نحوها فهل تقرأ قصص مى الصغيرة فى هذه المجلة ؟ .. وأشار نجيب فى خفية ينبهنى إلى اتفاقنا .. ولكن الفتاة أسرعت تبتسم وتجيب على سؤالى بإيماءة من رأسها أن نعم . وتمايت أسألها رغم الحرج الذى قاطعنى به نجيب مرة أخرى ، فهل هى تكتب القصة القصيرة بمثل الشعر والخواطر ؟ .. ترددت الفتاة برهة ثم هزت رأسها فى وداعة بما يعنى أن لا ! .. ووقف نجيب فجأة ينهى الزيارة فى مرح فلديه الميعاد الهام فى البلد ويجب أن يصحبنى إليه فوراً ! .. ووقفنا أنا وهى نتبادل الابتسام بلا كلام ، بينما انتحى الأب ونجيب يتهامسان سوياً ! .. وعندما طال همسها حاولت أن أتبادل معها الكلام ، فقلت لها أنتى سوف أرسل لها مجموعة من قصص مى الصغيرة ، فهل تمانع ؟ .. وقبل أن ترد أخذنى نجيب من ذراعى يدفعنى نحو الباب ! .

وفى الطريق سألتى نجيب فى حماس - ما رأيك - ؟ .. قلت - رأى فى ماذا ، فإنها لم تتكلم كلمة واحدة ؟ .. قال : وماذا يهمك من أن تتكلم فيكفى أنها تكتب ! .. استغربت قوله فقد أطلق بعدها ضحكة ظفر غامرة وعاد يقول : ميزاتها بل أهم ميزتها أنها لا تتكلم ! .. وعرفت أخيراً .. عرفت ويا شدة ما تأثرت واقشعر جسمى - بمفاجأة نجيب - أن تكون المانيكان لمى الصغيرة فتاة بكاء .. نعم فهذه الفتاة اليايسة ومنذ ولدت فهى بكاء ! .

.....

وذات مرة أيضاً - فى هزليات البحث عن موديل أو مانيكان - أخذنى « سامى الشوا » فى حماس إلى اكتشافه الجديد المذهل ..

والصدفة العجيبة أن اسمها « ماري » أيضا - شامية طبعا - ليس هذا فقط ، بل هي ابنة أديب ومن شجرة أسرة كلها شعراء وفلاسفة وأدباء ! .

وفي آخر شارع شبرا - بعد مخزن الترموى - وأمام عمارة صغيرة ، أوقف سامى العربية ، ثم دخلنا من باب الدور الأول على شقة عصرية متوسطة الحال ، تعيش فيها أم وابنتها - التى هى الاكتشاف المذهل ! .

الفتاة جميلة وشعراء وفصيحة الملامح - ولها شكل « جوان بنيت » نجمة السينما - وذات عينين واسعتين وفم إذا ابتسم فالغمزة تنقر الجيبين ! .. أنها ابنة أديب راحل ولم يترك أدبه لأسرته إلا الفقر والعوز ، وكانت له شهرة فى ترجمة الروايات .. الفتاة رصينة ومترنة ولا تبدو عليها شبهة من شقاوة أو دلح أو انحلال ولكن لست أدري أى إحساس قد تملكى فى أنها ليست خفيفة الروح ... ولكن هذا الإحساس انصرف عني بعد أن تجاوزت معى فى الحوار عن أبيها ومؤلفاته ! .. واندمجت معها بل فرحت وفركت يدي ، فمادامت ابنة كاتب وأديب ولها هذا الطلاء العصري الواضح ، فإذن هى المنشودة ! .

هذه الفتاة لما لقطة خاطفة مع الشهرة .. قصة حدثت لها منذ أعوام وكان يمكن أن يتغير معها اتجاه حياتها .. قصة عرفناها وتذكرناها - فقد كان مقدرا لها أن تقوم بدور البطولة فى أول فيلم سينمائى يظهر فيه « المطرب محمد عبد الوهاب » واسمه « الوردة البيضاء » من إخراج : « محمد كريم » . وقد اكتشفوها فى بحثهم المتقرب عن وجه جديد ، وانفقوا معها فعلا ووقعوا العقد ، وبدأوا فى ترويج الدعاية ونشر الصور لها .. ولكن فى آخر لحظة ولست تدري خفى ما حدث - فقد انصرفوا عنها إلى وجه جديد آخر ! .. هكذا لاح لها المظ ذات

مرة ، ولكنها لم تتأسف على فقدته فالتمثيل يجعلها تضطرب ! .

وعندما بدأنا نشرح لها المهمة - فنحن نحتاج لها هذه المرة لتؤدي الدور في شوارع الحياة لا على شاشة السينما - ونظير مرتب خمسة جنيهات دائمة ، فوق المشاركة في أى أرباح سوف تأتى على يدها . ولن يكلفها الأمر إلا أن تظهر أحيانا ، وفي مناسبات أو مقابلات قليلة جدا وغير مجهدة البتة ! .. وقد أنصت الفتاة محمقة وساكتة بينما شردت الأم .. ولأنها أرملة كاتب ، فقد أخذتنا إلى انهماك وتدقيق التفاصيل بما حيرنا في الردود والاقناع ! .. وانتهينا بعد حديث طويل إلى أن الأم والابنة لن يتمكننا من إعطاء الرد بالموافقة - إلا بعد أن يحصلنا عليه من العم « سليم » كبير الأسرة والمقيم في « حلب » ، وميعاده أن يزورها في خلال شهر ! .. وعلى مضض اتفقنا أن يكون هذا الشهر بروفة على أداء الدور .. يعنى لا مانع أن أزورها وأتردد عليها حتى ولو يوميا ، فهذا دائما في حالة وحدة وانزواء .

وبدأت أطرق الباب على شقة مارى شبرا .. أحمل الفاكهة أحيانا ، أو الأكل أحيانا ، وقد بدا لى أن حالتها معسرة .. ولسا بساطقى وعدم أطماعى وبراءة نيتى فاختلطنا واندمجنا وسمحت لنا الأم بالخروج والتنزه والذهاب إلى السينما ! .. وذات يوم وقبل أن ينقضى الشهر ، طلبت الأم أن تختلئ بى ، ووجهت لى قرارها الحاسم .. وبعد تفكير طويل .. فلماذا لا تأخذ مارى يا ولدى شريكا - ليس في هذا الدور الصغير فقط ، بل في دور الحياة كلها ؟ .. تقصد أن أتزوجها ؟ ! .. يا إلهى أتزوج ؟ .. لا .. لا . ليس في نيتى أن أتزوج أبدا .. تجربة مارى الفجالة جعلتني أقرر أن لا زواج أبدا أبدا ! .. وهكذا برد حماسى .. تراجعت عن مهمتى ، انصرفت يومها بلا عودة .. بل انصرفت نهائيا عن هزليات البحث عن موديل أو مانيكان ، ولأترك الأمور للحظ وللصدفة والقدر ! .

ما زالت خطواتي تتهاذى وتتردد فى شارع قصر العيني ..
تلك الأشهر الخمسة العجيبة من رحلة الحياة ، وصديقى الفنان
القلق المحموم ، ميجور كول فى قشلاق الانجليز بقصر النيل .

وفى يونيو الماضى ضقت ذرعا من غيرته وشكوكه ، فطلبت منه أن
أستقيل وأترك العمل ، أو ينقلنى إلى عمل آخر فى مكتب آخر غير هذا
المكان الذى فيه « مارى الفجالة » .. لم أعد أطيق لعبة الغيرة الخطرة
بينى وبينه ، توجعها همسات فتيات البيع من حول علاقتى بمارى منذ
حادث وقوعها أو انتحارها المزعوم فى ليلة العوامة تلك ! .

« مارى » أصبحت غراما صريحا لعزى كـول يتندر به الجميع فى
كل قشلاق قصر النيل .. وقد صارحته يوم أن فاتحته فى النقل بل
وأقسمت له أن هذه الفتاة لم تعد تمثل فى حياتى أى تأثير إلا حرج
وجودها الآن فى العلاقة الحميمة بينى وبينه .. وحتى كذكريات ،
فصديقى عزيزى الميجور هاريسون كول ، فقد تبددت تماما ولم يبق منها
إلا الاستغراب والدهشة ! .. وقد أنصت ساكنا إلى محاولة إقناعى له
بذلك وملاحه تضطرب وتضطرب . وبقي صامتا فترة طويلة ، ثم قال ،
حسنا ، فلماذا لا تقنعنى نهائيا فىكون لك « جيرل فرند » صريحة
نعرفها ونستريح ! .. دهشت بل ضحكت لأفكاره ، وعدت أقسم له
أن فتاتى الحقيقية الآن لا سواها ، والتى أحلم وأنام وأمشى بها هى
« مى الصغيرة » ! .. دق الأرض بحذائه عصيبا وهو يقول - ولكن
مى الحقيقية وكما تعرف أنا وأنت هى مارى ! . أزعجتى عصبية
فتماسكت ساكنا ، وظل هو صامتا ورأسه منكس ثم سألنى فجأة ،
وكأنه يتوسل - أبظنك تحبى بمنزل ما أحبها ؟ .. ولقد أردت أن أكون
أمينًا فى الإجابة فرددت عليه السؤال بسؤال وقلت : هل أنت تحبها إلى
درجة أن تتزوجها مثلا عزيزى ابن اللوردات وقريب الملكات ؟ ! ..

أعاد له سؤالي عصبية الغريبة فاقشعرت جبهته وقال بطريقة التحدى - لم لا ، فهل تمنع إذا قلت لك أنني أفكر في هذا الأمر فعلا وأتخذ له الآن كل الإجراءات ! .. ابتسمت مشققا على هذا الشاب الراقي المتحضر المثقف ، وفي أعماقي خواطر تسخر وتتعجب ، فما نحن أمام هذا الحب إلا بشر من نسيج واحد . لا فرق بين حمى عاشق من بريطانيا العظمى وآخر من آسيا الصغرى ! .

لاحظ ابتسامتي فظنني أسخر ، فقال قد اشتد تشنجه - هل تراني أمامك غيبا أو أحمق لأنني وقعت في حب فتاة تمرغت في أحضانك واحضان سواك ، ولكن أنت تعرف أنها طيبة وسيئة الحظ ، فما الذى يجعلك تسخر هكذا وتستخف بأمر إنسانى تراني جادا فيه ؟ .

دهشت .. ارتبكت . فقد أعطاني ظهره غاضبا بل حائقا ، وتركنى في حيرة من أمرى ، فهل يعنى هذا الانصراف منه بدء خصومة أو قطيعة ؟ .

.. ما أشد غباء الرجال حين يعشقون .. قطيعة !؟ .. ولكنه رئيسى ويوسعه أن يتماذى فيفصلنى ، وكرامتى أبدا لن تسمح فلماذا لا أبادره بفصل نفسى ؟ .. ولكن يا شدة الرزء من هذا الأمر فماذا يحدث بعدها ؟ .. الثلاثون جنيها تلك - وهى مرتب مدير عام فى مصالح الحكومة ، من أين أجدها ؟ .. بل إنها باتت لا تكفينى فى معمرة سخاء الصرف والاغداق والتكلفة على الفاخرة الباهرة « مى الصغيرة » ؟ . وقبل أن أنصرف يومها .. فوجئت بالسير جنت ميديت « تضع أمامى قرارا وقمه كول ، بأن أستلم عملى الجديد ابتداء من غد فى وظيفة « أمين المخزن رقم ٣ » فى آخر الطرف من الضيقة الشاسعة المترامية ثكنات قصر النيل ! .

وعندما سألت « عم مدهولى » عن المخزن رقم ٣ هذا ووظيفة أمين تلك ؟ .. توقف جاحظ العينين مندهشا فإنها وظيفة هامة ومرغوبة دائما

تعنى أننى أصبحت أمينا على مخزن فيه محتويات بـ مليون جنيه ! .. أنه أهم المخازن وأشدّها إغراء فى كل قصر النيل ، ودائما له ضحايا من أمناء وقعوا فى مطب السرقة منه ، وآخرهم « لازارديس اليونانى » - وهو فى السجن الآن - بعد واقعة ضبطه بلورى يحمل بحريير البراشوت الغالى جدا ، ويدل أن يتجه إلى قشلاق الانجليز فى العباسية ، اتجه به إلى حوارى « السبتية » ! .. لورى حولته عشرة آلاف جنيه ، وما أدراك بمائة لورى لم يقدر لأحد أن يضبطها قبل ذلك ! .

وقد ذهبت واستلمت هذا المخزن فى الصباح بحضور « سير جنيت ميديث » وقعت على إقرار المسئولية وانصرفت .. لم يكن هذا المخزن كبيرا وهائلا كما تصورت ، فإنه فى حجم الجراجات المتوسطة ومبنى بالصاج ، ومن حوله أكشاك وحبال حراسة ، وفى طرفه ثلاثة أكشاك أنيقة خصصت لمكاتب الأمين وجلس الموظفين .

الموظفون خمسة فقط - وفيهم فتاتان - فوجئت أن احداهما مصرية .. وكان مكتبها يلاصق مكتبى - وعملها المباشر معى - ويا غرابة ما حدث منى ومنها عندما تبادلنا أول مرة حلقة النظرات ، بل دهشة النظرات .. سريان ساحر وسريع استوقف ذاكرتى يسألها ، فلا بد أننى قابلت هذه الفتاة من قبل عدة مرات ؟ .. ولقد حكى لى بعدها ، أن هذا السريان ونفس التساؤل قد هز مشاعرها أيضا وفى نفس اللحظة ! .

اسمها « عزيزة » .. وأيدا لا يزيد سنّها عن « ١٩ » عاما ! .. وجهها دقيق الملامح وكأنه منحوت من معدن سماوى نادر ، وفيه طفولة جذابة وجريئة تغريك لو تقدر فتفرك جبينها المتوهج المستدير ، ليخرج لك ابتسامة أحلى من ابتسامة الموناليزا الشهيرة .. اسمها عزيزة .. ومفاجأة إنها ابنة فنان مسرحى عملاق كانت له

صولة وفحولة .. أبهجنى هذا بل أسعدنى جدا ، وهز قلبى بعد غربة كنت فيها .. كان العمل فى هذا المخزن سهلا وميسورا - خصوصا وأن عزيزة تعرف كل شىء فيه ، وتقرنت على كل محتوياته ، ولها نشاط يتفجر بالونب والمحوية فى كل أرجائه .. نعم ، العمل سهل ومريح فى هذا المكان الحافل الشديد الثراء . إنه محشود بأعلى الأنسجة ، وأعلى الأدوات الكهربائية ، وثمان اللقائف والصناديق ، ومادمت لا تدبر أن تسرق فأنت فيه آمن وهادئ ومستريح ! .

وبدأت نهراقى الرائعة والمحبة بصحبة عزيزة .. إنها فنانة وتعيد الرسم ، بل إنها درستة وتعمقت فيه وأصبح طموحها أن تكون ذات يوم رسامة مشهورة ، فما المانع وهى من نطفة أب عبقري وأم خصبة المواهب والشخصية ! .. وطول النهار أقرأ لها وتقرأ لى .. أرسما وترسمنى .. أسامرها وتسامرنى .. أصارحها وتصارحنى .. ونخرج سويا ، نتبادل الغداء أو العشاء .. عند « الشيمى » الكبابجى أو فى « رستواران الريجنت » ومعه الأكواب البنفسجية من عصر عناقيد النبيذ - وهى مصممة معى بمثل خصال الانجليز ، فمرة أنا الذى أدفع الحساب ، ومرة أخرى هى التى تدفع .. وقد قهرنى منها ذلك إلى درجة الزعل والخناق فنحن فى مصر يا عزيزة .. ولسنا فى بلاد الانجليز الباردة ! .

« العتبة » _____

خطواتى مازالت تنهذى وتردد فى شارع قصر العيقى ..
 أتأمل وأتوقف عند ناصية « قصر الأميرة شويكار » المبهـر
 الرهيب .. أنه يأخذ التربع على رأس شارعين هما « شارع مجلس
 النواب وشارع محمد باشا سعيد » .. نظراتى تسرح على طوابقه
 ونوافذه وأبراجه . جدرانـه المكسوة بـبـلاط الفيسفـساء البنفسجـى
 الفاخر ، وقوائـم أعمدته المطلية بماء الذهب ، بل أتصور أنها مصبوبة
 من الذهب الخالص ! .. والشجر السامق من حوله يهتز تحت شعاعات
 من شمس الأصيل ، فتبرق عيدانه وكأنها تحمل ثمارا من فصوص
 اللآلىء والجواهر .. ويا إلهى ما هذا الثراء الطافح الذى يعلن نفسه من
 قصر هذه الأميرة العجوز الشمطاء - وكل لياليها فيه سيولة من
 حفلات تسميها « خيرية » - من أجل الفقراء والمرضى والجوعى
 والمعوزين .. مياهاها خمر ، وأكلها رقص ، ومرحها مجون .. سرب
 أميرات ونبيلات البيت العالى .. طوابير بنات الذوات والطبقة الراقية
 والهايلـايف .. بارقات لامعات عاريات الظهر والصدور ، والرؤوس
 عليها تيجان وفصوص وأكاليل ... ثم الأمراء والنبلـاء والبشـاوات
 والبيكـاوات والخواجات .. الاشتـاب المبرومة ، والكروش المتدلية ،

والرؤوس الصلحاء .. ومطعمون بنياشين البطولة وميداليات الفروسية
وكأنهم خيول زاهية في حلبات سباق الدرّج الانجليزى .. ثم الشبان
الفاتنون الجذابون يتثنون ويتبخثرون بأعوادهم الرخصة الطرية ،
والموضة شارب رامون نوفارو ، والبنطلون شرلستون ، والرقصة
كاريوكا ، وفوق الرؤوس طرايطر تطير ، وبدار ننثر ، وأنغام تهيم ،
وضحكات تفتح ، وخلاعات وشخلعات ، ولوتاريا ومزاد ، فكم تدفع في
القبلة الشهية التي تبرعت بها بنت الأكابر وسليمة المجد والعراقة آنسة
ميمى وآنسة ريرى وآنسة زيزى .. وفي سبيل الفقراء والتعساء يهون
البذل والعطاء ، ألا أونا ، ألا ديو ، ألا تريو ! .

.....

أستدير بموجع نظراتي ، فقد أضاعت من خلفي فجأة على الضفة
الأخرى من الشارع ، يافطة نيون خضراء عليها رسم العلم والنجوم
وكلمة « المصرى » شامخة ومختالة فوق هذا المبنى القصير ، مبنى
« جريدة المصرى » .. يخفق قلبي ويرتج كياني ، فكأنها أضاعت نورا
في ظلمة نفسي ، بل تنتشى مشاعري فأتصورها ذات يقوم قريب
سوف تقفز فجأة وتنب فجأة ، لتعطي قمة قصر شويكار هذا وغيره من
قصور ! .

الساعة الآن السادسة - ونظراتي ترتفع نحو يافطة الشارع الذي
وقفت عند أوله - وقد حان أن أحسم التردد فأخذ خطواتي فيه إلى
حفلة عيد ميلاد « مجلة الساعة ١٢ » ١ .

أتأهب وأستدير لأخذ خطواتي ، فهذا هو أول دخول وأول ظهور
لى على العتبة من بلاط صاحبة الجلالة .. هذا هو شارع محمد باشا
سعيد ، يا شدة ما أخذت الشهيقي على البعد لأتنفس هواه ، ففيه
عديد المواقع الصحفية ! .

فيه عديد المواقع الصحفية ، فبعد خمسة بيوت فقط من بدايته ،
توجد يافطة معلقة على بيت « مجلة روز اليوسف » ! .. بيت قديم

فسيح من دورين ، هالك المنظر ، ومستهلك العالم ، ويا غرابة ما يتحول منظره في أحلامى إلى دندشة قصر أبهى وأحلى بكثير من قصر شويكار ! .. صاحبة المجلة امرأة غريبة ، قصيرة القامة مستديرة الوجه ، مقوسة الأنف ، منحوتة الملامح ، ومنذ زمان تقتحم خيالى بجرأتها واندفاعها - ولعلها قبل « مى زيادة » هى إلهامى واقتباسى من حلم مى الصغيرة الصحفية والكاتبة ! هذه المرأة المثيرة - وعجيبى كيف فى هذا العصر المجلود بالتزمت والجمود وفضت التقاليد ، تشق طريقها بل تخوض الميادين ويكون لها روح المغامرة فتعلو هامتها هكذا على هامات جبابرة « الرجال » ! .. من منصة المسرح ، وكواليس الأزيكية وعماد الدين ، وغانية غادة الكاميليا ، إلى قمم السياسة ، ومنصات الأحزاب ، وشرفات السراي ، وجان دارك الصحافة ! .. كانت آخر جراحة لها تأسيس « روز اليوسف اليومية » ورئيس تحريرها هو « العقاد العملاق » .. ولكنها لم تلبث أن ارتطمت بالخلاف مع « الوفد » - وكان الوفد وقتها جبلا - فانها لعل عليها وبعرها شظايا .. مازالت تلم شعث نفسها ، فلم تفق من الصدمة بعد ! .

« بيت روز اليوسف » ، ولصق الحائط تماما ، هذا البيت الأشد قدما وتصدعا وعليه يافطة « مجلة الساعة ١٢ » الوفدية .. ناشئة وصغيرة مثل عشرات سواها يغمرها الأمان من عطايا الفتات الحزبى ! .. وإذا تمشيت من بعدها خطوات فى نفس الشارع ، فسوف تقابلنى يافطة هائلة براقة تحمل اسم « مجلة الصباح » كبرى مجلات الفن فى مصر ! .. والفن فى مصر وأهم معالمه الصحفية كباريات بديعة ، وبيا ، وفتحية محمود ، ورتيبة وانصاف رشدى ، ثم كواليس شارع عماد الدين وصلات روض الفرج ، ثم زعيق الأصوات من يوسف وهبى ، وجورج أبيض ، وكشكش بك ، ثم تنافس الألقاب بين على الكسار وفوزى منيب - على من هو بربرى مصر الوحيد ، وصالة

عز الدين وزوجته ماري ! .. ثم الأزيكية ، ومطربة القطرين ،
وأم كلثوم ! .. ولا مانع فالمجلة سمينية من مائة صفحة ولها تذيير ملحق
بجانا من حكاية ورواية. والتمن فقط « قرش أبيض » ! .. ولأنها فنية
أيضا لا مانع أن تستدير بأنفها المستنشق على شارع كلوت بك وحى
الدعارة فى « وش البركة » فكله من ذوى القرى وصلة الرحم -
أخبار الموسسات ، والتحليلات ، والبلطجية ، ومغامرات القوادين بين
العمد والأفندية ! .. لا مانع . لا مانع وخذ منها ما لا يأنف منه أنف
« الشيخ أبو العيون » وأمثاله ، من كرايبج الحراسة على نواصى
الأخلاق ! .. « مصطفى القشاشى » صاحب الصباح - كان
مطبوعيا - وهذا هو الآن ثرى وصاحب عزبة وله عوامة وعمارة ! ..
والعمارة تقع فى شارع محمد باشا سعيد ، ضخمة وفخمة والزجاج فيها
بلور ، والرخام منها مبشور ، وفى الدور الأول منها فترينة مكشوفة
تربض فيها آلات المطابع وتبين منها طرايبش المحررين ! .
ثم إذا تحركت خطوات أخرى من نفس الشارع حيث خط سكك
حديد حلوان ، فسوف أتوقف مبهورا عند يافطة ضخمة بطول
الواجهة وعليها اسم « جريدة البلاغ » ! .. يومية مسائية وصاحبها
هو « عبد القادر حمزة باشا » .. باشا لأنه قطب وفدى وله جسم
وشكل الباشوات ! .. وكانت للصحافة الوفدية تقاليد أن تستقل
بنفسها وحرية رأيا أحيانا مادام الالتزام والشعار هو الوفدية وأن تهب
لنجدة حزبا حين مباغته الأزمات .. وفى الأيام الأخيرة انسحب حمزة
باشا بالبلاغ رويدا رويدا إلى استقلال يوشك أن يعلن انسلاخه عن
الوفد - وكانت تلك جرأة وبسالة منه ، بعد المقتل الذى مازال ساخنا
من روز اليوسف اليومية ! .. وبدأت مقالاته واتجاهاته تحابه وتتحدى
بعض افراط الوفد من ثقته المطلقة فى شعبيته ، وتلفت النظر من بزوغ
الكرامة الصحفية فى الساحة ! .. نعم مقالات عبد القادر حمزة ولها
صرامة المعلم الصحفى - ودرسه للناشئين إذا شاءوا - الصحافة هى

الصدق والمنطق والاعتناع .. وليست التشهير والتهريج والخداع ! ..
وكم تمنيت .. كم تمنيت لو هذه البلاغ تصدر صباحية لتملأ كفة الميزان
مع « المصرى » ، فى ساحة الربا الباهظ من صحافة الشوام واليهود ،
فقراء المساء خاملون أما قراء الصباح ففيهم كل الصحة والحياة
والانتشار ! .

.....

شارع محمد باشا سعيد هذا ، وكم أرقنتى لىالى الغيرة البلهاء ،
ومرسالى له منذ خمسة أشهر هو حبيبى مى الصغيرة تتطوح بين الأذرع
بعطرياتها القصصية وسهامها الراشقة ، وأنا فى الانزواء والانتظار يفتك
بى القلق والخوف أن تذوب فى هذا الخضم الهائج ! .
قصص مى الصغيرة كل أسبوع ، - عطرية وجاذبة - نعم ..
ولكنها مشارط تمرق الأستر عن هذا المجتمع الطبقي المنحل بكل
بذاءاته وتهتكه وصفاقته وفجوره .. ترفع الأغطية عن فجاجته
وتفاهته ، تزيل الأتعة عن غطرسته وهيبته .. تفض عنه تقاليد
المجاملة والاحترام والاعتبار ! .

باب « برج بابل » أيضا .. خواطر الأسبوع .. التعليق على
أحداث الأسبوع .. ونوافذه الجريئة تتفتح على المصراعين بنداات
السخط والنفور ! .. رمى الألقام والبارود فى هش هذا الفقر ، والذل ،
والجهل ، والمرض ، والاستعمار ، والطبقية ، والمهانة ! .. زجيرة
أغليات نفذ صبرها وحان أن يعلو صوتها ! .. دق الأجراس فى أجنحة
الخامدين والمقهورين والمستسلمين ! .. برج بابل هذا - وكان يمكن أن
يهشمه المتسلطون والحراس منذ أول دبيب له وأول خفق - ولكن
فرجة المنظر . حيلة المنظر .. حمته وساعدته بل أفسحت الطريق -
فالكاتبة فتاة حلوة شهية وفواحة ، تلين فتغمر باغراء أصابعها

أحيانا - وشومة الفلاح المنهالة منها تنزل على رؤوس المفتتتين في طراوة
غصن الورد ! .

.....

أمشى في شارع محمد باشا سعيد ..

أقرب من مجلة الساعة ١٢ .. خطواتى بدأت تتعثر ويلفها حيائى
الرفىء التمس ، فإذا كنت قد تمكنت من اتقان الخدعة على الورق ،
فكيف أقدر أن أخفيها من ملامحى الحقيقية التى أبدا لا تقدر أن
تكذب ! .. قلبى فى حالة خفقان شديد .. تأخذنى قشعريرة التهيب ..
ألح أمام باب المجلة بعض الداخلين وبعض الواقفين ، وبوكيات ورد
مسنودة على الحائط .

تقدمت فى خطوات بطيئة نحو الباب ، وتوقفت برهة أمام بوكيات
الورد لأقرأ الكروت ، فقد أرسلت واحدا باسم « مى الصغيرة » ..
أقرأ اسمها المكتوب فترتعب أطرافى وتهز وجدائى ، ثم أقرأ كرتا
يحمل اسم « الفنانة زوزو ماضى » ثم آخر من « الشهيرة تحية
كاريوكا » ! .. أمرق من الباب إلى الردهة وأتوقف أمام لوحة
كاريكاتيرية عريضة كبيرة ألصقت بالدبابيس على الحائط .. الرسم
للفنان « رخا » ، وفيه تحية لعيد ميلاد المجلة التى يرسم لها - وهو فيه
قد رسم وجه « قرفان أفندى » الذى ابتكره شعارا للساعة ١٢ بمثل
شعار المصرى أفندى فى آخر ساعة ، وقد اقتبس له الملامح من
الصحفى العبوس دائئا « محمد على غريب » ! .. والرسم يقدم
« قرفان أفندى » لأول مرة ضاحكا بواسع شذقيه وهو ينحنى بالتحية
لأسرة تحرير الساعة ١٢ - ويخفق قلبى بشدة ، ففى المقدمة من
رسم وجوه الأسرة يلوح وجه « مى الصغيرة » بعودها الفاره ويقلمها
المتشقق وكما يرسمه رخا دائئا فى صفحة برج بابل ! .

أندم وأدخل وعينائى تطلان على الغرفة المحشودة بالجالسين

والواقفين ، وقد غمرهم الصخب والضحك والضحيج ، وأمامهم « تورتة جاتوه » ، وأطباق سندويتش ، وبقى فور ، وفناجين شاي .

« حازم » صاحب المجلة يلحظنى فيترك الحلقة التى كان يتوسطها ويشب ليعانقنى مهتما ومفتبطا .. عانقته واستوقفته فى توسل متلثم أن يتركنى أجلس فى أى مكان .. وألا يقدمنى لأحد ! .. ضحك حازم مستهينا ودفعنى من ظهرى إلى الداخل ، لأجد نفسى فجأة وسط وجوه عديدة ومشهورة أعرف أسماء بعضها من صورهم ! .

قدمنى حازم لهم بأننى زميل دراسة هام وصديق عزيز ، وأغراهم عنى بالدعابة عن أننى « هارون الرشيد » فى مخيم الانجليز بقصر النيل . فكل النهار وعن يمينى عشر جوارى من أحلى حريم مالطة وقبرص والشام واليونان ، وعن يسارى عشر أخرى من فتيات بلاد الانجليز والفرنسيس والأمريكان ! .. تضرع وجهى احمرارا وحاولت أن أدفع عن نفسى عورة المنظر ، فيا شدة ما اضطرب واربتك وتأخذنى اللخمة - رغم عتو ما جرى لى من تجارب - كلما جاءت سيرتى مقرونة بالنساء ! .. حلقوا وتصايحوا وانطلقوا بالقفش واللذع والتتكيت ، فلماذا لم أحضر معى ولو سربا خفيفا يلفظ الجلسة من خشونة حفل الخناشير هذا ! .

وبدأ حازم يقدمهم لى - وخذ أسرة المجلة أولا : - « الدكتور طبيب سعيد عبده » رئيس التحرير - القصصى الشهير وصاحب المواويل ، التى تسقط الحكومات ! .. عرفنى به « حازم » ، فقلت له أننى معجب بقصصه ، مفتتن بأسلوبه وأنه بصراحة أشهى الكتاب إلى نفسى .. وابتهج الدكتور سعيد وشد على يدى ، وأحسست أننى رشقت قلبه بما قلت ، فقد أطلق ضحكة ناحلة وهو يضع يده متوددا على كتفى ! .. ثم « محمد عبد المنعم » أو « رخا الرسام » جسمه المكتنز ووجهه الطفولى وعينه الباسمتان .. أنه أول رسام كاريكاتير مصرى

بعد « رفقى » و « صاروخان » .. ريشته السيالة تتدفق في الجداول الصحفية ، فهو يرسم ثلاثة أرباع مجلات مصر الأسبوعية .. المؤيدون أو المعارضون لا يهم .. فرأيه السياسى الخاص بات يحتفظ به لنفسه فقد حاول ذات يوم أن يدس رأيه فى ثنايا رسم أورد فيه تعبيراً يس شرف الذات من الملكية المصونة ، وكان نصيبه السجن عاما ونصف عام ، خرج منه أشد مرحا وأكثر دهاء ، ويكفى اختيار الرمز من « قرفان أفندى » ليكون شعار المصريين فى ذاك الزمان ! .. قلت له هذا فضمنى إليه فى حضن رحب ! .

العضو الثالث فى أسرة الساعة ١٢ - واسمه « فتحى الرمل » .. وجيوبه كما قال رخا سوف تجدها مكدسة بالمقالات من كل نوع ومن أى نوع ، معارض ومؤيد ومحيد وما شاء الاسترزاق أن يفرد قلوعه - ولكنه فى حقيقة نفسه ممسوس بالشيوعية فهو ماركسى لينينى . وله طموح أن يصبح زعيم البروليتاريا المصرية ، وقريبا كما قال سوف يرشح نفسه فى البرلمان عن العمال ! .. توقفت أمامه مبهورا أهز يده ، بل أعطيته نظرات القربى من ذات يوم فى الاسماعيلية الثانوية - حين دهمت أفكار الشيوعية ، وخصوصا بعد أن قرأتها عن « سلامة موسى » فجمعت عنها كتابا أحاول أن أؤسس فيه « يوتوبيا » جديدة لهذا الشرق المصرى الخامد ! .

عم « أحمد حسن » المندوب الأخبارى العجوز ، وله مصطبة حافلة فى كل مصلحة ووزارة ، ثم « صالح عراقى » ، محرر الشئون العربية وأى شئون أخرى تريدها المطبعة .. ثم « ميكى ماوس » - عبد الله أحمد عبد الله - فأر السراييب داتها فى كواليس الفن . يفطر عند « زينب صدقى » ، ويتفدى عند « زوزو ماضى » ، ويتعشى مع « الفاتنة كاريوكا » ، وكل ساطعات الصالات والشاشات والكباريات يجري من خلفه بمخالب القطط فى شدة ما يضربنه بكعب الشبشب أحيانا إذا لم ترقهن لوامع أخباره ! .

هؤلاء هم أسرة الساعة ١٢ - الضيوف والجيران ، ومعظمهم من الجارة لصق الحائط بيت « روز اليوسف » .. فهذا هو العم « محمد على غريب » « قرفان أفندى » جالس أشد اتقاناً مما يرسم رخا من بوزه المخطوط وتجاعيد السأم والنفور - من كل شيء حوله ! .. « إبراهيم خليل » - حنون الكواليس في عماد الدين وتخيف الإدارة في روز اليوسف ، فهو الذى يصرف ويحاسب ويعطى السلفة للمحررين ! .. ثم « على بليغ » الديك الصحفى الناحل العريان والمشرئب .. دائماً يعرفه الملون وراء الأسرار والأخبار ! .

ثم هذا الشاب « إحسان عبد القدوس » ابن السيدة روز - وكم هو وسيم وحالم وخجول ! .. ثم سليلط اللسان قبيح التحايا « صلاح عبد الجيد » ، وقد يادرنى يطلب سيجارة ! .. ثم أخيراً هذا الشاب الساكت المنطوى والذى جاءت جلستى لصق كتفه ، لم يهتم أن يقدمه لى أحد . فقدم لى نفسه فى تودد فاسمه - « محمد حسنين هيكل » ، وهو سكرتير التحرير فى روز اليوسف ..

.....

جلست مأخوذاً ملخوما ترفرف عينائى على الوجوه والمناظر ! .
 اختلس اللقطات لنفسى وأطبعها فوراً لتنتشر فى رعية مشاعرى ..
 أحاول أن أكون هادئاً متزناً رصيناً - ولكن عندما جاءت السيرة -
 عن مى الصغيرة - وبدأ القفش والفقس والرمى والتنكيت - يا إلهى
 كم التوى عنقى من ذبح الأثم عن هذا اللذع الماجن الذى أنطلق ..
 طويت رأسى متماسكاً ، وبرودة الخوف والحجل تسرى فى جسدى ،
 فقد بدأت الأنياب تهش سيرة حبيبى ، ويميل على « هيكل » وقد
 اكتشف انكماشى مثله - ويسر لى فى ضحكة هامسة وجريئة ، أنه يقرأ
 قصص هذه المدعوة « مى الصغيرة » عدة مرات ليعيش معها فى متع
 الأحلام قبل أن يستلقى وينام ! .
 أخفضت رأسى .. ولم أتمالك نفسى فضحكت .. أخذنا نتبادل

الكلام ، ثم اندمجنا في التعارف ، وعندما سألته عن عمره ، تبين أن الفرق بيننا بضعة أيام فقط .. ثم عن اسمه ، فلماذا أوقع نفسه في مأزق الاسم من سياسى شهير وكبير وصحفى وأديب مثل محمد حسين هيكل باشا ؟ .. فتمتم ضاحكا - بأنه ربما يركب اسمه يوما فيصبح أشهر منه ! .. فضحك صلاح مقهقهة وهو يعلق عليه بوصف لاذع ! . لم يزعل هيكل بل بادل الضحك ، وكان واضحا أن صلاح له سلطة ونفوذ عليه فبمجرد أن استدار ليقول له همسا : - دعنا نخرج من هذا المكان فقد شمت بوز « عمك غريب » و« غلاسة » إبراهيم خليل ، حتى قام وأطاعه فوراً - بعد أن سألتى إذا كنت أرغب فى تسلل الانصراف مثلهم وصحبتهم ؟ .. فوافقت فوراً - وأنا أحس بالميل إلى هيكل هذا بالذات ! .

.....

تسللنا من الباب ، ثم بمجرد أن وصلنا إلى الشارع هرولنا نجري قبل أن يلحظنا أحد ، ونحن نطلق ضحكات شبابية صاخبة مرحة ! .. وتوقفنا عند ناصية الشارع ، وكانت الساعة قد أصبحت الثامنة والنصف مساء ، فقال صلاح سوف أعزّمكم الليلة على سهرة فى « الكيت كات » ، ولن نتكلف إلا مصاريف المواصلات وبقيشيش الجرسونات ، فهيا كل واحد ينفض جيبه بما معه من رصيد ! . اضطرم وجه هيكل بالحنجل وهو ينظر نحوى - واعترف أنه ليس معه إلا قرش واحد قد استبقاه لتذكرة العودة ! .. أما صلاح فقد أفرغ جيب بنظونه بطريقة البوهيميين وأبرز « رايلا » فهو مستعد للاستغناء عن نصفه ! .. وفى حرج شديد أخرجت لهم جنيها ، فبحظت عيونها عليه فى دهشة ، وأسرع صلاح يختطفه منى مهللا - فيه يمكن أن نلف على كل صالات المدينة ! . استوقفتها عن مشروعها هذا فعندى عزومة رائعة مفتوحة ،

ولا مانع أن يصحباني إليها إذا اتفقنا .. دعوة من « بيكى » فتاة البيع
عندنا في قصر النيل ، والليلة حفلة خطوبتها للملازم الأمريكى
« نورمان » - فقط يا بعد المشوار - فهو في « ضاحية الزيتون » ! .
عائفتى صلاح في حرارة وهو يدس الجنيه والريال في جيبه - فتلك
ميزانية المواصلات ذهابا وإيابا .. بيننا تألق وجه هيكىل في بشر وراحة ،
وهو يضع ذراعه في ذراعى ، وعلت صيحة صلاح في الشارع تستوقف
التاكسى ، وإلى الزيتون يا أسطى ! .

« الإسلام »

القاهرة ٤٤ و ٤٥

وتنضى الأيام والأشهر والسنوات ..
حرب هتلر لاهثة في أنفاسها الأخيرة .. الغلاء يزداد .. أثرياء
الحرب يتكاثرون .. الفقر والبطالة .. الطبقة والمهانة .. السخط
والتمرد .. عيون الناس فيها تحد ولمعان .. جيل جديد يتحفز ..
والقاهرة في جوفها قلابة .. !

استأجرت غرفة بنسيون أخرى في « باب اللوق » ! .. لا لم أترك
بنسيون « كنج فيليب » بالفجالة - فقط هذا البنسيون الجديد للراحة
والخلوة ، وأنا معه لا أحتاج إلى مواصلات وما أتفه أجره .. فحياتي
الآن في دائرة لا تخرج عن منطقة الانتيكخانة حيث مكان عملي في
قشلاق قصر النيل .. ثم هذا الشارع الحبيب محمد باشا سعيد حيث
مجلة الساعة ١٢ ، والتي أصبحت أتردد عليها يوميا وتأسست لي فيها
قاعدة من أصدقاء جدد ، ومعارف جدد .. وعائلتي الجديدة وكلهم
كتاب وصحفيون وفنانون !

.....
ومنذ تلك السهرة في ضاحية الزيتون - أصبحت لي عائلة صحفية
حارة الأواصر - تجتمع أولى خلاياها من « صلاح عبد المجيد »
و « محمد حسنين هيكل » ..

ففى تلك السهرة - ومن شدة البهجة والشبع والاستمتاع -
سرت فىنا دفقة من حب وصداقة ، فأعمارنا متقاربة ، ومستوانا
واحد ، وأحلامنا شبيهة ..

سعدنا يومها بأنفسنا جدا ، فالسهرة خواجاقى . ونحن « أولاد
البلد » ضحكنا على كل شىء وعلى لا شىء .. « وهيكلى » يتضرج
وجهه احمرارا كلما طلبته فتاة للرقص .. و « صلاح » انطلق مهرجا
خفيف الروح .. و « أنا » - أبدو مزهوا وملخوما كالديك الأعمى
بينما صديقات « بيكى » المتألفات المتحررات يكرمن جلستنا المنزوية
فى الحديقة بعديد الأطباق والأكواب والزجاجات والمجالسات .. نعم ،
تصاحبنا واندجنا إلى درجة الولع - وكل يوم لنا لفة أن نلتقى
سويا - حتى لو تسكعنا فى الشوارع والمقاهى وعلى ضفاف النيل ..

« صلاح » لسانه ذئبى وتعايره فاسقة ، واقتحاماته جريئة
وماجنة - وقد اكتشفت بعد تعلقى به أنه ليس من نوعى أبدا ، ولن
أكون من نوعه أبدا ، بل باتت الصلبة معه - بينى وبين نفسى -
مخجلة ومخرجة .. ولكنه كان منتشرا صاحبنا ، ودائما يبهرنى بحفريات
الكنوز فى سراديب القاهرة الفنية .. سهرات زكريا أحمد . وجلسات
يبرم التونسى .. وحلقات الضحى والليل من شرفة « كازينو
بديعة » .. وجلسات الريحافى ومقاهى عماد الدين .. اليوديجا ،
والركس ، وبيت المهدى ، ونقابة العوام ، وليالى « الزار » فى شقة
« فتحة محمود » ! .

صلاح منتشر ويزهو أنه صاحب مدرسة فى الصحافة اسمها
« مدرسة الصفاقة » .. مدرسة لا تخجل أن تسأل أرملة الزعيم المتوفى
أمس عن خيانات زوجها الراحل ؟ .. أو تسأل « زيور باشا » البدين
جدا فما رأيه فى منظره عاريا أمام المرأة فى الحمام أحيانا ؟ ..
أو تستقصى من زينب صدقى « فيقال أنها تستحم بالبلن

والقشدة !! .. ثم أن له الدروس الخصوصية أيضا عن مدرسة اتسع انتشارها في تلك الأيام اسمها « الفبركة الصحفية » .. وعلى أى مقهى وعلى أى رصيف يمكن أن تجلس وتحرر مثير الأخبار وتؤلف بارع الأحاديث دون أن تتعب نفسك فالفبركة أسهل ! .. مدرسة تعسة توزع المش والقش في ساحات اللامبالاة . وربما رضع عزيزى هيكل منها جرعات كثيرة قبل أن أراه وأعرفه ، فذات يوم وقعت في يده مجلة أجنبية وفيها « حديث للكونت شيانو » عن موسوليني وإيطاليا والحرب ، فاحتلى بها وكتب صفحتين عن مندوب المجلة من القاهرة وكيف سافر وقابل الكونت شيانو ، وشرب معه النبيذ ، وتبادلا سيجار الهافانا ومزة الكافيار ، وأدلى له بهذا الحديث المدوى الخاص والذي تنفرد مجلتنا القاهرية بنشره !! .. هيكل منطو دائما وله انكماش النمى تحت أى مطر أو خطر .. متربص لوثبات الفرص ، فطموحه حارق للوصول - مع تلك الصحافة - إلى أعلى القمم وبأى الطرق ، وكثيرا ما أرهقني بوقفة الساعات أمام فترينة الانجلو والماشيست ، ويقلب في المجلات والصحف الأفرنجية وأنفاسه تلهث لو يقدر فيشترها كلها ، أو لو يسافر وينضم لبلادها .. أما أنا ، فمازلت قاطع تذكرة في ظلام قاعة سينما أنخبط بحثا عن مقعدى ، ولا بصيص أمامى إلا هذان الصاحبان ! .

.....

ومع عزيزة أو « موناليزا » كما كنت أغازل ابتسامتها الشفافة الدائمة ، فعلاقني بها سارية وجارية .. علاقة هادئة وعاقلة وبلا اندفاع - فكلانا يطل على مستقبله - وآخر ما قررنا أن نفكر فيه هو هذا المخيف المرعب الذى اسمه « الزواج » .

فعزيزة - وثقاتها الانجلش كوليج - تراه احتكارا ومللا يقتل أى حب ، وصفقة خاسرة للمرأة يتحول فيها الرجل - وخصوصا الشرقى - إلى مستعمر ومبتز وطاغية ! .

أما أنا المتمرد على التقاليد .. الباحث عن كل جديد - فأراه حلا واحدا من مائة حل مفقود وتائه في غياهب هذا الفموض .. علاقة عاقلة رصينة عفيفة ، غير تلك التي ألهبتني وأذلتني وأوشكت أن تصل بي إلى التلف مع النارية السادية الهوجاء « ماري » ! .. أبدا لم يخطر الجنس على بالنا .. اندمجنا في باقة روح أريجها الفن والالهام .. هي تنشد أن تحترف الرسم ، وأنا في الطريق لأكون عضوا في بلاط صاحبة الجلالة ، وطموحها ذات يوم أن تنضم معي إليه كي ترسم قصصى ورواياتى في أشهر وأكبر الدور والمجلات ! .

عزيزتى الموناليزا المصرية والعلاقة سارية ومستمرة ، - رغم أنها تركت العمل في قشلاق قصر النيل منذ بضعة أشهر ، والتحقت بمبنى استعلامات الجيش المجاور ..

تركت العمل بعد واقعة مؤسفة عنيفة - سببها هذه الرعناء ماري ! .. فذات يوم في فترة راحة الظهيرة ونحن في المكتب سويا .. أنا وهى .. نتسامر ، وأحكى لها عن أخبارى ونشوة تنقلاتى في شارع محمد باشا سعيد - وهى جالسة تنصت في شغف وقد انهمكت تتسلى برسمى على شكل « مسحراتى » يدق بالطبلة في الليل على بيوت شارع محمد باشا سعيد ! .. ونحن هكذا ظهر « الميجور كول » وفي ذراعه ماري ، يرحان ويضجان ويفشيان غرامهما الصريح على مرأى من الجميع .. منظر ممض طبعاً ، فهو حركات شغب واستفزاز من ماري حين يحلو لها أو تصور أن تلهب ما خمد من غيقتى .. أنها تراقب علاقتى بعزيزة بعين القطة الغضوب التي اختطفت منها مواليدها .. ويا إلهى فمتى يهدأ الاعصار من هذه الفتاة ؟ .. نزوات جموحها تلك فماذا تقصد بي أو ماذا تريد أو ماذا عادت تطمع منى الآن - أنا خاوى الوفاض حائر المستقبل - وفي يدها صفقة ابن لوردات ممتلئ وغنى ويراقي ! .. لقد توقفت هذه الجارحة وراء ظهر عزيزة برهة تتملئ

من الرسم ، ثم أطلقت ضحكة رنانة مستخفة عن يواخ المعنى من هذا الرسم .. وردت عزيزة عليها في حدة بأنها أمور لن تفهمها ، ويجب أن تحترمها ! .. وانفعلت ماري في غيظ وأكدت على أخطاء في الرسم ، بل تجرأت في حركة مياغته سخيفة وأمسكت بالقلم تصحح أو تشوه فيه ! .

وهنا - حدث المنظر المرعب الغريب - من عزيزة .. تحولت فجأة إلى شكل لبؤة هائجة تتفتح منها الأنياب وتخرج المخالب .. خطفَت ورقة الرسم من يد ماري ثم في صيحة تشبه الزئير أمرتها أن تنصرف من أمامها فوراً ، وإلا ألقت بما في تلك المحبرة على وجهها وثيابها ! .. تراجعت ماري مذعورة فقد بدا منظر عزيزة المريد المنفعل على استعداد لتنفيذ هذا الأمر فعلاً .. أدهشني منظر عزيزة وسرت البرودة في جسمي ، يا غراية الخفي من أمور النساء حين تتحول نعمتهن فجأة إلى ضراوة وشراسة .. وقيل أن أعمل على تهدئة الموقف ، تحرك صديقي الأحمق « ميجور كول » ووجهه متقد بمثل قرص النار الأحمر نحو عزيزة وقد ضايقته تلك الاهانة منها لخطيئته ، وألقى الأمر على ماري بأن تظل في مكانها فلا تخرج فهو الرئيس الذي يأمر هنا ! .. وبسرعة تحول المشهد إلى بارود وفتيل قد بدأ فاشتعل فعلاً - فقد ظهر على كول أنه مصر على رد الاهانة لعزيزة ، وخيل لي أنه سوف يخرج عن تحضره فيصفعها ! .. قفزت أقف أمامه وجهها لوجه ونظراتي حادة ، ومنظري يقول له سوف أضربه طبعاً لو فعلها ! .. ولكن عزيزة رفعت رأسها واختلطت حقيبتها وزعقت فيه بكيريا - إذن فسوف أخرج أنا ! .. ولم تتمهل .. اندفعت خارجة ، بل اختفت فجأة بحيث لم أتمكن من اللحاق بها ! .

سئمت بعدها قشلاق قصر النيل هذا .. ضقت ذرعاً بحماقات ماري .. يئست من تخبطات كول ، فكم جعله هذا الحب الشاذ سخيلاً بل منفراً .

وغابت عزيزة عن عيني بضعة أيام - يا لهفة قلبي وحيرة عقلي
وقلق نفسي من غيبتها تلك - .. اختفت عن أى مكان اعتدت أن
أجدها فيه .. منظرها الغريب الذى فاجأنى فى طباعها ؟ .. هل هى
غاضبة منى ؟ .. فماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ .

و ذات يوم وأنا خارج من بوابة قصر النيل ، وجدت ها واقفة تنتظرنى
مع فتاة زميلة لها فى العمل اسمها « تماضر » اندفعت نحوها متلهفا
ومتسائلا ومعاتبها ، فأعطتني الراحة فورا من صفاء نظراتها وعودة
الابتسامة الشفافة إلى وجهها الموناليزا المصرى الخلاب ! .. وأخذتها
من زميلتها وعلى فمى مائة سؤال وسؤال من حول ما حدث وبعد ما
حدث ، ولكنها وضعت كف يدها على فمى فى رقة فلا داعى .. أنها
الآن تشتغل فى الاستعلامات ومرتبها أكبر ، وعملها أسهل ومهذب
ومريح ولقفتها الآن أن ترى « فيلم استر وليامز الجديد فى سينما
مترو » . - وهذه هى قد قطعت التذاكر وتعال حتى يحين الموعد
نتمشى ، واحك فى أنت عن أخبارك وآخر قصة كتبها ؟ .

آخر قصة كتبها اسمها « لعبة المجد » .. صراع المناظر أو تمرد
المناظر فى غابة الاقطاع والطبقة ! .. وآخر برج بابل كتبته عن
العدالة الاجتماعية التى تحدث عنها فى جريدة الأهرام « دولة اسماعيل
صدقى باشا » .. عدالة اجتماعية ؟ ! .. وتعالوا نطل على نوعها فى
قصور جاردن سيقى والزمالك والشوارع مغسولة بالطر والصابون ، ثم
نأخذ النظرة على الأكواخ والعشش والوحد والبيوت الصفيح فى
عشش الترجمان والدراسة والكحكيين ! ! .. تعالوا نمسك الميزان من
« فاترينة عكاوى » وفيها - غويشة بالفصوص - وثمنها يشترى حى
الشرايية برجاله وحريره وأطفاله ! ! .. قفوا نأخذ اللقطات من رشاقة
العدالة الاجتماعية ، بين العابرين والشوارع والأزقة والحوارى وثلاثة
أرباعهن « حفاة » بلا حذاء أو شيشب أو حتى قبقاب ، أما الربع

الباقى فله تنحنى العدالة ويستريح منها الضمير وهم يختالون فى الحذاء اللميع وعليه غطاء من الجوخ والقטיפه !! .

« مى الصغيرة أصبحت يافطة كبيرة مرموقة فى الشارع الصحفى الصغير .. وأنا رسولها أو مندوبها أو فلأكن من أكون ، فقد خفت التساؤل رويدا رويدا بعد الاصرار المغالى منى بين خاصة الأصدقاء والزلاء على أننى لست هى .. حدث الاستسلام الياسم منهم فقد تخرجوا أن أغضب وأتركهم فيفقدوا الجذوة منى ، فقد أصبحت بينهم محبوبا ومرغوبا ومطلوبا .. خفت التساؤل بين الخاصة والقربى ، ولكنه لم يخف أبدا بل استشرى وتضخم بين القراء وغرباء الشارع ! .
يا لها من حكايات .. يا لها من نواذر ..

وذات مرة أعلنت الزعيمة - فاطمة نعمت راشد - عن تأليف حزب سياسى عن نساء مصر اسمه « الحزب النسائى الوطنى » سخريه طبعاً ، وقد هرول الكاريكاتير الصحفى من ورائها بالذع والهزء ، فقد كانت للست فاطمة هذه تقاليع بئث تقاليع الشيخ أبو العيون - الذى يطارد النساء العاريات على البلاجات ! .. وعن هذا الحزب وصلت الدعوة بالانضمام إلى الكاتبة « مى الصغيرة » ولأنها لا تقدر أن تنضم أو تظهر أو حتى تقتنع ، فقد ظهر لها مقال تسفه به ظهور هذا الحزب ، فهل ينقصنا فشل أحزاب الرجال ليمتطى الفشل أيضاً ، أحزاب النساء !؟ .. ولقد انطلقت المعركة بعد هذا المقال ، فقد ردت الست فاطمة رداً قاسياً ، فردت مى أشد قسوة واندلاعا .. وتطايرت برقيات وخطابات التأييد ، بل مقالات منفعة لى الصغيرة تحمل اسم « أسما حليم » « وكوثر منصور » ونازلى فؤاد » و « حكمت أبو زيد » و « سعاد الرملى » ! .

.....

مى الصغيرة - وجلستى دائماً فى الساعة ١٢ - مجرد زائر مستديم

لصديقه الحميم « حازم فوده » أبدا لا أمسك القلم والورق لأكتب أثناء وجودى فيها .. أحاذر أن يرانى أحد أكتب حتى ولو كان من أقرب الخاصة .. ورويدا رويدا تساهلت أمام « حازم » فأصبحت أختطف كتابة ما يطلب منى أمامه - فقط عليه أن يغلق الباب بالمفتاح والترباس ! .

سريت بعض القصص إلى الجارة « روز اليوسف » ولعت فيها رمية قصة عنوانها « امرأة » .. بطلتها ولأول مرة من جرؤات القلم القصصى المصرى - « برنيسية » من البيت المالك « أميرة شاذة لاهية ومنحلة ، تسلل خادمتها فى الليل لاصطياد فحول الرجال ، ولذتها بعد أن تبهرهم وتضاجعهم أن تسرق محافظهم وأسرارهم وتضعهم فى مأزق الفضيحة والابتزاز ! .. ثم قصة أخرى « لروز اليوسف » أيضا كان عنوانها : « أعاصير العزوبة » ، والاهداء فى برواز المقدمة من الكاتبة العذراء مى الصغيرة إلى عازب مصر الأشهر عباس محمود العقاد « .. ويومها ، يومها سأل « العقاد » واستقصى بشدة فلماذا لا تخرج « مى » هذه من محارتها فربما ينزلق هو عن صهوة عزوبيته فيتزوجها ! .

.....

انتشرت « مى الصغيرة » وأصبحت فقرة دائمة فى صغير الصحف والمجلات ، من استفتاءات وأحاديث وأخذ آراء - فمثلا هل « عجزت القصة المصرية عن تموين السينما المصرية ؟ » .. وآراء مشاهير وأقطاب القصة مثل « محمود تيمور بك » ، و « إبراهيم رمزى بك » ، و « الدكتور سعيد عبده » ، و « المازنى » ، ووسطهم يتألق اسم القصصية الأدبية « مى الصغيرة » ! .. أو فى مجلة أخرى - « وهؤلاء القصاصون حينما يصفون منظرا واحدا » ! .. أو - « البطل الذى حققت عليه أثناء كتابة قصتى » .. أو « هؤلاء الكبار يكملون قصة

ناقصة عنوانها « ليلة في الجنة » .. أو « ربع ساعة مع مى الصغيرة » والسؤال لها في « مجلة رابطة الشباب » عن « ماذا تفعلين لو أصبحت عضو برلمان ؟ » .. ومى الصغيرة أيضا في « مجلة التلغراف » ، والسؤال لها مع « فاطمة اليوسف » ، و « منيرة ثابت » و « فاطمة راشد » وهل نجحت المرأة المصرية في الاشتغال بالمحاماة ؟ .. ثم هذا المقال من صفحتين في « مجلة الشعلة » وصاحبها « محمد على حماد » والعنوان : « هؤلاء القصاصون ورأى مى الصغيرة فيهم » .. « تيمور » ، و « سعيد عبده » و « يوسف جوهر » و « يوسف حلمى » و « صلاح ذهني » و « محمود كامل » ، و « طاهر لاشين » ! .

وذات مرة أصدرت الساعة ١٢ عددا خاصا عن « السينما » وكان طبعيا أن تشارك فيه ، فكتبت مقالا كان له الدوى والرعب والدهشة في البيت الصحفى كله من وقع جرأته تحت عنوان « نجوم غير سينمائية » .. تضع فيه الزعماء ونجوم السياسة والأحزاب بلا ماكياج ، وبلا باشوية ، وبلا بيكوية ، وبلا صاحب دولة وسعادة وعزة .. - وتعال نشاغبهم بالقلم ، فما الفرق ، وبمثل ما نفعل مع الكسار وشرفنطح والقصرى ؟ ! .

« أحمد ماهر » ، وعبد الحميد عبد الحق ، و « فكرى أباطة » و « عبد الواحد الوكيل » و « مصطفى النحاس » و « اسماعيل صدقى » و « أمين عثمان » و « مكرم عبيد » و « الصوفانى » و « الرافعى » و « هيكى » و « حلمى عيسى » و « عبد الرحمن عزام » و « محمد محمود خليل » و « محمد صلاح الدين » و « توفيق دوس » و « عبد المجيد صالح » و « سنى اللقانى » و « فؤاد سراج الدين » و « حسن نشأت » و « عبد الفتاح يحيى » و « أحمد حسنين » .. و « أحمد زيور » و « البدرأوى عاشور » و « رشوان

محفوظ « و » النقراشى « .. و » صليب سامى « و » فريد زعلوك « و » سيد سليم « ! .

هذا المقال .. ولو كان كاتبه رجلا لسحبته المباحث والمحاكم إلى السجون فورا ، أما وكاتبته فتاة ، فالغمزة والابتسامة والاستهانة تكفى ، ومهما سرح بعيدان الكبريت فى هش الحياة السياسية .. وتماسكت بشدة عن انفجارات الغرور حين ظهر مقال فى مطلع العام وفيه يتنبأ الكاتب الذى هو « فتحى الرملى » ، بأن المستقبل لهؤلاء الخمسة .. أولا : « حافظ محمود » ، ثانيا : « إحسان عبد القدوس » ، ثالثا : « عبد المنعم حسن » ، رابعا : « مى الصغيرة » - والنبوءة عنها أنها سوف تصبح قريبا جدا من كواكب الأدب الإنسانى فى مصر - والخامس : « رمسيس يونان » فهذا هو خليفة سلامة موسى ! .

هكذا رسخت القاعدة من عائلتى الصحفية ، بل انتشرت وترعرعت .. وفى - البداية كما قلت - كانت أول البذرة منها هما : « هيكल وصلاح عبد الجيد » .. ثم أغرى منظرنا « سعيد عبده » فانضم إلينا ثم تبعه هذا المتألق بين السفارات والدبلوماسية صديقى الجديد والحميم « رمسيس نصيف » ! .. ثم أسقطنا « صلاح عبد الجيد » فلم نعد نطبق ضجيجيه وتبذله ونزواته ، واشتد تأزرى وتحالفى مع « هيكل » ، فهو معى يتغدى ويتعشى وأحيانا يفطر ! .. ثم « رخا » ، و « بيرم التونسي » ، ثم « محمد على غريب » ، ثم « زهدى الرسام » وهو دائما يحتال فى الشوارع متنشجا وعصبيا برسومه الوطنية ، ولا يهجمه البنطلون المرقع والحذاء الهالك وهلاهيل ما يرتدى من خرق أو ثياب ، وزيججته فى وجه من ينقده أنه يمثل الأربعة عشر مليوناً حافى وممزق ومملق ! .

ثم تقلصنا من هذا الصخب فأصبحت مجموعتى الخاصة - التى بت لها الوقود والجذوة - هى كهلنا الطيب الفنان الدكتور سعيد ، والنمس

المنكمش محمد هيكل ، والمناشيت الدبلوماسى الرشيق رمسيس
نصيف .

عائلى الجديدة الخلافة ، خيلى التى آوى إليها .. وكان تصنى معها
بل خفق قلبى ، على هذا الديب الذى بدأ يعلن عن قرب أن يرج
الأرض الصحفية .. التوأمان اللامعان « مصطفى وعلى أمين » يعدان
لظهور « أخبار اليوم » قريبا قريبا ! .

« الزلزال » _____

القاهرة ٤٤ - ٤٥

طرحت نفسى على السرير فى « بنسيون كنج فيليب » .. محمقا يأخذنى الأرق فالساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل ، ومن النافذة فالظلام بهيم .. الفجالة هاجعة تماما .. المدينة كلها ساكنة إلا من دقائق الساعات .. عيى على النتيجة الكرتونية المعلقة على الحائط .. نظراق نحوها ضريبة فقتناع مى الصغيرة يكبس وجهى .. تشتد لفائفه من حول وجهى .. مازال أمامه سنتان قبل أن يرفع .. منذ خططت لهذا أصبح الأمر وثيقة واتفاقا .. ولكن يا دعر ما توشك أن تضعف ارادق منذ أيام ويدى المرتجفة تتحفز أن تفك الأربطة ! .

.....

ديبب زلزال زاحف يرج الأجنحة فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة - من قرب ظهور « جريدة أخبار اليوم بقيادة التوأمين مصطفى وعلى أمين » ! .

« التويمان مصطفى وعلى أمين » - ولها خلقة عملاقين ، وشكل مصارعين ، ووهج جماهيرى ينتشر ويروج ويلاً الآفاق .. تركا « دار الهلال » فى مظاهرة تشبه الانقلاب - فقد هرول من خلفها وراء رعية كبرى من الكتاب والصحفيين والرسمين فى تلك الدار ،

ولحق بها رعية أكبر من الكتاب والصحفيين والرسميين في كل البلد ، واختاروا أطول عمارة في شارع قصر النيل واحتلوا الأسطح العالية منها - وارفعى قامتك يا كل مصر لتطول القامات الطويلة من جدد أولادك ! .

« مصطفى وعلى » شابان ارستقراطيان يلهبان الخيال ، فأبوهما سفير ، وأمهما صاحبة عصمة وسبطهما من « باشا مصر الأعظم سعد زغلول » ، ومهدهما بيت الزعامة الشريف المنيف .. نشأتهما أخذت نواصى الحضارة جنوبا وشمالا فهذا نال الشهادة وعاد من أمريكا ، وذاك نالها وعاد من بريطانيا العظمى ، ولهما سنوات صحفية خفيفة منذ التحقا بـ « مدرسة التابعى » ، ليتخرجا فيها سريعا ألفوات وأوائل ويعلن الساحة والمرح والنشوة والحرارة ، وأيضا التدليع الجماهيرى والتهشيك الشعبى ! .

مصطفى وعلى - إثارة ، وشطارة ونجومية تأخذ بالألباب . سرعة الوثب لها - فى عيون الجيل - مذهلة بل ساحرة . والجماهير الحائرة تفرك الأعين عليهما فى دهشة واستغراب ، فهما يهاجمان الفقر والنذل أحيانا وكأنهما تربيما على طبق المش بالدود فى « قرية وردان » ! .. ويهاجمان الطبقة والمهانة أحيانا وكأنهما من مواليد حوش بردق وعزب الصفيح ! .. ويلهبان الحزبية والزعامات أحيانا وكأنهما يمسكان عصاة النبى موسى تشق لها ولقرائنها البحر والصخر ! .

مدرسة التابعى الكهلة ، تلد مدرسة جديدة شابة وثابة ومشاغبة .. لا تخاف ولا تأبه بجبايرة البلاط الراسخين من ملوك صحافة الشوام واليهود ، فهل هم إلا أصنام من جاهلية مصرية حان لها أن تنهشم وتكنس .. نعم مع بدء ظهور أخبار اليوم ، بدأ دعر السوق الشاميهودى خوف انتقاله من صحافة الأغراب إلى صحافة الأبناء .. ودائما كانت لهم القدرة السهلة أن يطيحوا أو يذيبوا أى اقتحام على احتكار دولتهم .. لديهم أسلحة القتل دائما من توزيع أو إعلانات أو

مؤامرات في خفى الكواليس .. أما هذه المرة ، فقد بدأت شواربهم المبرومة تهتز في ارتعاشة العجز والحيرة - فهؤلاء الجدد - تساندتهم عاطفة قومية عارمة .. حفاوة شعبية تهلل لهم بل وتحميهم ! .

.....

الشارع الصحفي وأنا أمشى فيه خافق القلب لاهت الأنفاس ، يأخذنى هذا اللبيب تحت أقدامى وهنا الزلزال في وجدانى ! .. القلق والحيرة وتطايير الأفكار مع ابن الفلاحين بالغ الحياء ، وهو يتلهف على فرصة أن يجد المقعد معهم .. الفرصة مع هؤلاء الجدد المتألقين اللامعين .. الكل يهرول نحو أرض الذهب الصحفي .. ناشئون وقدامى ، فالمستقبل لها .. وأنا أقاسك بنفسى والاغراء يلوى عنقى على ضجيج الانتشار ورواج الالتحاق بالدار الجديدة .. أتعثر بأفكارى فهل هى الفرصة أن أصارح « رخا » أو « مأمون الشناوى » - وقد أصبحا لى من أعز الأصدقاء - فأرجوهما أن يتوسطا لى عند التوأمين .. يتوسطان ؟ .. لا .. لا .. لقد ألغيت الوساطة من مشوار حياى ، ولن أبعد عقائدى سهلا فلا بد أن هناك وسائل أحسن ! .. ترى هل أقدر أن أتجرأ مثلا ، فأستأذن من حياى الريفى اللئس هذا ، وأخذ نفسى إلى التوأمين ، وهاكم غمرة إثارة يا ملوك الإثارة .. مى الصغيرة ولها الآن ضجة كبيرة .. محبوسة فى حى النشأة نعم - ولكن ها هى على استعداد للانطلاق على أيديكم ما شئتم أن تبقى أو ترفع القناع ! .

لا . لن أقدر أن أفعل هذا أو ذاك ! .

تنقلات وتأهبات سريعة وغريبة تغمر الشارع الصحفي ! .. « دار الهلال » تعلن عن استيراد مطابع جديدة بأفخر الألوان ! .. « الأهرام » تسمن صفحاته وتسخو تجديدهاته ! .. « المصرى » له شعبية الشارع اليومى وتجربته ، ولا يأبه بالمزاحمين الصغار ! .. « صحافة الوفد » تطل من الشبايبك فى ضجر وسأم فماذا يعينها ! ..

« صحافة الأحزاب والمعارضة » تأخذها تقلصات الحرقه واللهفة أن يبين أى جديد ! .. « الصحافة المستقلة » تهرش رأسها وتفكر فماذا بعد ؟ .. دكاكين الشارع الصحفى الصغير قنوعة بأحوالها المستسلمة فمم يأخذها الخوف أو الذعر ! .

ضجة انتقال ليست من « الشاميهدية » إلى « المصرية العصرية » فقط - بل من مدرسة التابعى القديمة إلى مدرسة خريجيتها الألفوات ! .. تنقلات من آخر ساعة ، فكامل الشناوى يترك رئاسة تحريرها وينضم متفرغا لأخبار اليوم ، و « التابعى » السائح المرفه فى « كبرى » ونجم حاشية النزهة مع « الملكة نازلى » تنشر له باذخ الصور وهو يرفع الملكة الأرملة الضحوك اللعوب بذراعيه من زحلقة الجليد - وعلى وجهه ابتسامة مختالة تستدرج لنا الهمس والطنين والتباهى ! .. التابعى تصله الأنباء هناك عن الانقلابات التى تجرى فى دولته فلا يأبه ، فهو الامبراطور الخالد وبوسعه أن يعود فى أى وقت ليهش الصغار والرعاع عن تطاولهم على عرش مملكته .. انه لا يأبه ويعطى تعليماته تليفونيا أن يدير آخر ساعة حتى عودة صديقه « الدكتور سعيد عبده » ! .

تنقلات ، وسعيد عبده يأخذ معه « هيكىل » من « روز اليوسف » إلى « آخر ساعة » ويعود « إحسان » - الذى كان فى خصام مع أمه - من « آخر ساعة » ، إلى مجلته « روز اليوسف » .. و « رخا » يفزع العشرين مجلة التى كان يرسمها بأنه سوف يكف عن المعاملة بعد أن تفرغ لأخبار اليوم .. « المازنى » و « الصاوى » و « توفيق الحكيم » و « العقاد » يوقعون العقود بأرقام مرعبة .. إشاعات عن النصف مليون جنيه التى دفعها « الملك » و « أحمد حسنين » للتوءمين كى يطيحوا بالوفد و « مصطفى النحاس » ! .. أو الثلاثة أرباع المليون التى دفعها « عبود » ليرسخ إعلاميا من سيطرة اقطاعيته الصناعية التى ترامت معالمها من « دمياط إلى الأقصر » ! ..

أو « أم كلثوم » التى أودعت ذهباً ومصاغها ضماناً لقرض كبير من بنك مصر ! .. إشاعات وإشاعات .. ومنها من يصارح ويؤكد أخيراً - ولا مليم ، فالتويمان خاوياً الوفاض وما اعتمادها المغامر الأهل إلا على هذا الحافى العارى الساخط المحروم الذى اسمه « الجمهور » ! .

.....

وفى مساء « التعيين لصديقى الدكتور سعيد عبده - يشرف على تحرير « آخر ساعة » .. وصديقى « محمد حسنين هيكل » يسك « السكرتارية » بمرتب صاعد وثابت هو ستة جنيهات ! .. وكان الاتفاق لى معها أن نحتفل بالمناسبة فى أى مكان ، وعلى حساب سعيد الممتلئ طبعا .. وقد جاء الاحتفال فى تلك الأمسية رائعا وبلا قصد ، عندما قابلانى ومعها دعوة من « النجمة البازغة زوزو ماضى » ، فالليلة تقيم سهرة عيد ميلادها فى شقتها الواسعة الفاخرة بشارع الملكة نازلى بجوار « غمرة » ! .

السهرة تتوهج بالنجوم والكواكب .. مزدحمة ونشوانة ومتألقة .. مجتمع غريب صاحب ، يموج مع بعضه ، ولا يسأل إلا عن هناء ليلته ، فقدا يوم آخر ! .. وقد أخذنا لأنفسنا ركنا منزويا للنقد والتأمل ، فمتعتنا فى أى مكان - ومنذ أشهر - أن نكون سويا كل ليلة ونجد جديدا نطل عليه أو ننقده ! .

صديقى . « الدكتور سعيد عبده » يلحق ريقه ، بينا نجمة مسرح الرياحى الشهية « ميمى شكيب » تحب أمامه فى لحمها الأبيض الفاخر ، وتستحلفه فى تثنى الغواني أن يعيد على مسامعها مواله الصاعق الشهير عن « حلمى عيسى باشا وزير التقاليد » ، هذا الذى كان قد أصدر قرارا يلغى به « معهد التمثيل المسرحى » ، فالتمثيل انحراف ومجون ! .. وبصوته العصفورى الناحل انطلق سعيد ينشد لها كل مواويله : بينا عزيزى الحجلول هيكمل يمسح بعينيه المتلمظتين على خمائل العنق والأكتاف والنهود .

صديقاي البريثان الممتعان يمرحان - صوت وصورة - مع من التفت حولهما من نجوم وفانتات ، وأنا شارد وبعيد فحرماني أكبر من كل هذا بكثير .. لهفتي وحرقتي منذ بدأت تلك التنقلات الصحفية ، إلى إشارة الأصبع الذهبية الساحرة من مولاتي صاحبة الجلالة وطريقة أن تأمر لأخذ مقعدى ، كيف بالله فى بلاطها الخاوى من أولاد الفلاحين ! .

عيني تميل على منظر صديقى الدكتور سعيد ، فكم هو بسيط وودود .. وفى أعماق نفسى وقبل أن أعرفه - يلهب خيالى بأسلوبه الراشق المختال ، وقصصه الخلاية ، وموايله القاصصة ، ومقالاته الفريدة ، وأى شىء يكتب فيه فله عطر يتميز ! .. ها هو بجوارى ، وكنتفى لصق كتفه فى حالة صداقة أخاذة .. إنه ريفى مثلى ، ولكنه ليس من طبقتي ، فهو طبيب وأستاذ جامعة ورئيس تحرير ، ولا بد أن لأبيه أرضا وأملاكا ، وإلا فكيف دفع مصاريف الطب الباهظة ؟ .. إنه يكبرنى - أنا وهيكمل ورمسيس - بعشرة أعوام تقريبا - ولكن طباعه الفنانة قادرة دائما أن تذيب فارق العمر ، بل إنه يبارينا أحيانا فى المرح وشطط المآزق ! .. ورغم حبى له وانبهارى به فقد كان يفزعنى منه مقدرة تطويع القلم - فهو يجيد الكتابة عن الوطنية إلى درجة الالتهاب ، ولكنه فى قرارة نفسه يستخف بجداوها .. يهاجم وله مخالب فى موايله الحزبية ، ولكنه بعدها يتمسح معتذرا فما هو إلا محترف ! ..

أسقط رأيه السياسى فى بئر غائرة ، فهو اليوم فى المجلة الوفدية ، وغدا فى المجلة المستقلة ، وربما بعد غد فى الجريدة المعارضة ، فمادام النشر بلا توقيع ، أو حتى أحيانا بتوقيع ، فما هو إلا قلم يأخذ أجرا ! .. نعم كان يفزعنى بتلك الضحكة العصفورية المستخفة كلما تشجعت وأبرزت له بعض الحفى من تربصاتي فى أمور الكتابة للناس .. أحلامى الجياشة فى وطن له كرامة بمثل وطن هؤلاء الانجليز وهؤلاء الأمريكان وهؤلاء الفرنسيين ! .. إحساسى الواثق بأن مصر - بعد حرب هتلر - تقف على شرفة تغيير هائل وجارف .. وتعال أراهنك

عزيزى وأخى الكبير على أن « فاروق » هو آخر ملك ، وأن الانجليز هم آخر استعمار ، وأن هش تلك الأحزاب وتلك الزعامات سوف يصبح وقودا لمرحلة تحرق كل شيء ، وإن الاقطاع سوف يرتعد من مفزع مصيره فيصرف نفسه بنفسه ، وأن رايات الأغلبية سوف ترفرف ذات يوم عاجل وقريب على ساريات هذا البلد الذى هذا هو منظره فقد نفذ صبره وأوشك أن ينفجر كبته .

تفزعى ضحكته الهازئة المستخفة ، ففيها مرارة إنسان بدأ مثلى ثم بعد عديد التجارب تراجع .. كمن وقعت عليه صدمة كبرى من تلك المثاليات والوطنيات ومازال فيها .. ولعلنى كنت ألاحظ تلك الصدمة الغامضة وانتشارها فى ملامح هذا الجيل كله .. عدواها فى الطباع الصحفية .. كلهم مصابون بها حتى الناشئة الجدد ، محترفون ولا شيء أكثر .. مؤجرون ولا التزام أكثر .. محترفون جدا وملتمزون جدا ، وتذاكرهم قطعوها واستراحوا ، فهم ركاب أكسبريس فاخر ومريح يأخذهم سهلا وهينا إلى محطات أهل الزهو والأنامالى .. ركاب قطار فاخر وسريع ، ومنوع أن تفتح الشباك والإرماك تراب الفقر والبؤس والهزال والمذلة والهزيمة من ثلاثة ألف قرية تبدو كأكوام الطين والقمامة حول النهر البائس .. ولقد حيرتنى تلك الصدمة وعذبنى البحث عن سبب استمرار سريانها ، فهل هى رضاع الاستعمار ، أو التربية منذ المهد فى الصحافة الشاميةهودية ؟ .. أبدا ، فمنذ جيل قريب لاحت الوطنية المصرية فتية يافعة ، وانتفضت الشعبية تقتحم قلاع الصحافة والسياسة ورغم أنف أى استعمار وأى شاميةهودية ، فهل يكون السبب هو انكسار النفس منذ صدمة الفشل من ثورة ١٩ ؟ .. ومن قبلها صدمة الفشل من ثورة عراقى ؟ .. ومن بعدها صدمة الفشل من ترهل حزب الأغلبية وتحوله إلى محاسيب وأنساب وأصهار وشلل قمصان زرق وسواها ؟ .

تلك الضحكة الهازئة المستخفة - كلما كشفت الستر عن ريفتى

المتربة - لم أكن أسمعها من صديقى الطبيب المصدم سعيد عبده فقط ، بل كانت تواجهنى من أرجاء الأجنحة كلها .. تستوقفنى بل تكسفى وتستخف بطموحى وأهدافى ، فأضم نفسى على نفسى فى انطواء الخجل والدهشة .. حتى « هيكل » ، وعندما كانت تتضام رؤوسنا ليأخذنا الهيمان مع طموح المستقبل فقد كان الحلم الأكبر له مثلاً مثلاً - لو يكون موجوداً ومعه كاميرا ليأخذ اللقطة والنبأ من لحظة يقرر القدر فيها أن ينهار هرم الجيزة الأكبر - أعوذ بالله يا ساتر ! - فيكون هو أول من يحمل المانشيت والصورة لصحف كل العالم ! .. وكثيراً ما كنت أشعز منه وأخاصمه لحركات جديدة تعلمها ويوشك أن يصبح فيها أستاذاً .. حركات جديدة أو موضة جديدة اسمها « المقلب » انتشرت وراجت فى تعامل الأرجاء الصحفية ، وأخذوها على أنها مباريات أعماق رياضية ، فالسمك يأكل السمك .. ثم هذا التلفيق الذى استمرأه وأدمنه من « القبركة الصحفية » وخداع العناوين وتقويه الأخبار وتسريب الإشاعات .. أعاتبه أحياناً ونفترق متخاصمين - ولكن نعود دائماً والذراع فى الذراع يجمعنا ولع من حمية صداقة وشباب .. نعود وهمسه التراضى فى أذنى .. كن أنت ولأكن أنا .. - ودعنا لا تناقش أموراً نختلف فيها ، ومن قبلها ناقشها ومارسها من هم أعظم منا وقد أكدوا أن الصحافة احتراف حياة خاصة .. تفرغ حياة خاصة بمثل تفرغ السيرك ونجومه من حيوانات ويهلوانات !.

.....

سهرة زوز ماضى ممتدة .. « اسماعيل يس » يلقي منولوجاته .. « الكحلوى » يغنى جديد بدوياته . « كاريوكا » ترقص .. « عزيزة أمير » وزوجها « محمود ذو الفقار » .. « أنور وجدى » و « حسين رياض » و « ميمى شكيب » و « سراج منير » و « حسن فايق » .. « إلهام حسين » و « محمد أمين » و « وداد حمدى »

و « حسن إمام عمر .. » و « مصطفى وعبد الشافي القشاشي »
و « ميكى ماوس » و « السيد شوشة » و « ليزولين » .. « زينب
صدقى » و « أحمد بدرخان » و « روحية خالد » .. « سعاد
مكاوى » و « عباس كامل » و « إبراهيم ناجى » و « زوزو حمدى
الحكيم » و « لولا صدقى » و « عزيز عثمان » و « بشارة واكيم »
و « حسين فوزى » .. « سليمان نجيب » و « قاسم وجدى »
و « حكمت فهمى » و « عبد العزيز محمود » و « فتحية أحمد »
و « محمد كريم » و « صالح عبد الحى » .. سفرجية من
« جروبى » ، وهدايا من « السرجانى » ، ولفائف من
« شيكوريل » ، وباقات ورد من « على باشا إبراهيم » و « حفى
باشا محمود » و « الخواجة » « مزراحى » و « الخواجة » « بولى » ..
ويسكى . وكونياك ، ونيبذ ، وشمبانيا ، وخراف مشوية ، وندى
محمر ، وبقلاوة ، وتفاح ، وروائح سجائر حشيش ! .
مجمع مخملى باذخ المظاهر ، مرتفع الصوت ، هائل الصيت ،
فلا نجومية فى مصر المعمورة إلا للسياسيين والصحفيين والفنانين ! .
أخفض رأسى .. أفر من حسرة التأمل ، فإن مجموعة صاحبة من
أخبار اليوم الجديدة ، قد ظهرت تتمختر مختالة وكأنهم ديوك الصحافة
الجدد ! .

« الحديقة »

القاهرة ٤٤ و ٤٥

صديقتى العذبة « عزيزة » وصداقتنا سارية في محفة من رقة وعفة وحنان ! .. واحة ظليلة في هجير لافح .. قناة ماء سلسبيل في مناهة جرداء .. أحكى لها عن طحن أفكارى ، وعتو قلقي ، ولظى حيرتى بل لفتى وحرقتى وراء مظاهرة الضجيج من ظهور أخبار اليوم ! .

هذا الإعداد النشط المسرف لمائدة « صحافة مصرية » لا طعم فيها للشوام أو اليهود .. لا مقاعد فيها للشوام أو اليهود .. وفرصة لو أتيت لى فى هذا العرض الباذخ أن أرفع هذا القناع الذى يكبلنى من « مى الصغيرة » ، بل إنها الفرصة لهم يا رباه ، فأين مقاعد الفلاحين ، بل كيف جودة الطعم المصرى بلا فلاحين ؟ .

واضح أنها سفرة عصرية أنيقة ، ولها أنيكت الشوكة والمعلقة والسكين ، وبريق الفراك والسموكن والبويون ، والمعازيم هم أهل الصفوة والصقل واللمعان من صالونات القاهرة والاسكندرية فقط ! . كيف غفلوا عن مقاعد الأغلبية وهم يقولون أنهم من جنود نبتها ؟ . هل هو اجتذاب البداية من سطوة الاحتكار الارستقراطى فقط وبعدها يشمرون الأكتاف ؟ .. هل هى لفافة الأعداد الأولى فقط

وبعدها يفضون الحوائج الشعبية ؟ .. يا دهشتى فماذا يكون القصد من هذا الظهور الطبقي حتى بيننا نحن بسيط المصريين ! .

.....

أحكى لعزيزة والجلسة لنا على ضفاف النيل من شاطئ « روض الفرج » وقد علا صوتى دون أن أدري صاحبا ومحتجا بل اغرورقت معه عيوني ! .. تميل بكل الرقة والدعة والحنان وتغلق بيدها على فمى وفى عينيها عتب على طفولة شبابى ، فأى فرصة تلك التى سوف تضع - وقارب مى الصغيرة - والحبل فى يدك يخربك العباب فى فسبح قادم الفرص ؟ .. ظهور أخبار اليوم هو بداية الشرخ من تهشم سور اللا مصرية ، وأنتظر بعدها عبور عديد القوافل ! .. ثم أنت مازلت فى مقتبل العمر فأى فرصة لك تتوقع أن يصنعها سواك ؟ .. فرصتك بيدك أنت ، وهى أن تظل تنمى من مواهبك وبما منحه لك الله وتستمر بالثقة فى نفسك - وقل يا صاحبي البريء الطيب فأنت لست من هذا الرعيل - وتذكر ما تردده دائما أمامى من أنك ابن أغلبيات نائمة لم يوقظها أحد بعد .. كن أنت من يوقظ فيهم .. هكذا دع قاربك يأخذ المسيرة بين خلجانهم ، وتماسك واصمد ومهما كانت الأنواء فسوف ترسو ذات يوم على الشاطئ المنشود ! .

« عزيزة » وأشعر أحيانا أن فى خصوصيتها « الأم » المصرية الصبور العريقة « الملهمة » وعمرها من عمر هذا النهر ! . هذأت .. تماسكت .. ظهر - عدد أخبار اليوم الأول ، - وكان حافلا بمحشودا مبهرًا ، وله بذخ الشكل من « باشا فخم ومثير » خلع بدلة التشريفة ببنياشينها البراقة ، ودخل فى ثياب « المصرى أفندى » البسيطة الفقيرة بسبحته المدلاة ذات الشراشيب ! .

.....

أدرت ظهري وعدت أفرك يدي على حديقتى الصغيرة فى مجلة

الساعة ١٢ ! . انسحبت من مرحلة القلق والحرمان حول كبير الحداثى ! .. ثبت قناع مى الصغيرة فوق عنقى ، وعزمى أن أكمل له المشوار فى حمية أشد ، ولهفتى أن أسترد ما تخيلته قد ضاع وتطايير من ضعف إرادتى على طول تلك الأسابيع التى شردت فيها وفكرت أن أفنى القناع ! .

الحمية والعزم دائما أجدهما فى يسر وسهولة كلما جلست وأمسكت قلمى لأكتب ! .. « قلمى » هذا العجيب المحير ، ومهما حاولت تفهمه فهو جديد وماكر وغير تقليدى .. ابن من ؟ ! .. أبدا فلا يعطينى أسرار . فهو فى كل نشوة يفاجئنى بالحبايا مما يدخر ! .. والنشوة له لا سواها أن يمتشق حرите وانطلاقه وسيادته وكبرياه .. ويا فزع ما أحس دائما - فهذا أنا أصارح نفسى - بأننا مختلفان بل بعيدان .. بل أنا غير لائق له وغير قادر عليه .. بل يا جنونى أحيانا حينما أتسلل بنظراتى عليه وهو يجرى على ورقة الكتابة ، وكأنما يد أخرى غير يدى هى التى تحركه وتدفعه .. روح أخرى تتقمصه ، وما أنا لها إلا الأصبع التى تضغط له الأزرار ! .

عدت إلى حديقتى الصغيرة - تغمرنى النشوة من حماس تجويد الزرعة فى كل ما أكتب على صفحات الساعة ١٢ .. أحاول مزروعات جديدة ألد طعما .. فاكهة جديدة أشهى مذاقا .. مغرية ، وشهية ، ورخيصة ، لمن يتصادف ويتوقف عند حقلها .. ظهور أخبار اليوم يسرى بالانتعاش والصحة فى أرجاء الخمود الصحفى . يدفع بالتنافس المتأجج الساخن إلى الشوارع والميادين . والتنافس دائما إذا أطلق له العنان فلن تقدر أن تكبح جماحه فيه سر التطور .. هكذا لاح عصر المرأة الصحفية .. بصيص خفيف متردد منه يطل من ثنايا جروأت أخبار اليوم وقد اقتبسته منهم ، وجعلته وهجا بل فنارا أستدير به من أسطح حديقتى الغارقة فى الظلمة والانكماش ! .

فى القصة القصيرة ، فقد أصبحت « مى الصغيرة » جرس مدرسة

جديدة - يدق وينادى على مواهب الناشئين ، ويفرى بسهولة قفز السور ومجانبة الالتحاق . فقط والتساؤل فأين له البوابة والمبنى ؟ .. وفى النقد و« السياسة » والمجتمع « فهى صفارات إنذار تتلاحق من شارع محمد باشا سعيد ، وتدوى وتنذر وتثير الرعب ، عن زحف الأغلبية ودبيبها المسموع فى الطريق . فقط والتساؤل من يسمعها من دفنة هذا اليدرؤم ١٩ .

تحولت الساعة ١٢ إلى نسخة أسبوعية من مشهيات مى الصغيرة وبرايمج منوعاتها .. تضخم بريدها واستفحل إلى درجة الدعاية منها كما نشرت فى برج بابل ، فهى تطالب مصلحة البريد بحصة من مبيعات الطوابع ١ .. وانهرمت الرسائل من قبلى ومن بحرى .. طرقات من تنفس الحرمان والضياح . تفجر الحرمان والضياح .. أغلبية مقهورة تفض كبت نفسها على العتبة الجريئة .. شباب حائر يلثث بأنين همومه وبائر طموحه ويحوم من حول الينبوع الناحل المتدفق .. ثم « رسائل غرام » من معجبين ، ومدلّين ومتيمين - وبأ طرافة الملاح - من ريفيق الخشنة وهى تستحى وترتك وتجار أمام نوع هذا الانهمار .. وكل يوم غريب الأنواع من خطابات بنفسجية وفيها قلب ينزف وبه سهم مرسوم بالدم الحقيقى وزهر جففته الدموع ، وقطرات على صفحات تتندى بالعطر الفواح .. جيل الحرمان يا قلبى يتضور جوعا وتلظا ، خطابات غرامية ملتبهة ، وعروض زواج من عمال وفلاحين وتلاميذ وأفندية وبيكوات . وعجيبة تلك الخلية النشيطة من شباب « اليهود » المراهق .. من « غمرة » و« العباسية » و« الأزهر » و« شبرا » و« بولاق » و« السكاكيني » .. أنهم ألفوا جمعية اسمها « عشاق مى الصغيرة » .. وقوائمها أولاد وبنات ، مثل هذا المثابر للوح « سيمون جاك » و« بنوا يوسف منشة » و« شمعون يعقوب الياهو » .. ومن الفتيات أيضا « سلطنة إبراهيم داسون » ، وأختها « متاتيا » ، ثم « فيكتوريا كوهين » ١ .. يلهثون وراء قصص

مى الصغيرة عن « البنت إيستر » البائعة على الريون فى « شيكوريل » أو « الحلوة مارسيل » بائعة تذاكر « سينما تريومف » .. أو « ليزا » بنت مدام كارل صاحبة البنسيون بعارة عدس ! .. أفردت بابا فى صفحات المجلة عنوانه « القراء الطيبون » ، تحول من ركن فى صفحة ، إلى صفحة كاملة ، إلى ثلاث وأربع صفحات .. وهذا الباب فى تلك المجلة الصغيرة ، بدأ التكريم الشعبى والانحناء للقارئ .. فقد كانت التقاليد للصحافة ، فالرسالة إذا لم تكن هامة جدا ففورا إلى سلة المهملات ! .

تكاثرت علاقاتى وصداقاتى فى الأرجاء الصحفية ! .. « إحسان عبد القدوس » أصبح صديقى الحميم وتساؤله الدائم المتلفه عن جديد القصص عن « مى الصغيرة » وشوقه الذى يصارحنى به أن يقدر فيكتب القصص ذات يوم بمثل ما يقرؤها وتلهيه فى الساعة ١٢ ! .

« صلاح عبد الجيد » - طيب القلب ، رغم أى شىء ، يستعيدنى دائما كلما بعدت أو نفرت منه .. يجذبنى إلى أركان فى الكواليس ، سفلية وغريبة من قيعان القاهرة الفنية والصحفية .. جلسات تدخين الحشيش ، وموائد القمار ، ودوائر النيمة ، والهجص والهنر ، والمقالب .. أتفرج ولا معارضة ، فما جدوى المعارضة ؟ أتزود لنفسى شخوصا ومدادا .. أما العدوى منها فلا . عندى لها دروع تحمىنى من كرامة وكبرياء واختلاف ! أخذت أتردد على « نادى الصحفيين » فى شارع قصر النيل بصحبة « مأمون ورخا » .. أرافقهما وهما يلعبان الشطرنج ، وعينى تملأ نفسها من الجالسين الكبار على بقية الموائد .. علاقاتى كثرت . وانتشرت أيضا بشباب « الوفد » يتردد دائما على الساعة ١٢ .. « ياسين سراج الدين » و « اسماعيل عبد المولى » ثم « حمدى ثابت » و « عبد اللطيف أبو النصر » و « رشاد رمزى » -

وهؤلاء الثلاثة يشتغلون في الرقابة الصحفية .. وتزلفى الدائم يل
توسلى لهم أن يحففوا الوطء من الشطب والحذف عن كتابات « مى
الصغيرة » ؟ .. أما « اسماعيل عبد المولى » فهو شاب صعيدى
صاحب متأجج يحمل لقب زعيم اتحاد الطلبة الوفدى بجامعة فؤاد
الأول ! .. أما « ياسين » فهو ولى العهد الزاحف وراء شقيقه الأفخم
المثير اللامع فؤاد باشا سراج الدين ! .

« ياسين » و « اسماعيل » وبقية الصحاب ، حاولوا أن يأخذوني
إلى المراتع الوفدية ، وتعال يا أخى وقابل فؤاد باشا ثم خذ منحة القبلة
من يد النحاس باشا فماذا ينقصك أيها الشعى لتكون وفديا
مرموقا ؟ .. ولقد رفضت دائما .. تهربت دائما .. فمئذ انقشع سحر
الزعامة من وفاة سعد زغلول ، وفديتى الغريزية قد تسربت وتبخرت
وتحولت إلى وطنية يتيمة راقدة فى الجوانح ! .. علاقاتى وتنقلاتى
انتشرت وكثرت فى أرجاء البلاط من صاحبة الجلالة الصحافة - وإن
بقيت تتحدد وتتركز فى مجموعتنا الرباعية الفريدة ، « سعيد عبده »
و « هيكى » و « رمسيس » و « أنا » .. بل فى أغلب الأحيان هيكى
وأنا فقط ! .. يعجبنى طموحه .. يأخذ بلى ، بل يفتنى وكأنه يهيم فى
عوالم ساحرة سوف يأخذنى إليها معه ذات يوم قريب .. أنا وهو
نجوب الشوارع .. نتسكع أو نحلم أو نتشاجر أو نتصافى ، يقرأ لى ما
يكتبه أصبح له الأسلوب والتعبير .. يشجعنى أن أصبح له ، فقد كان
واضح الافتتان بأسلوب مى الصغيرة ، ومها تدارى ، فقد سرت فيه
العدوى مثل كثيرين سواء ! .

« آخر ساعة » فى عمارة بحرى ويدير تحريرها صديقى المتعرس
« سعيد عبده » ، ويساعده فى السكرتارية « هيكى » ، ومعها طقم
المحررين والكبار والبغار طبعا ، وياقطة اللنيون الخلاية تطل على
ميدان الاسماعيلية الفسيح ، واللقاء لنا يوميا .. وأنا أرفض دائما أن

أصعد إليها في شقة المجلة .. أرهب أن أصعد إليها وعقدت الطفولية المذعورة منذ ذاك اليوم البعيد الحارق ، وأنا أحوم حولها مترددا منهارا ، وفي جيبى رسالة ذليلة للتابعي أفسى له السر عن « مى الصغيرة » وأستمطفه أن يلحقنى بآخر ساعة ! .. عقدة مضحكة طبعاً ، فقد مزقت الخطاب يومها بعد ظهور « حازم فودة » ولكنى أبدا لم أمزق قشعريرة الذكريات من ذاك النهار ! .. كان انتظارى لها دائما أما فى « إيسافيتش » ، أو فى « أسترا » ، أو واقفاً أحملق فى الميدان القاهرى الكبير الذى يطل على قشلاق قصر النيل .

آخر ساعة ورغم ظهور أخبار اليوم وسفر التابعي الدائم ووتيرة تحريرها الذى لا يتجدد .. رغم هذا ما زالت هى الأم والصدارة والقيمة فى الصحافة الأسبوعية .. يكفى مقال التابعي السياسى بقذائف تعابيره وخفايا أسرارهِ . ثم تلك الحلقات القصصية الرائجة التى يرسلها من مراقده الملكية بعنوان « بعض من عرفت » وفيها ما يلهب الخيال من مغامرات وغراميات ونفائس تعابير .

ولكن أخبار اليوم أخذت تمتص الكثير من جاذبية التابعي الصحفية .. الاثارة والشطارة ، والنجومية ، والفهلوة ، والتقليب السهل فى كواليس السياسة وغير السياسة .. امتصت الجاذبية ، ولكنها لم تمتص الرسوخ والقدم والعراقة من آخر ساعة .. ظل التابعي يديرها بطريقة « لاسلكى ماركونى » .. من عواصم يتمختر فيها فى معية الملوك والباشوات والأميرات والاغوات ، والتعليمات المشددة والمخيفة له - وحتى يعود أن لا تغيير ولا شطط من تقليعات صحفية .. هكذا صديقى المصدوم الغامض سعيد عبده يتشاءب فى روتينية تحريرها وإدارتها ، بينما عزيزى الصغير المتأجج « هيكال » يحاول بقامته القصيرة أن يجد الفرصة ليطل من أبراج قلعتها .

صديقى « ميجور كول » تتواصل علاقته مع مارى .. ودهشنى عن هذا الادمان العاطفى الذى يستولد الدود فى النفس فى أى نفس ، فيفتك بالعقل والادراك فيها ، بل يلغى مستوى الحضارة والثقافة منها . تسلطت عليه « فتاة الفجالة » الأمية الهوجاء .. ركبته تماما وكأنه لعبة حصان خشبى فى يد طفل عابث . يغير لغيرتها ، ويحقن لفضبتها ويخفض رأسه ذليلا مستسلما أمام شطط نزقها .. تسلطت عليه تماما ، فقد نقلها بكل أسرتها من الحارة المسدودة فى شارع حبيب شلبى ، إلى شقة واسعة بالانتىكاخانة فى عمارة جديدة ، بها تليفون ، وفريجيدير ، وكل مباحج الأثرياء .. أغرقها هى وأهلها بالمال والهدايا .. حجزها عن العمل فى قشلاق قصر النيل ، فإنها أصبحت خطيبته ، وإن لم يوثق ذلك رسميا يعد فى انتظار موافقات متعددة يجب أن يحصل عليها .. حجزها عن العمل ، بل حجز هو نفسه عن أى انشغال إلا مارى وأهلها ، والشقة وأحوالها ومصاريفها .. أصبح حائرا عصيبا متوترا يتحاشى ويتحاشى نظراتى إليه ، بل بت أنا الذى أتحاشاه وأحذر من غيرته الرعناء أن ترتطم بى ! .. تلك الشقة فى الانتىكاخانة - ولم أذهب إليها إلا مرة واحدة فقط ، ولمدة خمس دقائق خاطفة فى عيد ميلاد الصغيرة « روز » شقيقة الخطيبة .. وقد اعتذرت يومها متعجلا بدعوى أصدقاء فى انتظارى وقوفا فى الشارع .. خمس دقائق فقط ، انصرفت بعدها عندما لاحظت مارى تسكر ، وتتممر أن تبدأ فتتحدى وتتهاهى ، ومن حولها أسرتها والمنظر الباذخ لهم كمن ابنتهم قد تزوجت ملكا ! .

و ذات يوم بعدها بأسابيع - تأبط « كول » ذراعى فى مودة وأنا منصرف معه من بوابة قصر النيل - وكان يبدو مهموما ومختنقا .. وسألنى وأنفاسه تزفر إذا كنت أقبل أن أسهر معه الليلة ؟ .. وقبل أن أرد سارع يقول : - وحدنا بلا مارى ، فإنها سافرت مع أمها إلى الاسكندرية !

وعلى مائدة منزوية وبعيدة في « الميناهاوس » - تحت سفع الهرم - وبعد أن جرع عدة كؤوس ويسكى ثقيلة بلا تلج ولا ماء - بدأ يهذى بكلام صاحب وغريب عن باهظ الثروات والأموال التي تضع يدرا في سفاهة تلك الحرب . تلك الأموال والثروات التي تبدها قنبلة واحدة وتلك البضائع والمعدات والأحمال الغالية التي تفرقها غواصة صغيرة . وكل جنون الانفاق هذا على دخان يتبخر في هواء ، وبارود يذوب في البحر أو في البر أو في الجو ! .. معسكر « جنيقة » الذي كنا فيه ، فهل تعلم مثلا أن غارة ألمانية قد دمرته تماما منذ أيام .. مسحت منه حتى المعالم والجدران ولم تبقى إلا الشظايا والركام ، فهل هذا معقول ؟ ثم ازداد هذيانه فراح يدق على المائدة بقبضة يده وهو يقول ويحلف أنه وبحق يسوع المسيح ، بات حلال أن يسرق لصوكم من المخازن المشحونة بكل غال وثمين بدل أن يفتنيها دمار تلك المعارك .. نعم أنا لا أسميهم اللصوص ، بل الشجعان والعقلاء وأنا احبهم وأنضامن معهم بل أثنى لو أشجعهم ! .. ثم .. ثم ألقى ورقته الأخيرة والتي من أجلها رتب هذا اللقاء .

صديقي ميجور كول - يصارحنى بغتة عن عملية قد رتب لها وخططها وقرر تنفيذها ، لنقل شحنة لورى من صفقة صناديق معدات وقطع غيار ثمينة ، من المخزن الهام الذي أشرف على محتوياته ، وسوف تصلى استثماره الصرف منه ، وما على إلا أن آمر بشحن اللورى ، وعندما ينتهى ويخرج من البوابة ، فكل المطلوب منى هو ألا أدرج تلك الاستثمارة في الدفاتر ، بل أعيدها له ليمزقها وينتهى الامر بسهولة !! أنا أنصت له ذاهلا وقد تلجم لسانى وانحبست أنفاسى ، وهو مستمر فى عرض خطته ، وفى حماس وحيوية أفاق لهما من سكرته . فالشاري موجود والتلميحات أفهمها - فهو من طرف مارى ، ومن أجل هذا سافرت إلى الاسكندرية ، والصفقة سوف تعود علينا

بـ « ١٥ ألف جنيه » سوف يكون نصيبى منها « ألف جنيه » والباقى له ولمارى طبعاً !

أفص صمقى وذهولى فأنطق ، بماذا يا إلهى أنطق ؟ .. وباللهشة ..
يا للهول عزيزى الميجور هاريسون كول .. صديقى الأخلاقى العريق
الشريف ابن اللوردات والأسياد . قف . قف جدا . فأنت تشن غارة
فجائية ورهيبة على قلاع فى نفسى أحتوى فيها لك الصداقة والتبلى
والاحترام .. قف .. قف جدا .. فقد أخطأت النظرة والاختيار فلست
لصا وأبدا لن أكون !

أمسكت يده ونظراتى عليه استهوال وعدم تصديق ، ثم حيرة
وعطف وإشفاق .. سألته هل تلك أول مرة يفكر فيها فى هذا الأمر أم
سبقته مرات ؟!

صدم من ردى وشحب وجهه ، وتقلصت خلجاته ، ثم لآك لسانه
الملتوى وهو يرد متخاذلاً ومصارحاً بأنها أول مرة ولكن .. استوقفته
عن ولكن تلك فهنا الفخ لك والمستقبلك ولمصيرك حتى ولو أمام
نفسك .

عزيزى كول ، وقريباً سوف تنتهى الحرب وتعود إلى الحياة بين
أهلك ، وتعود للتدريس على طلبتك ، فبأى ثوب لهم سوف تعود ؟
هل بثياب اللص أم ماذا ؟

صارحنى وهو يوشك أن يبكى بأنه لم يعد يهتم .. إنه لا يصدق رفضى
السهل هذا وهو يستعيدنى فيه . فهى حقاً أول مرة ولكن تصميمه ألا
تكون آخر مرة ! .. وعندما لمح الاصرار والمصرامة على وجهى ، بدأ
يبكى فعلاً ، وصارحنى بأنه مأزوم جداً وفى ضائقة مالية طاحنة لم يعد
يتحملها .. مرتبه الشهرى كبير نعم ، ولكنه لم يعد يكفى أسبوعاً
واحداً .. ومنذ أشهر وهو يستقطع سلفيات ويستدين من زملائه ! . ثم
أسرته بصراحة لوردات نعم ، ولكن والبقايا معدمة ، ولاثروة له ولا

أملك من قصر قديم وآخر الأنبياء عنه أن قتابل هتلر قد دمرته ولم تبق منه الا الاطلال .

عزيزى كول .. لا .. لن أفعنها .. ولا بليون جنيه .. قل ماشئت فلن يخطر على بالى ولا للحظة أن أفكر فى أمر مثل هذا - وحتى لو كانت فلوس إبليس فلن أفعنها . قمت .. انصرفت .. تركته يتخبط فى الدهشة والذهول !

« الشارع » _____

القاهرة ٤٤ - ٤٥ :

عدت تلك الليلة لأحلق في سقف غرفة بنسيون كنج فيليب
بالفجالة ، وأستعيد المنظر الذى مازال يلهب أفكارى !
المائدة المنزوية تحت الشجر الغليظ فى حديقة الميناهاوس الرملية
وعليها زجاجة ويسكى ومزات ، وأمامى إنسان انجليزى يعب منها
ويتطوح ! . صديقى « الميجور هاريسون كول » واعجابه الانسانى
المتحمس بلصوص المسكرات عندنا ويريد مثلهم أن يجرب ! .. لديه
خطة سرقة سهلة بسيطة ويعرضها على ! .. صفقة الـ ١٥ الف جنيه
ولى منها الألف ! .. يريد أن يجرب ويشركنى معه ؟! . أستعيد المنظر
ونظراته المنهزمة الحانقة نحوى عندما أبيت ورفضت . انكماشه الذليل
الذاهل أمام شكلى الممتنع المترفع .. نصحى له بل زجرى ألا يفعل ،
فإنها سقطة أولى وبعدها تكثر السقطات .. ولكن - هل يمكن أن
يكون قد اقتنع وتراجع ؟ .. لا أظن .. إنه فتيل وقد اشتعل وأنا معه
الآن فى دائرة خطر !

.....

أحلق فى سقف الغرفة والباب مغلق بالمفتاح - فياشدة ما أحس
باليتم والوحدة فى شوارع القاهرة الصاخبة ، أما هنا فدائما عندما

أغلق الغرفة فرصتى ومعبدى ونجواى واعتراىى واستقبال رعاىاى ! .
أحلق الليلة فى سقف الغرفة ضجرا محتجا على هذا الأمر الطارئ التافه
الذى يعيق نشوتى عن فرص الفكر والتحلىق والكتابة .. ولكن الامر
حاسم ويجب أن أتخذ فيه القرار .. صحة العمل مع الميجور كول لم تعد
تنفع بل يجب النجاة فورا من خطرها الواقف !

مشكلة طبعا بعد أن تحدت ورفضت .. تفكيرى ومهما غاص فى
دوامات البحث عن الحلول . فأسهلها على خاطرى الآن أن أترك
وظيفة قشلاق قصر النيل هذه ، بل حان أن أحسم المرحلة فأترك
وظائف جيش الحرب الانجليزى كلها ! .. مرتب الـ ٣٠ جنيه ثروة
شهرية نعم ، ولن أجد مثلها ولا حتى ربعها فى أى مكان - فأين
الوظائف فى هذا البلد المملق ، والعاطلون يملأون المقاهى ويزفرون فى
الشوارع .. وماذا يوسى أن أصنع إذا انقطع هذا اليراد فجأة وليس
عندى أى مدخر ؟ . وكيف أجارى صداقاتى التى تكاثرت فى الشارع
الصحفى - وبعض جاذبيتى أحيانا - هى أن يدى مسرعة دائما إلى
جيبى كلما تطلب الأمر صرفا أو عونا ؟ . أسئلة متلبكة عويصة
طرحتها على نفسى كثيرا من قبل ، ودائما كنت أتسلل هاربا منها فى
صبيانية دلوعة لامبالية ، فمستوليتى أن أفكر وأكتب فقط ، أما أن
أعيش فتلك مسئولية من خلقتى فى هذا العالم الغامض الصاحب
المتلاطم !

.....

هكذا أسئلة كثيرة لن أستغرق فيها إذا ماقررت أن أحسم الأمر ،
وهذا أنا ولا مفر لى من الحسم .. لقد بات يرهق عقلى ومشاعرى
منظرى الخابى المتسلل وأنا داخل أو خارج من بواب جيش الحرب
الانجليزى فى قصر النيل .. العمل برىء وشريف ولا مؤاخذه فيه ولا
شبهة . فهو مجرد وظائف بسيطة خلفية تسند حربا مشنونة وبعيدة ..

وهناك مثل الآلاف من الشبان المصريين وغير المصريين يملأون إدارات المكاتب والمخازن . وهم مجرد تروس في آلة هادرة تهرس بعيدا عن أراضيتهم .. ولكن .. مهما كان الشكل فأنا أشتغل مع الانجليز ورغم أية ورقة معاهدة تحالف ووثيقة استقلال فهم في رشقة العين والمشاعر لمهرف المشاعر الوطنية مثل .. مناظر بغیضة من اعداء ومستعمرین !

حقا مسحت الحرب تأجج العداوة أوقفت الصراع ، فأصبحنا لهم حلفاء ومساندين ، بل ومشفقين أحيانا على ما يهدر من نزيف دماء الملايين من أبنائهم في الميادين .. بتنا لهم أهم محطة تموين .. أصبحنا لأولادهم المحاربين في عراء الصحراء وريد حياة .. بل ربما نحن من خلفهم الآن في حماية من أن تباد القاهرة الغالية العريقة في سرعة تلك الحرب مثل ما أبدت مدنهم لندن وبرلين ! .. كل الحياة المصرية - أفلام وفن وصحافة وسياسة وطباع شارع تهول منجدة ومأمورة تلبى مطالبهم .. فلوس الحرب وسيولتها المتدفقة على قحط الشرق الأوسط - وهنا ينبوع الصرف من القاهرة .. لالست القاهرة هي التي تصرف من لحمها فماذا لديها تلك البائسة غير الشظف والاملاق ، ولكن هم الذين يصرفون على أنفسهم ونحن من حولهم نلتقط واقر الفتات ! نعم فلوس جيش الحرب الانجليزى ردت الرمق إلى مصر التي كان يسفح فيها الفقر والقهر والانهك .. ردت الروح لطواير ملايين الفقراء والمعدمين الذين التحقوا عمالا بالمسكرات .. وبعد الجوع والعراء والحفاء ، هاهم يتناولون أجورا ويجدون مسكنا وثيابا وطعاما .. ولأول مرة يعرفون شكل الجنه في اليد . واللحم في الطبق ، والمخدة تحت الرأس والبطانية فوق البدن ، مصر كلها تشتغل لحساب جيش الحرب الانجليزى ، من أول الملك فاروق الذى يتاجر في التوريد لهم ، ويعزم صفوتهم في صالونات ومخائيل قصر عابدين .. إلى النحاس باشا الذى يظهر معهم واسع الابتسامه وذراعه فى أذرع

زوجاتهم .. إلى « العقاد » وأيضا « طه حسين » وبقية أرباب الفكر
المصرى وأقلامهم مسلطة ضد الفاشستي موسوليني والنازيست هتلر
دفاعا عن ديمقراطية الانجليز والحلفاء .. إلى بقية البلد فى أى بقعة فى
البر والبحر .. فى الريف والمدن .. وفى أى مكان تراه العين قبل
وبحرى تجدد الانجليز والعمل مع الانجليزى وكل الفلوس مع
الانجليز ! .. طلائع أثرياء الحرب بالمئات بل بالآلاف .. باعة
الخيش . وتجار الخردة والتبن والعلف والقمامة يتبؤون مقاعد الأثرياء
ويضعون الساق على الساق وبعد القيقاب فالخدء شمواه والخواتم تملأ
الاصابع ، والركوبة بعد البغلة والحمار هى البويك والبيكار !

التليفونات والمواصلات والسكك الحديدية وكل المرافق وراء جيش
الحرب الانجليزى .. الصحف أيضا ومبنى « دار الهلال » الجديد
الفاخر هذا ، والاعتراف الصريح لنا فقد بناه الانجليز لأولاد زيدان
من أجل تلبية المطلوب من مطبوعاتهم ومنشوراتهم .. « الأهرام » لها
لقمة الكواليس الضخمة ، « والمقطم » عميل صريح ورائج ،
و « المصرى » وكل صحف الوفد تماشى وتجارى وتؤيد وتأكّل على
مائدة الحلفاء طبعاً .. وحتى الجديدة أخبار اليوم فقد دخلت حلبة
الدعاية بفروسيّة أقلامها من مانشيتات وغريب حكايات ومثيرات ..
والقارئ لا يسأل ولا يتوقف ، فعينه مفتوحة مجانا وفى شهية أكبر على
قراءات شغوفة وصريحة ومدهشة من ملمس مليون مجند أوروبى
وأمرىكى هاهم فى شوارع وعقر داره !

.....

نعم ، ورغم كل هذا التجييش العام فقد بات المنظر يرهقنى ويدلنى
وأنا داخل أو خارج من بوابة جيش قصر النيل .. كأننى أحمل رائحة
نجسة للعابرين فى الطريق !
حقاً ومنذ أول مرة التحقت فيها بمعسكر « جنيفة » فى أرض

القتال ، أمسكنى الفرع الوهم بأنى خدشت بل لطلخت ثوبى الوطنى
الناصع إذ أضم نفسى إليهم ولو كموظف صغير مهمته أن يرتب الورق
أو يسجل الأرقام أو يضبط على الآلات الكاتبة ! .. خيّل إلى أنها
سوف تبقى وإلى الأبد وصمة فى تاريخ حياتى .. عار وسوف يلاحقنى
ويلتصق بى أنا الوطنى المرفه المتأجج المتباهى بعراقه وكرامة منبته ..
أجل قضيت فى البداية أياما حارقة طاحنة وأنا أعقد المحكمة لنفسى فى
القفس من خيمة جنيفا تلك .. ولكن - رويدا رويدا خف اللظى
عندما بدأت أتحسس الاختلاط الطبيعى مع مفاجأة تلك البيئة واغراء
هذا المجتمع .. حضاريون ومصقلون ومثقفون ومتفردون ومهما كانت
همجية الحرب التى يتلطمون فيها .. العدل والنظام والمساواة وكرامة
الإنسان هم قبل الحرب فى أول القائمة من الخدمة والتعامل .. بدأت
الاقتراس منهم بان أعاملهم بمثل مايعاملون أنفسهم ، بل حاولت فى
حمية الغيرة من تألق طباعهم أن أبرز لهم دفين الراقى والعريق من
كنوز الاخلاقيات الريفية المصرية فىنا إذا عاملتها ندا بند .. رويدا
رويدا أتانى الاتناع بل الالهام إنها فرصة القدر لى أن أنضم إلى تلك
البيئة فالتحق بهذا المجتمع فيعوضنى عن قطع دراسى الثانوية .. نعم
أخذتها منحة تعليم مجانية وسخية لأكمل مافرض الفقر والقهر أن
أكمّله .. تحولت إلى تلميذ نشيط ومجتهد وجد نفسه فجأة مقيدا فى
أكاديمية هؤلاء الناس .. حضارة هؤلاء الناس ! .. حضارة وقد جعلتها
الحرب الضارية تتعرى عن قشورها فهى واقعية بلا زيف أو خداع ..
فرصة الاندماج فى حياة هؤلاء الناس .. توغلى المستكشف فى
أرجائهم .. تواصل النظر من ثقب الابواب على حياتهم الخاصة
ورفاهية ماهم فيه من وزن وكرامة .. منحة حضارية وسياحية وثقافية
وعمق تأمل وتقليب وجدان - أتانى كل هذا اغداقا سهلا ! .. نعم
أحس أن تلك الاعوام الثلاثة قد عوضتنى عن قطع الدراسة وأنى
تنقلت معها بين مدرجات الكمبيوتر والاكسفورد . وخطبت وصحت فى

الهايدبارك ، وتزهت في الويست اند والبكاديللى ، وحضرت الحفلات مع اللوردات في قصر باكنجهام ، وعشت وثيا ومرحا في الخلايا انغذى من دسم هذا المجتمع الذى يقول العالم أنه الشيع الحضارى والقمة التى لا تغرب عنها الشمس !

أحس أن تلك السنوات الثلاث قد قفزت وصعدت بي إلى شهادات من بكالوريوسات كثيرة وليسانسات كثيرة - اعظم بكثير من تلك التى مازال زملائي في الثانوية يتخبطون فيها على عتبة شهادة البكالوريا ! . وأبدا أبدا لم أرتعب على نفسى أن تصيبني العدوى من أبيئة طباعهم .. حضارتهم الاستعمارية دست فيه العنصرية والغطرسة والمادية والاستعلاء .. ثم هذا الاغراق التعيس في الخمر والشذوذ والغرور .. أبدا لن تسمى العدوى فمصريتي لهم متربصة وجلدها أصيل وسميك وأبدا لا ينفذ منه إلا ما يروى عطشى للثقافة والحضارة والمعرفة ! .. نعم نعم وهذا الأخذ والاتقاع صمدت وصعدت فهذا هو العام الثالث لى في أكاديميتهم - وبوسعى الآن أن أبرزهم وأنفوق - فماذا يكون هذا المشهد الذى جرى الليلة منى امام ابن اللوردات الفاخر إلا أصالة وحضارة أقوى وأرقى وأشمخ !

هكذا تشبعت واكتفيت من أكاديمية السنوات الثلاث تلك .. ولعلنى من شدة الشيع والامتلاء فأنا قادر الآن وبلغنى العربية السهلة ، أن أكتب القصة القصيرة الانجليزية والامريكية والفرنسية . لقد نشرت في الساعة ١٢ منذ أسابيع قصة عنوانها « الشقراء في اجازة » تدور كلها في شوارع وحوارى وبيوت لندن ! .. بل قبلها أيضا قلدت قصة بقلم وأسلوب كاتبهم الاشهر « برنارد شو » تدور وقائعها في أحياء الايست آند الانجليزى ، وكل من سمعها منهم اندهش وراجعنى ولم يصدق ! تشبعت واكتفيت بل بت أضجر من حماقاتهم ونزواتهم ، فلم يعد يلصقني بهم إلا تلك الـ ٣٠ جنيهها شهريا .. وحتى تلك النقود كنت

أتناولها وكأنها لا تخصنى ، بل هى التكلفة المرصودة لمشوارى الصغيرة وتنقلاتها وطرقاتها الحارقة على أبواب اللهفة للمستقبل .. نعم كنت أؤكد لنفسى دائما وأعودها على أن هذا المرتب سوف ينقطع فى أى لحظة . وكل يوم أصحو وعلى أن أواجه الأمر الواقع ولكن الأمر الواقع - يا حيرتى وقلقى - هو أننى يجب أن أصرف وأعيش وإلا مت جوعا وجفافا فى هذه المدينة الانانية ذات القلب الحجر !

.....

وفى الصباح .. ولم يكن « كول » قد حضر إلى مكتبه بعد - توقفت عند « سيرجنت ميدث » وارهاق الأرق يبدو على وجهى بالشحوب والاصفرار .. وضعت ورقة الاستقالة تحت يدها بلا كلام .. قرأتها فى دهشة ثم أقطبت وتجهمت وتفرست فى منظرى فما السبب ؟ .. قلت لها وأنا أحاول أن أبعدو متماسكا بأننى فى طريقى للتفرغ للصحافة ، وما كان عملى هنا أو هناك إلا مرحلة تهديد مؤقتة ! .. راجعتنى فى اهتمام ولكنى صمدت أمامها مصمما فهزت رأسها مستسلمة وضمتها إلى الأوراق حتى يحضر كول !

لم يحضر كول فقد أبلغ أنه مريض ، وقالت لى أنها سوف تستبقى الاستقالة حتى يعود .. ثم قامت تمشى معى فى تودد ، وصمت أن أتناول الغذاء على حسابها فى « الميس » !

« ميدث » فتاة طيبة وذكية - واحساسى منذ عرفتھا رغم نزوات شبابها - أنها تحب رئيسها كول فى صمت وتكتم .. وقد استدرجتنى الى الحديث عنه وهى تشركنى فى أساها عن هذا الاحتراق الذى هو فيه .. الاضطراب الذى هو فيه - وهل كل هذا بسبب هذه الفتاة مارى ؟ . حسنا فالقيادة غير موافقة على هذا الزواج الاحمق فلماذا لا ينحسم الأمر ؟

استدرجتنى « ميدث » فضعفت إرادتى وحكيت لها بصراحة عما

حدث أمس .. الطيش الخطير الذى وصل إليه عزيزنا كول ! .. وقد أنصتت مروعة ومفروعة وشاردة ، ثم عندما وصلت الى مشهد الرفض ونصحى له ، عرتها الدهشة وتغضب وجهها بخجل المقارنة ! .. عادت تحاول أن تراجعنى فى أمر تلك الاستقالة ، ولكنى توسلت إليها أن تكف عن ذلك .. إنه قرار حاسم فى حياتى فأرجو ألا تثبطى من عزيمتى فيه ! .. قالت - حسنا سوف أعرضها ولكن القانون أن تنذر قبلها بخمسة عشر يوما ! .. صدمت وارتبكت فقد كانت لهفتى أن أخرج اليوم حرا منطلقا من بوابة قصر النيل تلك - ولاحظت صدمتى وحيرتى فصعبت عليها ، وقدمت لى الحل على شكل ورقة طلب بإجازة مرضية .. وعندما وقعتها قالت إنها سوف تتصرف فى توقيع الطبيب الذى هو صديقها ، ثم أكدت أنها سوف توالى الاتصال بى تليفونيا عند مدام موريس !

خرجت يومها والذى حدث - وقبل أن ينقضى الاسبوع الذى انزويت فيه تماما - كلمتى « ميديت » تبلغنى أن أحضر غدا فالأمر هام !

وعندما ذهبت .. فوجئت بالخبر الهائل والخطير عن سفر ميجور كول الفجائى .. لقد صدر أمر نقله إلى « سنغافورة » وطارت به الطائرة أمس ولا عودة له بعد هذا إلى مصر ! .. وعندما تلاقى عيناى بميديت كانت عيناها مغرورتين بالدموع وهى تسلمنى رسالة تركها كول وفيها يقول إنها الحرب الملعونة يا صديقى !

فوجئت بالنبا فجلست حائرا متأثرا ، وكانت ميديت تراقبى بنظرات حزينة ولم تقل شيئا .. وبعد فترة سألتها عما تم فى أمر الاستقالة فابتسمت فى ذبول وقالت - بل أسألتى عن العلاوة فقد أصبح مرتبك منذ منتصف هذا الشهر - ٣٥ جنيها !
صحت فوراً وبلا تردد وكأنتى أمتنع عن نفسى خطراً من ضعف

إرادتى - أبدا أبدا أيتها الكريمة وأتوسل إليك فأنا مصمم على تغيير
مجرى حياتى .. لقد رتبت نفسى على تلك الاستقالة !
وبعد مناقشة طويلة لم أضعف فيها .. ودعت اللطيفة الطيبة ميدتى
ودعت قشلاق قصر النيل .. طويت صفحة صديقى الميجور كول وكم
أنا آسف له !

.....

طويت صفحة صديقى كول وكم أنا آسف له - ولكن كان ينتظرنى
عند بوابة قصر النيل هذا اللغم الباقى الذى اسمه « مارى » -
فبمجرد أن عبرت البوابة وجدت شقيقتها الصغرى « روز » تنتظرنى
فى لهفة وذعر وبكاء .. « مارى » فى المستشفى القبطى الآن . إنها
انتحرت وتموت ، وقد أرسلتها أمها فلا بد من حضورى !. وبلا إرادة ،
فلم أقدر حتى أن أتردد ، ركبت معها التاكسى إلى المستشفى ، وحكت
لى فى الطريق كيف هاجم البوليس الحربى أول أمس شقتهم فى
الانتيكخانة ، واستولى على كل ما فيها من حاجيات وهدايا وثياب
وأموال كول ، وقبضوا على مارى ، وحققوا معها فى السجن الحربى .
وبعد تحقيق طويل أفرجوا عنها . فخرجت منه لتغافلنا وتدخل إلى
حجرتها وتغلق على نفسها حتى سمعناها فى شخير لفظ الانفاس ، فقد
ابتلعت زجاجة كاملة من أقراص الاسبرين الانجليزى .^١

.....

عندما دخلت إلى المستشفى وكانت غاصة بأهل مارى وأقربائها -
قابلتنى الأم فى لهفة وامتنان وكأننى النجدة لها .. وتعال انظر ماحدث
لنا .. نحن الولايا والبنات وماحدث لنا .. وعلى صوتها الذى بدأ يعلو
نشيجا وولولة ، فتحت مارى عينيها واستدارت ورأتنى .. وفى حركة
غريبة وغير متوقعة اكفهر وجهها ، وارتجفت بالغضب ، وانطلق منها
الصياح بأنها لاتريد أن ترى وجهى .. أن أخرج حالا من أمامها -

فأنا السبب في كل ماجرى لها ! .. أخرجت ودهشت وغمرنى الحجل والارتباك أمام الحاضرين ، وكان الطبيب واقفا فأشار لى أن أخرج تهدئة لها .. تحركت وقد بدأت أفيق من اللخمة والارتباك إلى الغضب والسخط والغفور .. أنا السبب ؟ .. أى هراء تهذى به هذه المجنونة ؟ .. ولاحقتنى الأم خلف الباب وأمسكت بيدي فى استعطاف وتوسل فإن هذا البوليس الحربى تركهم على الحديدة .. وتلك الشقة سوف يتركونها فوراً بالطبع ولكن ، تكاليف المستشفى لمارى ؟ .. إنهم يطالبونها وهذه هى الفاتورة بـ ١٢ جنيها - فليس معهم الآن المليم الواحد ! .. لا رجل بجوارها .. لا أحد ينجدها .. ومارى صدقنى تحبك . لا تأخذ بكلامها فصراخها هذا لوعة حب .. انجدنا بسرعة أرجوك !

ويا غرابة السرعة والسهولة التى امتدت بها يدي بالنقود .. خرجت متعثرا حائرا مهموما - وذعري تلك الجنيئات القليلة التى تبقت فى جيبى وقد أصبحت من اليوم بلا عمل .

.....

لقاءتى مستمرة مع الحميمين « سعيد عبده ، هيكىل » ثم بقية الصحاب والأصدقاء فى الشارع الصحفى . كتاباتى فى الساعة ١٢ تتصاعد حرارتها وتزداد اندلاعا .. بلاط الصحافة من حولى مازال يعيش فى الرجة والاهتزاز بعد الزلزال من ظهور « أخبار اليوم » .. « التويمان مصطفى وعلى أمين » تطول قامتهما وتلوى منها الهامة - وقد كتبت مسجلاً أرسال بل أنباهى فأين من هو أشهر منها الآن فى البلاد المصرية ؟ .. سطوع حزب جارف جديد أعضاؤه هم القلم والورق والمطبعة والأخبار .. إنه يكتسح أمامه عتيق الأحزاب .. عصرية صحفية ، واقتباس أوربى أمريكى ، وطموح دولى ، ونقله حارة مغامرة مؤثرة للقارئ المصرى ، تحاول أن تلبسه بدلة الفراك وقبعة التوب

هات ومعلش قريبا سوف نجد الحذاء اللميع لقدمه الحافي !
أمسكت عن الصرف بين الصحاب .. يدى تتلجم على فتحة جيبى
الخاوى .. لم أقل لأحد أننى أصبحت بلا عمل وبلا مرتب وبلا نقود ..
أهرب من لقاءات أشتيتها وسهرات قد اعتدت عليها وأحاول عبثا أن
أجد الطريق إلى تلك المنحطة المذلة النقود ! .. كلمت « حازم فودة »
أن يرفع من أجر « مى الصغيرة » عن كتابتها ، فدهش واستغرب
وتعجب ، فقد اعتاد منى التهوين من أهميته ، وكثيرا ما رآنى أدفع ثمننا
لإعلان فى الاهرام عن « مى الصغيرة اليوم فى الساعة ١٢ » .. دهش
واعتذر عن مقدرته إلا من زيادة الجنيه الواحد فقط .. شكرته
وانصرفت !.. ثم اتزويت بنشيط الوسط الفنى صديقى « عبد الله أحمد
عبد الله » وعرضت عليه أن يحاول بيع قصص مى الصغيرة للمنتجين
السينمائيين !.. ذهبت إلى مكاتب الفجالة وشارع محمد على ، وفى
يدى الدوسيه الممتلئ مما ظهر من قصص مى الصغيرة لعلهم ينشرونها
كتابا .. اعتذروا جميعا فمن يطبع القصص الآن ، ثم ماذا يجدى أجرها
التافه ؟! استلمتى فى قسوة وفظاظة . وبسرعة قدرية غريبة - اشهر
الإملاق تلك .. بدأت أستدين من ناس بعيدين عن الصحافة !..
وبالربا والرهن أبيع ما لا حاجة لى به ، بل حتى ماأنا فى حاجة
له من ثياب ومقتنيات !.. ابتعدت عن عزيزة !.. أخذت أتهرب من
لقاءات هيكل وسعيد عبده ورمسيس ومأمون ورخا وصلاح وإحسان ..
وكلما سألونى عن السبب تواريت وأنا أطلق ضحكة سخيفة فجأة يبللها
الخنجل بأننى ومى الصغيرة فى خلوة غرام مع كتابة رواية طويلة !..
ياهذا الفقر - وفى كل مراحلك معى أتلذذ بتعذيبك لى بل أفخر -
فدائها أمرق وأنجو منك بلا مذلة - أما تلك المرة فأنت تقتل رمقى
الباقى من رقيقتى وحبيبتى وآمالى مى الصغيرة !

وذات يوم مباغت وغريب وكنت أجلس وحدى بمقر الساعة ١٢
بشارع محمد باشا سعيد فوجئت برجل أصلع ضحوك يطرُق الباب

ويسأل عن عنوان الكاتبة القصصية مى الصغيرة ..!

إنه المخرج السينمائى الصاعد « أحمد ضياء الدين » وفى يده عقد مكتوب باسم مى من صورتين بالكربون ، كى تكتب له حوار فيلم عاطفى غنائى جديد تقوم ببطولته مطربة تونسية جاءت تبحث عن الشهرة فى مصر اسمها « حسية رشدى » ومعها الممول - ويقوم بالبطولة أمامها المطرب « محمد صادق » .. مفاجأة أذهلتنى بل اقتحمتنى وزلزلتنى ، فبعد خمس دقائق من تعارفنا وتفاهنا واتفاقنا ، خرجت معه فى شارع محمد باشا سعيد لنتأخر جلسة التوقيع واكمال التفاهم فى حديقة « فندق شبرد » بجوار جنينة الازبكية ١١

سلمنى ملخص القصة وهو من صفحتين .. حاولت عبثا أن أقرأ مع رجفة المشاعر التى تملكتنى وأحاول إخفاءها ، ثم سلمنى العقد المكتوب بالكربون وقد وقعت عليه بصفقى الوكيل عن مى الصغيرة « ثم وقعت ايضاً عن قسط الـ ٥٠ جنيها من أصل العقد وقيمته ١٥٠ جنيهاً ، وكانت ورقة واحدة كبيرة ، وضعتها فى جيبى مع ورقة الـ ٥ القروش الوحيدة البالية التى تبقت معى ..! وعندما انصرف « ضياء » صفقت للجرسون فكم كنت جائعا ، وهات من الأطباق سكاثوب بانيه ومعهم المحشى ، وكباب وطرب وكفته ومعهم الطحينة ، والحلويات مهلبية وبقلاوة وعيش السرايا بالقشطة . فعلت هذا ثم قمت نحو كاين التليفون أدق على الثلاثى « سعيد ورمسيس وهيكىل » والعزومة ياقتيان الليلة على حسابى كيفما تريدون وأينما تشاءون وخذوا المعلومة منى فأنا الليلة فى ثراء أغا خان ..!

« المليون »

أكلت وشبعت ودفعت الحساب .. ٧٦ قرشا لا مانع ، فالיום لى

بهيج !

جيبى منتفخ بفكة ورقة الـ ٥٠ جنيها ، تلك التى استبدلتها لى هذا الجرسون المتعاطف فى مطعم فندق شبرد ، وكومها أمامى ورفات مهلهلة من ذات الجنيه الواحد !.. أتهدى نازلاً على سلام الفندق والساعة الآن الرابعة ظهرا ، والقاهرة فى مطلع مايو تودع الربيع وتستقبل دفئا منعشا لذيدا ، ونشوق الملهبة الآن أن أمنح نفسى شيئا فوريا يسعدها بعد أن صمدت ومرقت من أشهر الفقر والقهر والحيرة والانكماش .

نظرات جرسونات وزبائن مطعم شبرد على مظهرى الخاوى كانت تقرص لقمى .. قاعة المطعم مهيبة رهيبة وكأنها صالون الاستقبال فى قصر باكنجهام الامبراطورى .. السقف البلورى ، والنجف الضخم كالشجر المقلوب ، والمرايا التى تلف وتدور ، وكل تلك الارستقراطية الجارفة التى تغمر المكان !.. المائدة التى كانت بجوارى جلس يتصدرها « الماريشال الكسندر قائد الجيش الثانى فى الصحراء » ، وعلى يمينه البرنس بول ولى عهد اليونان ، وهرفتها ضابطان آخران يجلسان وكأنهما تمثالان من رخام .. وفى مائدة أخرى قريبة فعينى تأخذ النظرات

على ثلاثة باشوات ضخام عظام هم : « عبد الجليل أبوسمرة » ، « عبد المجيد صالح » ، و « يوسف سيدناوى » .. وفى مائدة أخرى ترعرع نظراتى فى لهفة وفخار وأنا أرى « فكرى أباطة » أحد أبطال خيالى وهو جالس بشاربه المتهللى ، والسيجار فى فمه ، والمارتينى بين أصابعه وأمامه امرأة أربعينية متفجرة تضاحكه فى دلع وتدلل ، وترميه بورق الورد من فافة المائدة ، ويجوارها « غلام » لاهد وأنه ابنها - يلتهم ويلق ما يوضع أمامه من أطباق .. وعلى مائدة بعيدة ألمح النجمة السينمائية « راقية ابراهيم » ويجوارها جنرال امريكى فارط الطول وبادى التجاعيد ، يتهامسان ويضحكان ويبدو أن لها دالة عليه .. أغلبية الموائد ضباط حرب كبار - بعضهم يقطن فى الفندق ، وبعضهم ينزل فى إجازة ميدان ، وبعضهم يحلو له التواجد فى أهباء الفندق العريق الذائع الصيت .. أتأمل وأختلس النظرات وأبدو فى مائدتى المنكشة لصق الحائط بمثل « قط هزيل » ينبش عن بقايا العظم واللحم فى سلة نفسه .. أحاول إخفاء الحذاء القديم الذى بدأ يتفطح ، وأضئ أطراف الجاكطة التى بدأت تكلح .. أنا متطفل ومقتحم طبعاً على تلك الأماكن وهؤلاء الناس ، ولكنه التحدى المؤدب الساكت الذى أحاول به ترويض حياى فى هذه المدينة الطبقيّة المتقلبة المخادعة فماذا يكون البهاء لهؤلاء الناس إلا من فخارة مظاهرهم وانتفاخ جيوبهم !

أتهادى نازلاً السلام . جيبي متنفخ ، ونشوقى الملهبة حقاً أن أمنح نفسى شيئاً فورياً يسعدها .. أكنسى مثلاً ؟ .. طبعاً فتلك لهفة أفكارى الآن وإلا فكيف يقدر لى أن أوصل الصراع من خوض تلك الغابة التى توغلت أقدامى فيها ؟ .. وكان « صديقى نجيب » قد حكى لى عن محل فى « شارع المدايع » اسمه « قصر فكتوريا » ، بوسعك أن تدخله فلاحاً فتخرج منه أميراً .. فيه الكسوة من كل شيء .. الحذاء ،

والقميص ، والبدلة ، والحمالة ، والكرافنة ومنديل الزينة ، ماعدا
الطرايش طبعا - فالمحل للخزاجات !

أمشى متمهلاً إليه .. والشوارع ومعالمها الكاكي والأصفر ،
وضجيج المرور الحربى .. عساكر ، وعربات ، ومصفحات وجيب ،
وموتوسيكل ، ولوريات مشحونة ، وطواير أسرى من الطليان
والالمان يتفرج عليهم المارة في دهشة واشفاق .. شارع سليمان باشا
وقصر النيل ، وفؤاد الأول ، وإبراهيم باشا ، والمناخ ، والمدابغ ،
تتلاطم بالزحام والندرة أن تجد وجهها مصريا .. عيني على يفت الاسماء
والاعلانات والعناوين . فلا توجد كلمة واحدة عربية .. لاقراءة من
اليمن أبدا .. لى عشر دقائق وأنا أتربص أن أسمع كلمة أو نداء
بالعربية لغتنا ، أبدا أبدا - حتى بائع الصحف فى تلك الشوارع يأنف
من حمل الصحف المصرية ، فالذى عنده مجلات وصحف أجنبية ..
ويوشك رعب التراجع أن يأخذنى فأنا مقتحم على أمكنة عائلية خاصة
بالأجانب أصحاب الامتيازات !

لم يكن معى سجانر ، فتجرات أن أدخل محلا شجعنى أن البائع فيه
له بشرة مصرية سمراء .. طلبت منه علبة سجانر بحارى وكبريتا ،
فهز رأسه فى أنفه فهو لايفهم .. كررت له مطلبى بصوت واضح -
بالعربى طبعا - فصيحها لى بالانجليزية ورمها كما يرمى القعب ..
« لابس » البقال وزميله « كورثوس » ها ها أمامى وذات مرة
أخرجنى « صلاح عبد الجيد » أن أشتري من عنده البصل والبطاطس
فقد كنا فى طريقنا لإعداد ورقة لحم فى الفرن نأكلها فى بنسيون
الانتيكخانة مع بعض الصحاب .. يومها ياخجل ولحمتى ، فالبقال
الرومى لايعرف كلمة بصل أو بطاطس ، فهل هذا معقول ؟ .. وقد
تعبت حتى أفهمته مطلبى البسيط فنصحنى وهو يردده بالفرنسية
والرومية أن أطلبه بلغة مفهومة أو معروفة ..! أضواء النيون تسطع

بالاعلانات في عز الظهر .. أفيشات وفترينات ومعرضات في كل مكان ، ولكنها لا تناديك أيها المصري فهي لا تشعر بوجودك بل صياحها بالفرنسية وهتافها بالانجليزية وترحيبها بالرومية أو بالعبرية !.. مضى ودهشنى وسخط نفسى أن تلك مدينتى وعاصمة آبائى وأجدادى فمن وضع هؤلاء الناس على أرضها وجعلهم يتحكمون ويحتكرون .. بل كيف حلت لهم الحياة هنا ولهم بلادهم التى يفخرون بجمالها وحضارتها وزهو الحياة فيها ؟ .. سهولة الكسب طبعاً !.. سيولة الاستنزاف طبعاً !.. مصر البقرة والمرعى لهم الزيد واللبن ، ولنا القش والروث .. الحياة للأجانب في مصر راحة ما بعدها راحة .. امتيازات ، والقتل مجاناً للوطنيين إذا أتاك المزاج .. لا ترهقك ضرائب أو التزامات أو تجنيدات أو مسئوليات .. لا يهكم ما يحدث لهذا البلد من محن وكوارث فما شأنك فليس الوطن وطنك !.. لا يهم أن تعرف من هو رئيس الوزارة أو حتى من هو الملك ، فأنت في القمة سلطان نفسك !.. أوافقى اللبن والزبد يحلبها العبيد المصريون وكفاهم لعق الطبق ثم غسله !.. وأخيراً قف يا هذا السخط الطارئ على نشوق المتلهفة فهذا « قصر فيكتوريا » أمامى .. لم أتمهل .. لم أتردد .. تجرأت واقتحمته والتذكرة في يدي رزمة الجنيهاات المنتفخة في جيبي ! .

.....

خرجت من المحل وأنا أتألق في جاكete كحلية من صفيين بأزرار نحاسية براقه آخر موضة تفصيل الصالون الانجليزى .. وفي الجيب العلوى منديل الزينة الأحمر مثلث وهرمى .. ثم كرافطة فضية بها تعاريج ذهبية .. والبنطلون صوف رمادى شارلستون .. والحذاء شمواه بلا رقبة ولا رباط ! .. دفعت مبلغاً رهيباً التهم ستة جنيهاات كاملة - لا بأس يا قاهرى فاليوم لى بهيج !
أتهادى بأناقى الجديدة حول ميدان سليمان باشا ، ثم أستدير

وأتوقف عند مدخل « سينما راديو » ونشوقى مازالت غامضة بحثنا عن ملمس مايسعدها غير لفافة تلك القشور ! .. مازال ميعاد سهر الليل مع « هيكل وسعيد ورمسيس » أمامه ساعات طوال ، وأبدأ لا رغبة لى الآن فى العودة إلى شارع الفجالة وعفونة أزقته وحواريه .. ضجرت من شارع الفجالة هذا ويجب أن آخذ النقلة إلى سواء .. تنجذب نظراتى نحو يافطة ستديو تصوير جديد والإعلان عنه بالانجليزية طبعاً عن الاختراع الفوتوغرافى المدهش « صورتك بالرتوش تأخذها بعد ساعة » - وأوكازيون فدسته الكارت بوستال بستة قروش .. ولم أتردد ، فأى فرصة أكثر من تلك لأنال تسجيل المرحلة التى أنا فيها .

وحتى تطيع الصور قطعت تذكرة بلكون فى السينما .. كان الفيلم فى منتصفه ولم ألبث أن سئمته فهو دعاية حربية مضجرة .. قنابل ، وموت وسفك دم ، ياإلهى ماهبل تلك الحرب ؟ .. جنون هؤلاء الحضاريين ؟ .. ماهذا الاقتراس لأنفسهم ؟ .. سئمت وضجرت فالقاعة غاصة بالعساكر الانجليز والأمريكان والسنغال والهنود - ومعظمهم سكارى ومتطوحوون وصاخبون !.. خرجت من السينما .. وقفت أنتظر الصور .. هاهى الصور يا رباه فهل هذا أنا ؟. أول صورة لى بلا طربوش .. وباشدة الحياء من صفاقة أناقتى التى بت فيها !

.....

أعود وأتمشى ، وأتوقف أمام « مكتبة روكسى » الأقلام والكشاكيل الملونة تنادىنى من الفترينة .. أدخل وأشتري « قلم حبر فونتين بسن زجاجى » وكشكولاً أبيض مصقول الورق - وهذا أنا أكتشف نشوقى الغامضة فى إسعاد نفسى ، وهى أن أكتب .. أجلس وأكتب .. تلك الرواية مثلاً ، وملخصها الذى فى جيبى فلماذا لا أبدأ ؟ .. وكنت قريباً من مقهى « بور فؤاد » فدخلت واخترت مائدة فى الركن ، كنت قد غازلت جلستها ذات مرة فأعجبتنى !

فنجان القهوة ، والكوب الثلج ، وقلم الحبر فونتين ، وكشكول الورق المصقول مفتوح على أول صفحة ، ويذى تتحسس ملخص الرواية ، فأكتشف مروعا أنه غير موجود فقد نسيته في جيب البذلة القديمة والتي تركت ربطتها في المحل حتى أعود وآخذها .. لم أهتم فنشوق الآن ليست لها .. ثم أى ملخص رواية هذا الذي وضعه الأخ المخرج « أحمد ضياء الدين » في يذى لأكتب حواراه ؟.. إنه مجرد حدودة ملتوتة سفرونة عن فتاة عربية متزوجة كانت تهوى الغناء هى البطلة « حسية رشدى » هربت من زوجها وبلدها إلى الفن والشهرة الجمال في بلاد المصريين والمشهد لها من محطة باب الحديد وفي يدها عنوان المطرب الكبير « محمد عبد الوهاب » فتلتقى مصادفة - على الرصيف بالمطرب الصغير « محمد صادق » وبعدها خذ المسار ماشئت مع الحكاية !.. وفي نيتى أن أولفها طبعا طبعا .. وكما اتفقت مع ضياء فسوف تكون « مى الصغيرة » حرة في أى إضافة وأى تأليف مادام العمود الفقرى والذي هو الغناء موجودا !.. في عزمى أن أتناقها ، وبذل اتفاق المهلة شهرا ونصف الشهر للانتهاء فلن تأخذ منى أكثر من أسبوع ، فلهفتى شديدة إلى القسط الثانى والثالث !

بائع الصحف ير فى المقهى بعدد آخر ساعة الجديد ، والزبائن يتخاطفونه فى حماس فالمانشيت على الغلاف عن « أسرار الأزمة بين القصر والوفد وولى العهد » اشترت نسخة .. عزيزى « هيكمل » له توقيع صغير منمنم فى ملزمة الصفحات الأخيرة على موضوع مترجم ... « سعيد عبده » له التوقيع العريض كرئيس تحرير ، وموال له أيضا ورسم لصاروخان عن مدينة الأوقاف موضة البيع والمساهمة هذه الأيام .. مسلسل التابعى عن أسرار الأزمات فى للقصر ، وجراًة صحفية جديدة فى التناول لولى العهد المقوت هذا الذى اسمه « صاحب السمو الملكى الأمير محمد على باشا » .. تلك الجرأة فهل

هى تسديد لحساب فاروق اللاهى فى الكباريات وأمه المتزحلقة على
جبال الجليد السويسرى ؟ أم هو تسديد لحساب الشعب المختنق
المطحون الذى لا يدرى من يصدق وكيف يصدق وماذا يفعل إذا صدق
أو لم يصدق ؟ .

صفحات العدد الجديد الطازج تلسع يدى ، وحرمانى وجوعى آه لو
انتقلت ولائم مى الصغيرة من كشك الساعة ١٢ الموحش إلى البلاط
الفاخر الحاشد من آخر ساعة .. أطوى حرمانى فلا داعى لهذا الشوك
الطارئ أن يخز نشوتى ويفيقنى من ابتهاجى ، ثم أتوقف منجذبا عند
مسلسلة التابعى الأخرى الأشد تشويقا وابداعا - يكتبها تحت عنوان
« بعض من عرفت » عن غرامياته الدونكيشوتية الفاحشة فى مراتع
البندقية وفينيسا وفروسياته الدنجوانية المسرقة فى مخادع الكونتسات
وذوات الدم الأزرق على شواطئ مونت كاتينى والكوت دازور !...
أسلوب التابعى مأروعه ، تعابيره المختالة ذات الرنين الذهبى ، ولها
أحيانا صليل الأنقى ذات الأجراس .. خيالياته وعالمه المبهر الساخر
خاطف الأبصار الذى يهيم به محلقا بالقراء المصريين وعجزة الجذاب
المقبول عن الهبوط المهشم لهم على أرض الواقع !

ولست أدرى بعد أن انتهيت من قراءة آخر مغامرة له فى أوروبا التى
مازال يسرح فيها - كيف تهيجت نشوتى أن أتبارى معه محلقا فى مثل
تلك السموات من أنواع تلك الكتابة ومثل هذا العنوان - ياكثرة
الغريب والمذهل مما عرفت فى تلك السنوات الثلاث الصاخبة .. قصة
واقعية لم أحكها بعد فكم أنا خجول من صفة الواقعية لنهايتها ..
فركت يدى فتحت القلم والكشكول .. وقبل أن أنهمك فى الكتابة -
وكانت الساعة قد أصبحت السادسة - قمت إلى تليفون المقهى
وابلغت « هيكىل » إننى موجود فى انتظارهم بعد أن ينتهوا فى الجناح
الخلفى من مقهى « بور فؤاد » بشارع فؤاد الأول ... ثم تركت رقم

تليفون « بور فؤاد » فى البنسيون لمن يسأل عنى ، وعدت لأبدأ كتابة
العنوان - بعض من عرفت - بقلم مى الصغيرة !

.....

بدأت ... اندمجت .. سخن قلمى .. القصة والسرد المختصر لها -
فالبطلة أمريكية مجتدة حسناء اسمها « تمارا » تزور القاهرة فى مهمة
لأول مرة - وتقف فى الطابور أمام شباك استقبال يتألق فيه البطل وهو
شاب مصرى نشيط وأسمر ووسيم ، جذاب وبادى المرح والطموح ..
تسأله النصيحة فأمامها ٢٤ ساعة فى تلك المدينة كيف تقضيها ؟..
فبتطوع فى شهامة النبلاء أن يضع نفسه فى خدمتها ليكون دليلها إذا
انتظرت ربيع ساعة فقط حتى تنتهى ودية عمله .. وفى تلك الريع
ساعة كان قد أعد فى ذهنه برنامجا حافلا محشودا من ليلة شرقية أخاذة
سوف يسلب بتفانيها بنات الدنيا الجديدة !.. وبقية القصة وليمة ليلة
حارة يصنفها مصرى باذخ الاحلام مع أمريكية مأخوذة ومطبعة ، تصور
بعدها أنه سلب قلبها وملك عقلها ومشاعرها وأنها سوف تطارده غراما
وهياما بل لعلها سوف تلغى سفرها لتتفرغ فى بلاطه الفرعونى تغسل
أقدامه بدموعها !.. الغرض وعن فتانا شاحق الاحلام والطموح هذا
فقد استيقظ فى الصباح ليجد مظروفا تركته الامريكية مطوية على ورقة
عشرة جنيهات « تكلفة الليلة وشكرا » !! قصة ملاغية لعوب .. فكهة
لاذعة ولاهية وملطفة لوقدة الحرمان والحنين ولكنها مفوقة أيضا من
جامع الخيالات ... الوصف المستدرج هو أهم ما فيها ، ولقطات القلم
تستنبط الجديد المفرى من رشقات الكتابة على الجدران القصصية
المصرية .. ولقد وجدت نفسى أضحك مع النهاية بعد أن كتبتها ، عندما
ظهر « هيكل » و « سعيد عبده » ومعها « رمسيس » فوق رأسى ،
فما هذا الذى يضحكنى وأنا وحدى ؟.. أسرعت أغلق الكشكول وأبعد
القلم فأبدا لم يريانى من قبل وأنا أكتب !.. ولكن عزيزى الدكتور

سعيد أسرع واختطف الكشكول من أمامي ليفتحه على العنوان العريض بعض من عرفت بقلم مى الصغيرة .. وتعلو ضحكاته العصفورية ، وتتخاطف الكشكول الأيدى ، وتجحط على الاسم والخط والعنوان ، وتهمر الضحكات والسخریات وقفشناك متلبسا يا حاضرة الأنسة مى الصغيرة !.. اضطربت وارتبكت وأصابتى اللخمة ، فبادلتهم الضحك ووجهى يضطرم بحمرة الخجل - والرد لى أنها تبيض لمسودة قصة أعدتها مى الصغيرة للساعة ١٢ !.. ظل الكشكول فى يد الدكتور سعيد ، فلم يلبث منظرى الفائق الأناقة أن آخذهم إلى شغب دعاية أكبر ، فانهالوا لذعا واستفهاما ، فأردت أن أغيظهم أكثر فأخرجت صور الكارت بوستال الفاخرة فتخاطفوها مبهورين - وهيا وقع بالهدية ولكل واحد منا صورة !

اجتذب الكشكول فضول الاستطلاع والقراءة من صديقى الدكتور سعيد فانزوى عنا يطالع فيه .. استغرق فى القراءة وعلى ملامحه مرح وشغف وانبساط ، ثم غمز لهيكل همس فى أذنه ويقرأ ان سويما ثم انضم إليها رمسيس ، وكنت قد انشغلت عنهم وراء تليفون يطلبنى فى كابين المقهى ... تليفون والمتكلمة « روز » شقيقة مارى ، تبلغنى والفرح يأخذها أنهم قلبوا الدنيا بحثا عنى ، ومفاجأة أن غدا سوف تتم الخطوبة الرسمية لمارى من « كوبرال » أمريكى اسمه « جيفرى » ، والسهرة سوف تكون عند « مدام آدمة » !.. وفهمت منها عن أهمية حضورى ، فالحكومة تريد توقعيات من شهود مصريين من أجل اجراءات السفر وخلافه ، فعارى سوف تسافر مع خطيبها إلى « سان فرانسكو » ليعقدا زواجهما هناك .. تمت الاجراءات فى كل شىء ومارى وكلهم سعداء !.. أربكنى هذا التليفون .. سرى بالقلق الخفيف والحيرة المخاطفة فى نفسى - يالهذه الفتاة « مارى » ومغامراتها الأسطورية فى غابة أنواع الرجال .. هذه المرة أمريكى فهل أصدق ؟

.....

اخترنا سهرة الليلة في « حلمية بالاس » بضاحية الزيتون ..
سهرنا وشبعنا وسعدنا .. وكانت فاكهة السهرة طبعاً هذا القفش
المتواصل عن منظر مى الصغيرة المتلبس في مقهى بور فزاد !.. انطلق
اللدغ والمرح ، ومنحتنا الصدفة الرائعة منظراً ملكياً رائعاً مروعاً ، فقد
كانت « الأميرة فائزة شقيقة الملك فاروق » تجلس على مائدة عائلية
ومعها زوجها « محمد على رؤوف » وضيوف آخرون فيهم أمريكيان ..
والذى حدث أن « رؤوف اختلس نفسه من برودة الجلسة الملكية
المتكلفة وتسلسل إلى « البار » ليأخذ جلسة فرفشة مع إحدى فتيات
فرقة الرقص الفرنسية .. وظهر « فاروق » فجأة مع حاشيته ، وعندما
لاحظ أخته وضيوفها وحدهم ، ورمقت عينه صهره التيس القسطنطيني
في جلسته على البار !.. سخن دمه الشرقي وانقبضت عروقه واتجه
مندفعاً وبلا مبالاة من نظارات الساهرين ، وقفش رؤوف من قفا
الجاكتة يجره إلى حجرة مدير الملهى القريية ثم أغلقها وهات ياضرب
فيه .. أصوات من الركل والصفع والطحن والشلاليت ، وعبنا نحاول
أصوات الأوركسترا وموسيقى الجاز أن تغطيها .. ثم فتح الباب
ليخرج مرفوع الرأس وهو ينفض يده ويتجه في خطوات سريعة
ليتكوم في مقعد الصدر من مائدة شقيقته وضيوفها !.... هكذا سهرنا
وشبعنا وتفرجنا ... ولم يكن الحساب مرعباً جداً فإنه « خمس ورقات
فقط » خفت بعض العبء من هذا الانتفاخ في جيبى !

.....

نسيت الكشكول وفيه القصة مع « هيكل » تلك الليلة - وطبعاً لن
يضيع وانشغلت في اليوم التالى مع « مارى » وتوقعات عرسها
وسفرها ، وكما استغربت لمنظر هذا الشاب البرىء الخجول الذى
مازال يبدو صبياً - الكروبال الأمريكى جيفرى - وكما أخذنى
التعجب لما أصبحت مارى فيه من اتزان وعقل وهذوء وطيبة ودموعها

تجربى هذه المرة صادقة أمامى - عن إنها سوف تقادر أحبابها الحقيقيين
فى مصر ، فهل يقدر لها يوما أن تعود ؟
وعندما قابلت « هيكى » بعد يومين سألته عن الكشكول ، فقال لى
فى بساطة مثيرة انه ضاع منه .. ضاع ؟.. قالها فى بساطة سمجة مما
هيجنى وأطلقى غضبى فثرت فيه فى انفعال شديد فمن أين لى أن
أستعيد تلك القصة ؟.. قال وهو يضحك سخيلا وبلا مبالاة ، فلماذا
لا أنسخها من المسودة المعطرة ؟.. وعندما جاء « سعيد » وسمع
صخبى وثورق وعرف عن ضياع الكشكول ، تحيز ضاحكا مع هيكى
وزغدى فى جنبى مداعبا ومهدئا وياأخى فتش فى أوراق المرحومة عن
سواها ! .. المرحومة ؟! .. يقصد مى الصغيرة فما أقساه هو الآخر ؟
امتعضت صريحا من قسوة اللفظ وتلكنى الضيق إلى درجة أن هممت
بالانصراف مخاصما ومقاطعا ولكنها تمسكا بى واعتذرا وبررا ضياع
الكشكول بكلام غامض مداعب ، وهما يؤكدان بعد كل ضحكة بل
يضعفان على القول بأن أمتع المناظر لها عندما يريانى أقلت من قفص
حيائى الريفى وأبدو غضوبا صريحا بمثل هذا الذى أتحدى فيه الآن من
أجل ورق قصة لن يتاح لها النشر طبعاً ، فهل معقول أن يؤخذ عنوان
التابعى لمجلة أخرى غير آخر ساعة ؟

.....

وصباح الاحد استيقظت على تليفون ميكى يطلبنى وكان المخرج
أحمد ضياء الدين وفى صوته غموض واعتذار ، فهو يطلب منى سرعة
اللقاء من أجل تغيير العقد بعد أن انكشف الاسم .. ماذا ؟ .. وقبل أن
أفئق من صدمة أو غرابة الطلب ، قال ، إنها والله فكرة خدعة رائئة
تصلح فيلما .. ماذا ؟ .. ماذا ؟ .. وأخيرا فهمت منه أنه يتكلم « وعدد
آخر ساعة الجديد » مفتوح أمامه - وفيه صورة كبيرة لى ، مع قصة
بقلم مى الصغيرة عنوانها « بعض ما عرفت » ..
ماذا ؟ .. ماذا ؟ .. ماذا ؟ ..

« وداعا يا مدوازيل » —————

هذه « هي صورة مى الصغيرة » !!

« هذه هي صورة الفتاة التى خدعت قراءها فى الصحف بضع سنوات .. وغازلتهم بكتابات وقصص اتسمت كلها بالجوع العاطفى إلى القبلات ، وتلفت من كثيرين منهم رسائل معطرة بأريج الهوى المشبوب وتهديدات القلوب المحترقة .. فى بعضها عروض للزواج وفى سائرها استدرار للعطف الذى تختبئ فيه السهام المسمومة لكيوبيد الشرير .

هذه هي مى الصغيرة ، التى سمعت من أكثر من واحد من أصدقائى قصص غرام لعب فيها دور البريمادونا من جانب ولعبوا هم من الجانب الآخر أدوار الفرسان الأول .

هذه هي مى الصغيرة ..

« خنشور » مثلى ومثلك ، له لحية وشارب ، وعنده اليوم يريد يساوى - فى الميزان فقط بطبيعة الحال - بريد وزير .
هو الزميل الأستاذ ... إلخ » .

« سعيد »

« آخر ساعة - العدد ٥٥٣ - الأحد ١٣ مايو ١٩٤٥ »

.....

عدد المجلة يهتز في يدي وأنا واقف أمام « المعلم الحاج أبو الفضل » بائع الصحف بجوار كازينو البسفور بباب الحديد .. مفتوح على الصفحة الثانية وهذه هي قصتي وهذه هذى صورتي ، وتلك هي مقدمة الدكتور سعيد عبده لى ١ .. يا إلهى .. يا إلهى ميدان باب الحديد يتحول فجأة فى نظراتى الفاصة بالدموع إلى مسرح عريض ، طويل ، هائل ، محشود بالمتفرجين ، يخلقون فى منظرى الذى ارتفع عنه الستار فجأة !

خشية المسرح بلا كمبوشة ، وبلا ديكورات ، وبلا ممثلين ، فأنا وحدى الواقف فى دائرة من ضوء ، تتحرك أينما تحركت .. هكذا فجأة أصحو عليها .. لم أكمل ارتداء ثيابى بعد .. مازلت أحاول أن أضع ساقى فى رجل البنطلون .. تواجهنى تلك الحلقة الجاحظة الرهيبة من حشود المتفرجين ، حلقة تميد بى ، ثم قهقهة تدوى فى أذنى ، ثم ضحكات متواصلة بمجلة تزلزل وقفى - فهل هى تسخر من منظرى الريفى الحائر ؟ .. مقدمة « سعيد عبده » تلك ؟ .. هذا التسديد اللاذع المنصب فقط على الغراميات والالتهابات والعاطفيات ، فهل كانت تلك إلا القشور واللثائف للحقيقة البريئة المتوسلة من قلم ريفى محروم صاحب متعمد يحاول أن يفض الكبت عن قهر أهله ؟ .. مقدمة سعيد تلك هل هى لهُ وإثارة فى السوق الصحفى المتنافس المنسوب ؟ .. رمية جليد خاطفة لاهية سوف تذوب فى حرارة منظر واحد ؟ .. أم هى منحة انحناء عطوف ترفع الراية وتنفض البوق ليفتح الباب الملكى من بلاط صاحبة الجلالة للفلاح الحافى !

.....

عدد آخر ساعة مازال يهتز فى يدي وأنا واقف أمام بائع الصحف العجوز .. أشعر بالدوار شديد الدوار .. أنكش وأنكش كأنما مسنى إحساس بالتلاشى .. عروقى وأوردقى وأوعيتى فى داخلى تتلبك

وتتبعثر .. وقلبي في جوفى أيضا يعلو ويهبط ويدق بمثل ماسورة دق الأساسات .. روحى ترفرف وتضج وكأنها مارد محبوس في قمقم وهي الآن في ثورة الخروج والانطلاق .. أستند على حائط البسفور بجوار المعلم أبو الفضل .. اتهاوى رويدا رويدا فلم أعد بقادر على الوقوف .. اتكوم بجواره ، وأجلس على الأرض ساكنا لا أتكلم .. ويدهش الرجل بل يذعر من منظرى المسلوب فيسألنى عما بى ؟ . لا أقدر على الإجابة ، فيتلجم لسانى عن النطق . فأشير له نحو الصفحة الثانية المفتوحة من عدد آخر ساعة الجديد . يحملق الرجل فى الصفحة برهة ، ثم يرتفع صوته محمقا فى دهشة - إنها صورتك - ؟ .. أومئى له أن نعم فيعود يحملق فى الصورة ومنظره طروب ومغتبط ونظراته تنزل إلى الكلام المكتوب تحتها .. الرجل لا يعرف القراءة . أو الكتابة ويوشك أن يطلب منى قراءة هذا المكتوب ولكن منظرى السارح والبعيد جعله يتراجع فينادى على جاره الفكهاى ليقرا له .. ألاحظهما من طرف عيني الزائفة وقد مالت رأسهما على بعضهما ، فهذا يقرأ وهذا يسمع .. تأخذ نظراتى شيق اللمحات من دهشة المعلم الفكهاى وهو يقطع القراءة ما بين فقرة وفقرة ليتأكد من مقارنة الصورة بوجه هذا الأفندى الغريب المنطرح مثلها على الأرض ، والحاج أبو الفضل يزغده فى جنبه مستعجلا أن يكمل المكتوب .. أتابع ملامح بائع الصحف العجوز وقد تفتحت أشداقه عن ضحكات راضية وطيبة ومندهشة .. يا شدة ما تأكدت فى تلك اللحظة ، فكم كنت أشعر بهذا الإحساس يراودنى ، بأن هذا الرجل عم فضل هو صديقى الأول الحار فى هذه المدينة لاسعة البرودة .. قرييى أو من عائلتى ، بل هو أبى إذا شئت أن آخذ أنفاس الرفق والحنان ، فمن يطعمنى سخيا من هذا الزاد الغالى ؟ .. تلك الطبلية الثرية الشهية المنوعة التى أحوم كل صباح من حولها ، متلمظا بمنظرى الجائع متضورا بقرشى اليتيم ؟ .. المعلم أبو الفضل تنتشر ضحكاته ، ثم فجأة - فى صيحة ميدان - يعلو

صوته ملوحا بآخر ساعة مفتوحة على صفحتي ، وينادى بمثل « المصور وفكرى أباطة » ، فهذه المرة « آخر ساعة ومى الصغيرة » . اسكت اسكت يا عم أبو الفضل .. أشده من ذراعه أستوقفه عن لسعة الكرباج من هذا النداء .. أتوسل إليه أن يكف ، ولكنه نزع ذراعه منى وانتفض واقفا يطلب من زميله الفكهاى أن يفتح زجاجة شربات على حسابه .

.....

خطواتي تهول مبتعدة وهاربة يطويها الرعب والحياء من مظاهرة الحاج أبو الفضل تلك وعزومة الشربات الأحمر ! .. تلك التصفية الحانية البريئة للمتفرج أعلى التياترو ؟ .. الانبساط الهائل يرج مشاعري .. حسنا فقد انتهى المشهد الأول فماذا بعد ؟ .. انكشاف مى الصغيرة فى آخر ساعة يطيح بمشاعري ، ولكن مباغته هذا الحسم ترعبني فماذا بعد ؟ .. ما هو المشهد التالى الذى سوف أقدمه ؟ .. أنه ليس فى يدي ولا أملكه .. فأين نصه ومن يلقتني إياه .

تهول خطواتي وعدد آخر ساعة فى يدي يسرى بالكهرباء فى عروقي .. ورقة امتحان انتهتها ولم يعد يصلح لها غش أو إضافة ، فقد باتت فى يد الممتحن ؟ .. هل أروق ؟ . هل أمرق .. هل أجتاز الامتحان من تحت عيون الدهاة والمتفرسين ؟ .. تلك القصة المنشورة ؟ .. مصادفة تلك القصة المنشورة ؟ .. يا غرابة أن تقفز دون سواها لتكون فاتحة الشباك ؟ .. بل غرابة المصادفة أن أكتبها فى لحظة نشوة لمجرد لهُ وشغب مع نفسى ومحاولة شخصية جدا لاقتحام حلبة التابعى العملاق .. هل لم يكن أجدى لو أعطيت اتقان الفرصة بدل هوج المصادفة هذا ؟ .. طنين فى أذنى يهدئ من انفعالي وتطابير أفكارى ، قف أيها الأهل المفزوع فالمصادفة هى التى تحكم هذه الدنيا .. هى هندسة هذا الكون ومسيرة كل هذا الخلق .. هى علاقات

هذا العالم وشبكاته المتواصلة .. هى الحقيقة المسوكة وقل إنها البداية
والنهاية من أى شىء. وكل شىء !

مصادفة نعم ولكنى أحوم من حول تفسيرها وانطوح إلى توقع
ما بعدها ؟ .. تتابى الأفكار - يا شدة الشك مما زرعه الضيم والقهر
فى غرائزى - فهل صديقائى سعيد وهيكلى مخلصان جادان أم لاهيان
عابثان ؟ .. تلك التقدمة المهداة - وكأنها نكتة أسبوع وهات
ما بعدها ؟ .. هذا الانكشاف المباغت الذى غير خططى ؟ .. سئى أم
حسن ؟ .. هل أغضب أم أفرح ؟ آخر ساعة مجلدة كبيرة نعم وأم
المجلات حتى الآن نعم ، ولكن منذ ظهرت « أخبار اليوم » بدأ
يستلمها الضمور والفتور ... نعم كانت لفظة خطئى أن يدشن مولدى
على صفحات أخبار اليوم والتي تتبختر الآن فى عباب القارئ فخورة
بمصريتها مختالة بطموحها .. أنها توزع الآن ١٢٠ ألفا فماذا توزع
آخر ساعة ؟ .. ربما ٣٠ ألفا فقط فمن يبلغ عنى للتسعين ألفا
الجاهزين ؟ .. قف . قف أيها الفلاح المملق المفلس الدخيل يا شدة
البطر مما تتمنى أو تشتهى .

الساعة السابعة صباحا وأنا لم أفطر بعد .. خطواتى تكتسح ميدان
باب الحديد ذهابا وإيابا وعينى على باعة الصحف وعدد آخر ساعة
المجديدة يهمل فى أيديهم .. محطة مصر وشبابيك التذاكر ومشاعرى فى
لفحة من حنين جائع إلى القطار المسافر فى اتجاه قريتى .. ميعاده بعد
ربع ساعة - خط المناشى - فهل أفعلها ؟. لفتى جانحة وحنينى
حارق إلى ظل الجميزة ، والنخلة ، وتكمية العنب ، ثم التربة
والرياح ، وحوض القصب ، وغيطان القمح ، ورعرة البرسيم ..
شوقى إلى عم قطب وعم هاشم ، والشيخ حسنين ، والخال أبو بكر ،
والحاج عقرب ، والعمة أمينة .. الولد كامل ، وغانم ، والطحاوى ،
وعبد المجيد ، وعبد الحميد ، ومرسى واسماعيل . مولد سيدى

أبو الحديد ، وبخوت شم النسيم ، ومزار البركة من ضريح الشيخة زاهية ؟

أستدير عن باب الحديد ولهقى الواثبة هى أن أركب ترمواى ٨ إلى شبرا .. سنوات الصبا والمراهقة وحرقة النظرات من ثنايا الخصب القاهرى فى « حارة خليل على » .. ركبت محطة واحدة فقط عبرت بى الكوبرى ، فشهى وإفطارى الآن أن أمشى وأنهم من منظر آخر ساعة والباة يوزعونها طبق إفطار .. شبرا لم تستيقظ بعد . أبدأ من جزيرة بدران ثم مزلقان السبتية ، إلى شارع ابن الرشيد ثم شارع مسرة .. سينما دوللى وباب الترسو .. مدرسة الاسماعيلية ، وعم زغلول بائع الكتب القديمة ، وعم محجوب مؤجر الكتب الجديدة .. أصدقائى وأحبائى بالعشرات من باعة الصحف والمجلات وأى ورق يقرأ .. حارة الدرملى ، ومدرسة النيل وشارع الترعة البولاقية حتى العسال وشيكولانى ، مستشفى كيتشنر .. شارع العروسى ، ومدرستى الابتدائية .. ثم هذه الشرفة من شارع المحمودى وأول خفقة قلب من لقاء عين الريفى المنطقى بوهج فتاة قاهرة .. ثم « قصر رفعت باشا » وزير الحربية - وابنه « حسين » الذى كان زميلى فى الابتدائية ، أخذنى إلى بيته ذات مرة ورأيت أخته ، تركية ناحلة بيضاء شقراء وعود ريحان .

أعود إلى بنسيون كنج فيليب بالفجالة ، بعد أن تعبت قدامى من ذرع المدينة طولا وعرضا .

.....

« السفرجى زيتون » وفى يده آخر ساعة ، يقابلنى مبتهجا متهيجا ويصمم على تقبيلى .. « ومدام موريس » تشخط فيه أن يبتعد وتمسح بيديها فى حفاوة على جاكتى ما قد يكون علق بها من مريلة زيتون .. تحتفى بى وكأننى عظيم من صنع يديها ومنه سوف تنتشر شهرة البنسيون .. وأنا ؟ .. أنا أتلعثم تعسا وحائرا وخجولا ، وهدى أن

أهرب وأتوارى لأخلو لنفسي .. أتسلم من زيتون قائمة من سألوا
وبحثوا عنى .. صلاح عبد الجيد .. ووديع شبل ، ومنير فريد ،
ومأمون ، وحسن ، ونجيب ، وهيكل عدة مرات ، وسعيد عبده طبعاً ،
ثم رشاد رمزي ، وعبد اللطيف ، وأميل ، ورمسيس . لا لن أرد على
أحد ، ولن أتصل بسعيد أو هيكل .. سوف أغلق الحجرة على نفسي ،
أحاول أن أحاصر هذا الطوفان من مشاعري وأفكاري .. حسنا لقد
وقع الحدث ، والخطوة القادمة فماذا بعد ، وترى هل هى فى يدي ؟ ..
انطرحت على سرير كنج فليب استلمت صفحة السقف - وهات هائج
سطورك يا خيالى وتعال نتناقش .

.....

اليوم الثالث لى وأنا منكمش ومختبئ فى حجرة كنج فليب .. أحاول
أن أجمع المتفجر من أفكارى وبعثرة مشاعري - وأبدا لا قدرة لى على
ضبطها وترويضها .. التليفونات كثيرة تطلبنى ، وقد صمت ألا أرد
على هيكل أو سعيد بالذات - وحجتي المترددة أننى غير راض عن
مباغثة هذا القدر منها .. لا نصيحة لى عندها الآن بل انها قد
يقوداننى إلى هزل أكبر .. ولكن فجأة يندق التليفون بطريقة الترنك -
و « لندن » تطلبنى على التليفون .. هرولت أسرع مستغرباً ، فهل هو
الميجور كول أم بياتريس ؟ .. ووجدت ضحكات « هيكل » وهو
يقفشنى فأين أنا للمدلهات المقمى عليهن من حول عمارة بحرى يطلبن
رؤية الدون جوان المنتشور .. المظاهرات والزوار فأين أنت لها
يا أستاذ ؟ أغضبتنى نيرة السخرية من دعابته فشخطت فيه أن يتوقف
وكفى بواخا من هزار سمج ثقيل لم أعد أطيعه ؟ .. واختطف سعيد
السماعة منه وهو يطلق على الضحكات ، فهل أنا زعلان حقاً كما
يقول هيكل ؟ .. ومم الزعل يا أهبل وكل مصر قبلى وبحرى
لا حديث لها هذا الأسبوع إلا عنك ؟ وقبل أن أبرز له حجتي من
زعل التقدمة ، قاطعنى فهذا هو الوزير « عبد الحميد باشا

عبد الحق « جالس معنا في آخر ساعة ويريد أن يتعرف عليك ؟ .. وجاءني صوت الباشا الصعيدي ضحوكا مداعبا وهو يسألني هل أنا صعيدي أو بحيري ؟ .. قلت له إنني « جيزاوى » فقال : ملاك الهرم يا بختكم .. ثم تطف معي شيقا بلهجته السوهاجية التي تنقشع معها الهيبة من أى باشوية أو وزارية ، وحكى كيف كاد أن يقع في الخدعة من مى الصغيرة وكان على وشك إرسال خطاب تعيين لها لوظيفة مدير عام للإعلام في الوزارة ؟ .. بادلته الضحك فكم هو باشا لطيف ، وعاد سعيد يستلم التليفون ليجدني رحبا صافيا بلا انفعال ولا غضب .. عدنا نتضحك .. عاتبته على تلك التقدمة التي ترقص بالصاجات في سوق الغوازي ، فصرخ في وجهي زاجرا ومفوقا أن أعيش عصرى وانفض عن نفسي أغطية الريفية والتحفظ فقد انقرض عصرها .. وقل ماذا تريد الآن لتنهى زعلك ، إذا كانت تقدمتى لك قد أغضبتك فتعال وقدم نفسك بنفسك ، وخذ صفحتين بل ثلاثا في العدد القادم - وليس هذا تنازلا منا أو منحة فهو النزول على رغبة القراء والتليفونات التي لم تهدأ لحظة في آخر ساعة وهى تسأل عنك وآخرها من التابعى الذى أمر بتعيينك وضمك من اليوم إلى أسرة آخر ساعة !

.....

وفي الصباح .. فى مقهى بور فؤاد .. الركن الهادئ الرومانسى ، والمائدة الرخامية الشهية ، وفنجان القهوة الدسم ، وكوب الماء المتلجج اللذيذ .. فرشت الورق وتعال أيها القلم الفونتين أجرب معك توقيعى الحقيقى لأول مرة .

أنهت المقال .. لم أتردد فيه .. كتبه سهلا بطريقة خاطف الأقصوصة .. والأقصوصة فيه هى المشهد من ريفى يقع في حفل « بال ما سكيه » وها هو يروى ما وقع بين يديه من غريب اللواذع والنواير .. ثم جعلت الإهداء له في برواز تحت العنوان .. « إلى الصديق سعيد عبده - سامحه الله - هذا الذى أجهض الجنين الذى لم

يكمل شهره التسعة « .. طويت المقال الطويل في المظروف وكتبت العنوان باسم الدكتور سعيد ويسلم له شخصيا ويدًا بيد - وخوفى الشكاك المستريب أن يقع في يد العايب هيكل .. ثم قمت وتمشيت إلى عمارة بحرى ، وفي صندوق بريدها بجوار الباب وضعت الظرف ثم استدرت - وقد هدأ انفعالي قاصداً رستوران الريحيت حيث كانت تنتظرني الموناليزا العذبة عزيزة .

.....

صباح الأحد في الفجر .. تأخذنى عربية صديقى الودود « نجيب » إلى مطار أمانة لنودع « مارى » وخطيبها المجند الأمريكى « جيفرى » فسوف تقلع بها طائرة السادسة - وإلى الأبد وداعاً يا مصر .

في يدى عدد آخر ساعة وبها المقال الجديد وسوف أقدم منه نسخة لمارى - أول الطبعة من مى الصغيرة - عربية نجيب تنهب الطريق ، وأعود أتصفح العدد ، فمع وداع مارى اليوم فأنا أودع أيضاً مرحلة حارة من حياتى هى مى الصغيرة .. أول مقال عليه توقيعى .. العنوان له كبير ومبرز ، ولكن المبرز أكثر والذى يأخذ الوهج أكثر ، هو اسم الكاتب :. لفة قراء آخر ساعة الآن أن يقرأوا لهذا الكاتب .. هذا هو الاسم ما نشيت وعريض لم يأخذ عشر سنوات أو عشرين أو حتى ثلاث - وعزيزى كريم ثابت فما رأيك الآن ؟

مارى واقفة وسط حلقة من أهلها فى صالة الانتظار .. أتهدى نحوها ومن خلفى طابور الوداع من هائل الذكريات .. لاجئ الحرب التى وضعتنى فى ميادين حروب ضارية شرسة على طول ثلاث سنوات .. تجربة الكى على الضلوع بنار الأنوثة .. عروس بحر النار التى أوشكت أن تغوص بى فى غور أوارها .. أقترب منها وبمجرد أن ترانى تطفر الدموع من عينها .. تأخذها نوبة التأثير من لظى الوداع .. تمسك يدى وتضغطها فى عتاب لا ينسى له الحنين .

أودع ماري .. أسلمها عدد آخر ساعة الجديد .. والصفحة مفتوحة
على المقال .. نهاية الرواية من فصل النشأة والعنوان له - ما أغرب
المصادفة - يعطى المعنى والمغزى من هذه الراحلة الحارة - فقد كان
يقول لها وللناس .

« وداعا يا مدموازيل » .. والتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٥٥

« العهد والقسم »

من يوميات القاهرة ٤٥

أغسطس والحر لافح والساء غروب !
شبابيك شقة الدور الثانى من « عمارة بحرى بميدان
الاسماعيليه » - التحرير الآن - مفتوحة بأضوائها على
المصرعين ! .. يافطة النيون الملون . أزرق أخضر أحمر أصفر
تضىء ، وتطفئ بشعلة الاسم لأشهر مجلة أسبوعية فى مصر .
آخر ساعة ! .

أتهادى نحو بوابة العمارة فى بطء ورجفة ! .. رغم البدلة الجديدة
والقميص المكوى والحذاء اللميع ومنديل الصدر المثلث والقلم
الأنوسى يلمع فى الجيب . فالشكل الأعماقى يعلن بالطبل والبوق
أننى صبى فلاح كادح وحافى مشقق القدمين وبالجلابية الزرقاء الجرباء
وبالفأس والمقطف على الكتف والظهر ! .

أمرق من البوابة ويذى مطوية فى حرص وعناية على خمس ورقات
فلوسكاب مكتوبة بخط اليد . فيها أول باب صحفى لى سوف يظهر
فى العدد القادم .. تركنى التابعى أختار نوع مادته وأسلوبه
وعنوانه ! .. سوف أقدمه له بعد لحظات . ويا شدة ما أحس بالرعب
والخوف والتردد وخطر السقوط ! .

التابعى - وكان قد قرأ مقال المفاجأة المدوى - كشف القناع عن
مى الصغيرة - وهو فى مراتع موسم الصيف فى ربوع أوروبا وكان قد
سافر منها إلى فلسطين ليقضى أياما قبل أن يعود إلى مصر .. دق
التليفون على نائيه فى المجلة سعيد عبده - من جناحه الفاخر بفندق
الملك داود بتل أبيب . وسأل عنى ومن أكون ؟ .. ثم بعد أن سمع من
سعيد أعطى أوامره بإلحاقى عضوا بأسرة المجلة بمرتبة عشر جنيهات
فى الشهر لأتبادل كتابة القصة القصيرة الأسبوعية مع نجمها المرموق
« صلاح ذهنى » الذى تعين هو أيضا فى نفس اليوم وبنفس المرتبة ! .
وعاد التابعى بعدها بأيام قليلة - وظل مقبيا فى بيته بالزمالك
يستقبل زواره وسماره المشتاقين والمحتفين قبل أن يظهر فى المجلة -
وكان فى غيبته تلك قد قرأ لى أكثر من قصة من هذا النوع الذى
أحدث ضجة ودهشة وفضولا فى دوائر القراءة والكتابة الصحفية ! .

.....

هكذا أتهدى فى بطاء ورجفة وفى يدى الورقات الخمس التى سوف .
أقدمها بعد لحظات ! .. نعم بطاء ورجفة وخوف الفشل فى
الاختبار ! .. لقد تمكنت فنجحت فى امتحان الحيلة من اشهار نفسى
ككاتب قصة قصيرة يطل من خلف قناع فتاة . وبقي أن أنجح فى
امتحان المستقبل كله ككاتب صحفى يطل من حدقات عيون
الجماهير .

أصعد السلالم كمن أتسلق هرما شاهقا ! .. الورقات الخمس ؟ ..
الباب الصحفى الجديد ؟ .. يا ذعرى أن أفشل فى الاختبار . فكل
فقراته جريئة متمردة منطلقة وذات كبرياء . تعطى ظهرها للجيل
أرستقراطى قديم متهرئ لتعبر عن مشاعر جيل جديد عنيد صمم أن
يقترحم بوابة النشر المغلقة على طبقتها وغطرسة تقاليدها ! .. أنها
تذكرنى بالعريضة المنفجرة التى رفعها المظالمين من « فقراء قرية

وردان « يشكون القهر والجوع والمذلة في دائرة أملاك البرنس عمر طوسون مالك وحائز الـ ٩٩ ٪ من الأرض والزرع والبشر والمواشى في قريتهم التي ولدوا بها ! .. تذكرني بعدها بالنظرات الحمراء الشذراء على عساكر الهجانة السود وقد هجموا على القرية بالكرايبج والنعال وحوافر الخيول والبغال وطاحوا بعنف العقاب على البيت والأب والولد ! .. أبدا لا تنسى ! .. كيف تنسى !؟ .. تذكرني بصراخات الهتاف الوطني الغضوب في مظاهرات التلمذة ضد الاستعمار والظلم والطبقية من الابتدائية إلى الثانوية إلى الجامعة . وكونستبلات الانجليز وعساكر الحكام بالرش والمراوات يحاصروننا في مغلق الأركة والحارات ! .. أنسى ؟ .. بالله كيف أنسى ! .

هكذا تلك الورقات الخمس في رجفتي الآن هي أيضا محاولة تقديم عريضة احتجاج بل صرخات تمرد وثورة إلى المجتمع كله من صبي قرية وردان . وأيضا محاولة صراخ وهتاف من غلام المظاهرات ! .. الصبي والغلام الذي أصبح شابا وملك لأول مرة منبر الرأى والصوت العالى في المجلة الأولى والكبرى مسقطة الحكومات ! .

.....

أول أمس . استدعاني التابعى إلى غرفته المهيبة .. الباهر العملاق . جليس الملوك . مخيف الأحزاب والحكومات .. أجلسنى أمامه متوددا ومشتتا الهية .. شجع واستغرب حدانة أسلوبي .. شكر واستقصى عن منبع قصصى .. استلطف حيائى الريفى وانداهش من قلة تجارى . فمن أين جاءت إذن تلك القصص الواقعية الصاخبة ؟ .. حكيت له ما قدرت .. صارحته بما تمكنت .. ثم بعد تلك الجلسة عزمنى على بيته الأمبراطورى فى الزمالك .. على الكرفوازييه المعتق والسمان المشوى .. أجلسنى شغوبا بانبهارى وسط تلك الهالة المعلقة من صور معجباته ومغرماته الدوليات .. الكونتس لويزا والليدى مادونا والدوقة ايزابيلا والبرنسينس شاهنزارده والنبيلة حسن شاه ! .. ليلة مترعة

مدوخة .. ثم وهو يودعنى عند الأسانسير أخرج من جيبه ورقة عقد لمدة سنة بتعيينى كاتباً ومحرراً فى آخر ساعة بمرتب ١٥ جنيهاً فى الشهر .

« ملحوظة » - بعد ثلاثة أشهر من تلك الليلة . فجر التابى زلزالاً فى البورصة الصحفية عندما أعلن أنه رفع عقد الكاتب الناشئ - الذى هو أنا - إلى ٤٠ جنيهاً فى الشهر . بأعلى مما يتقاضى كبار وعواجز الكتاب ! .. خبر صحفى تناقلته وكالات الأنباء ووردته الصحف فى دهشة واستغراب ! » .

« ملحوظة أخرى بعد أربعة أشهر من تلك الليلة » - تلقيت دعوة لقاء عاجل وهام من صاحبى أخبار اليوم « مصطفى وعلى أمين » فى شقة الأسطح من شارع قصر النيل . وعندما ذهبت إليهما أغلقا باب حجرتهما وأنا معهما واتفقا معى على الانضمام إلى أخبار اليوم كمحرر رئيسى وكاتب متميز بمرتب ٧٠ جنيهاً فى الشهر ! .. وقبل أن أنطق بكلمة استدعيا مدير الإدارة الأستاذ عيد « ليقيد التحاقى ابتداء من اليوم ! .. وفى هذا اللقاء المدوخ المثير خجلت أن أرد بلا أو نعم . ولكننى بمجرد أن انصرفت من عندهما جلست على مائدة أول مقهى وكتبت لهما خطاباً عاطفياً مشحوناً بأشد الأسف والاعتذار - فلن يرضيهما طبعاً أن تكون بداية مسيرتى الصحفية - هو نكران الجميل لأستاذنا التابى !

قدم لى يومها عقد الـ ١٥ جنيهاً . والمطلوب منى « باب صحفى جديد » سياسى واجتماعى وفنى . ترك لى اختيار مادته وأسلوبه وعنوانه . وسوف يخصص له ابتداء من هذا الأسبوع الصفحة الثانية بعد الغلاف ! .

دخت . سعدت . تماسكت .. استعدته عن نوعية ما سوف أكتب فى هذا الباب ؟ .. فقال - أنت حر ! .. استعدته راجياً مرة أخرى فكرر

كلمة أنت حر . ثم عندما لاحظ حيرتى قال - لماذا لا تجرب أسلوبك القصصى الجديد فى النقد والذد والتعليق على أحداث الأسبوع ! .

.....

.....

أنت حر .. أنت حر ..

خطواتى المسلوقة ترددها وأنا عائد إلى بنسيون كنتج فيليب ! . فى تلك الليلة التى طويت فيها عقد آخر ساعة ولحظة أن وضعته فى جيبي . شعرت باللمس والحس والاستشاق من حواسي الخمس أننى أضيف جديدا على عضوياتى الحسية والجسدية .. عقدا جديدا ملزما بأننى بت مندوبا مكلفا عن أهالى ومظالم قري وردان وبني سلامه والخطاطية وبرقاش وكفر أبو الحديد . لأنوب عنهم أمام بلاطات وصالونات وقصور ملوك وأمراء وباشوات وحكام وطفاة مدينة القاهرة .. وأن سلاحى لهم - أيها الكاتب أنت حر ! .

تلك الليلة . قبل أن أنام . وبعد أن خلعت ثيابى .. توضأت . تطهرت . ركعت . صليت . وبدأت لحظائى التاريخية فى تربية تلك الجلسة .. التبتل والدعاء وأخذ العهد .. طلبت العفو والمغفرة عن أى انحراف مضى من تلاطم حياتى وعثرات شبابى ونزوات محاولاتي . فيها أنا منذ اليوم متطهر وجاهز لحمل أمانة القلم ! .

فى تلك الجلسة التى أيدا لن يزول نقشها على أول صفحة من مجلد حياتى القلمية . وضعت الدستور الشخصى لحياتى ككاتب وصحفى وأديب ومفكر جهز نفسه ليكون المعبر عن أجيال عصره ! .. الكراسة المقدسة للصحفى والكاتب الناشئ الصغير ! .. عاشق بلاده ومندوب أهله ! .. خذ المسكن والوقفة دائما فى أجنحة الأغلبية فهى تحمل روح الله وإرادته ! .. الأغلبية وروحها هى لؤلؤة التاج فى مرصع مملكى وما سواها غير رخص وخدم وعبيد ! .. كن جريئا مرفوع الرأس دائم الكبرياء لا تنكص ولا تهاب مادام درعك وحاميك هى تلك

الأغلبية ! .. حذار أن تطمع أو تخدع أو تخون فيادميم منظرِكَ إذا
جاملت أو حايت أو نافقت أو تهربت ! .. يا رخيص شكلك إذا
أغراك منصب أو منفع أو جاه ! .. كن مرفوع الرأس في مهنتك فأنت
بقلمك فارس في حلبة بل سلطان في مملكة ! .. لا تنزلق ولا تكن ذبلا
أو دلدولا للحكام والرؤساء والتسلطين وألا أحتقرك قلمك وورقك قبل
أن تطل بهما على القراء ! .. أبعد علاقاتك ونزواتك وغرائز بشريتك
عن مسرى قلمك ونقائه ! .. كن جديدا متفتحا على عصرِكَ . مفيدا أو
مضيفا ومضيئا ومجددا أو مرشدا للتابعين من أهلك ! .. هيا هيا يا جدد
مصر نختطف بلادنا الجلييلة العريقة من مستنقع الحرمان والذل
والهوان ! .

و .. مسحت عرقى وبدأت الكتابة ! .

لا شيء .. وضعت أمامي جملة « أنت حر » وبدأت الكتابة على
بصيص ضوئها .. أنفذ معها العهد والقسم .. تعليقات على أحداث
الأسبوع الداخلية والخارجية .. والثوب والأسلوب لها زينة عصرية
وجرأة مبتكرة وتحرر يختال برشاقة عوده .. فقرات قصيرة .. نحن في
عصر الساندوتش فلماذا لا أقدم في الفترينة مادته الصحفية بطريقة
التغذية الخاطفة والسريعة .. والإضافة بهارات وتوابل مصرية عريقة
وحريفة لم يجرب القارئ مذاقها من قبل !! .. مثلا مثلا . ألفت
الألقاب في الصفحة فليس فيها باشا أو بيه أو صاحب سمو أو صاحب
مقام رفيع ! .. لا طبقية فيها ! .. التعرية الصريحة على الكروش
الحزبية .. مطاردة العمالة والانتهازية والغلق والتزمت وضيق الأفق
والتعصب والتضليل السياسي والخداع والاحتل الاجتماعي وممنوع
ممنوع خداع القارئ ؟ .. أكبر الكبائر يا حملة الأقلام خداع
القارئ ! .. المرح أيضا والدعابة ولذع المصارحة وفض الكبت
والحرمان ! .. لا بمجاملة ولا تأدب مع الرقيب والوضع والمخادع

والمنحل .. وكل الاقبال والتشجيع والطبل والتصفيق للوطنى الصادق
والناصر والشريف ! .

.....

.....

هكذا أصعد السلام لأسلم الباب الجديد فى رجفة ورهبة .. لقد
نفذت توصية التابعى - أنت حر - فى مبالغة مفرطة باهظة .. ترى
ماذا يكون وقعها ؟ .

دخلت إلى صالة التحرير .. مشحونة وصاخبة .. كلهم أصدقائى
ومعارفى حتى قبل أن أنضم زميلا لهم فى آخر ساعة ! .. « أحمد
حسن » . « أبو الخير نجيب » « فرج جبران » . ثم أخى الجديد
وصديقى الحميم « الدكتور سعيد عبده » بضحكته الناحلة . ثم رفيقا
العمر فى ذاك الزمان « صلاح عبد الجيد » سكرتير التحرير بلسانه
المفلوت ومساعدته « محمد حسنين هيكل » بمشيته الزاحفة المختالة
كطائر البطريق .. ثم العجوز الأرمئى الأصلع الرائع رسام الكاريكاتير
« صاروخان » بعينه الغامزتين ! .

كانوا فى انتظارى مع تعليمات التابعى ! .. وبسرعة خطفوا منى
ورقات المقال . ثم تجمعوا حول مكتب سعيد عبده الذى فرش
الورقات أمامه . واتكأ صلاح على كتفه مستطلعا معه . أما هيكل فقد
أخذ الانحناء قارنا من وراء ظهره ! .. أرعبنى منظرهم .. بدأوا
القراءة والاستطلاع وسعيد عبده يرددها بصوت عال ! .. أغمض
عينى وأتماسك بلهات أنفاسى .. وشعورى أننى أجتاز الاختبار الخطير .
ولكنه ليس أهم اختبار فالأخطر والأرعب منه هو اختيار التابعى ! لم
أتحمل انتظار رأيهم .. انتهزت فرصة انكياهم وانصرف متسللا ! .

.....

.....

لم أعد إلا ثانى يوم فى الفجر ! .

منذ تسلمت عنهم لم أنم ولم تهدأ مشاعري ولا لحظة ! .. أحضر مبكرا قبل وقت حضورهم .. ترى ما رأى سعيد وهيكل وصلاح ؟ .. ترى ماذا قال التابعى ؟ .. هل قرأ التابعى ؟ .. ما أدرانى أن يكون قد وضعها فى سلة الزبالة ! .

دخلت .. لمحت صاروخان وحده وريشته قمرح وتقفز على الورق الذى أمامه .. ألقى عليه تحية الصباح مقتربا من مائدة الرسم .. ثم تسمرت عينائى على منظر ورقاقى الخمس مجموعة بأحرف المطبعة فى سلخات فسألته ما هذا ؟ .. فقال . موتيفات لصفحة حضرتك الجديدة ! .

اختطفت السلخات من أمامه . وعينى تجرى وراء ما يكون التابعى قد حذف أو شطب أو عدل من فقرات الباب . ويا رباه أبدا لا حذف ولا شطب ولا تعديل . ثم جحظت عينائى على العنوان المكتوب . وكنت قد تركته لاستشارة آخر لحظة .. ووجدته مكتوبا بخط سعيد عبده الذى أعرفه . وكان . « صواريخ » ! .

صواريخ ؟ .. صواريخ ؟ ! .. وقبل أن أتلفت لأفكر فى وقعه على أعماقى ومشاعرى المرتجة . ظهر سعيد عبده داخلا ليرمق منظرى وفى يدى السلخات .. قابلى ضاحكا ومعانقا بحرارة .. وأبلغنى أن التابعى أعجب بالباب وأصدر أمرا بأن لا حرف يتغير مما كتبت أو سوف أكتب .. ولا أحد يتطفل بالتعديل أو التغيير فى الأسلوب .. وكيف أعطاه قرش صاغ مكافأة لأنه اكتشفنى لآخر ساعة ! .

قال هذا وكنت شاردا أردد فى تردد وحيرة عنوان صواريخ الذى اختاره . فقال إنه اقتبس العنوان من فقرة فى الباب كنت أعلق فيها على حدث الأسبوع الدولى . والذى هو إطلاق أول صاروخ أمريكى .. بداية دخول البشر إلى عصر الصواريخ ! .

الفهرس

الصفحة

٣ مقدمة : بقلم الأستاذ صلاح منتصر
٩ - النسيون
٢٥ - النحلة والرحيق
٣٩ - الخطيئة
٥٥ - هارب من التجربة
٦٩ - الأسوار
٨٣ - جنون القمر
٩٧ - نحن بشر
١١٥ - الأجراس
١٣١ - المحطة
١٤٥ - البوابة
١٥٩ - العتبة
١٧٣ - السلام
١٨٧ - الزلزال
١٩٩ - الحديقة
٢١٣ - الشارع
٢٢٧ - الصالون
٢٤١ - وداعا يا مدموازيل
٢٥٣ - العهد والقسم

١٩٨٨ / ٣٥٦٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٤٧٨-٢	الترقيم الدولي

٢ / ٨٧ / ٦٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



فلاح ..
فلاح بكل طيبة قلب الفلاح
وقناعته وفرحته بحصاد الموسم
يكفيه إirاده لكل العام ..
فلاح له جذور عديدة تمتد إلى
أعماق القرية وأعماق تاريخ
ميناء وخوفو ورمسيس وكل
الفراعنة الذين كانوا يسيرون شاغحي الرأس تحف بهم وتحيطهم
الرعية ..

فلاح له كل مواصفات الفلاح المصرى من طيبة وعناد
وبساطة وقوة ، وقناعة بالقليل ، وتمسك بكل ما يؤمن به
لا يمكن أن يتنازل أو يتخلى عنه مهما كانت المتاعب أو الأهوال .
ولهذا ليس غريبا أن يكون عنوانه لهذا الكتاب هو « فلاح في
بلاط صاحبة الجلالة » .
إنه ليس كتابا في التاريخ ، ولكنه حافل بصفحات وأسرار
التاريخ .

ليس كتابا في السياسة ، ولكنك تعيش فيه السياسة .
ليس كتابا في الوطنية ولكنك تتعلم منه الوطنية .
إنه مجموعة صور من سنوات الأربعينات .
هذه السنوات التي في رحم أحداثها نمت بذور الثورة التي
غيرت وجه مصر ..

وفي كتابات إبراهيم الورداني خلال هذه السنين تعلم كثيرون
جمال وحلاوة الكتابة ..
ولكن هاهي الأيام تجري والتلميذ يقدم كتاب الأستاذ .
تفضل يا أستاذ ..
يا ناظر أول مدرسة تعلمت فيها كيف أمسك القلم .

صلاح منتصر

